الحياة العلمية والاجتماعية في مكة

في القرنين السابع والثامن للهجرة

طرفة عبد العزيز العبيكان

الرياض

١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م

(ح) مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العيكان ، طرفة عبدالعزيز

الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن للهجرة .-

الرياض.

٣٢٩ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك ٩٩٦٠-٠٠-٠٦٧-٢

١ - مكة المكرمة - تاريخ ٢ - العلوم عند المسلمين ٣ - مكة المكرمة - العادات والتقاليد أ - العنوان

ديوي ٩٥٣.١٢١ ١٦/٢٩٨٢

رقم الإيداع : ١٦/٢٩٨٢

ردمك : ٩٩٦٠-٠٠-٠٦٧-٢

الشكر والتقدير

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾

لله الفضل أولاً وأخيراً على إتمام هذه الدراسة ، كما أن الكلمات لا تستطيع أن تفي بالشكر والعرفان مني . إلى كل من ساعدني على إخراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود ، وفي مقدمتهم سعادة الدكتور / سامي الصقار الذي كان لحسن إشرافه وفضل توجيهاته ومتابعته ، أعظم الأثر على هذه الدراسة . وكذلك أقدم جزيل شكري وتقديري لكل من الدكتور / عبدالله عقيل عنقاوي والدكتور/ ريتشارد مورتيل لما استفدته من أبحاثهما التي بينها أبحاث لم تنشر بعد ، وكان لها عظيم الفائدة في هذه الدراسة .

ولا أنسى الدور الفعّال الذي قدمه لي زوجي حيث وقف بجواري مسانداً ومعاونًا يدفعني إلى الجد والمثابرة ، فله مني كل تقدير وامتنان .

كما لا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر لعمادة شئون المكتبات ممثلة في مكتبتي الطالبات في الملز وعليشة على حسن تعاون القائمات عليهما معي .

الإهـــداء

إلى نور دربي وقلبي وإلى والديَّ العزيزين أهدي هذا الجهد المتواضع عرفانًا مني بفضلهما ودورهما وأثرهما في مسيرة خطواتي التعليمية ويقينًا مني أنه لولا عنايتهما ورعايتهما وتشجيعهما لي بعد فضل الله وكرمه لما حققت ما تمنيت .

قائمة المحتويات

الموضوع الصفحة

المقدمة.. ١٣

الباب الأول : لمحات تمهيدية ٢٣

الفصل الأول : مصادر تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ٢٥

أولا المصادر المخطوطة ٢٥

ثانيا : المصادر المطبوعة ٢٦

الفصل الثاني : الوضع السياسي في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد).. ٣٩

الفصل الثالث : موقف الإسلام من العلم والتعليم ٤٥

١- فضل العلم والعلماء في القرآن ٤٥

٢- حض الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة على طلب العلم.. ٤٦

٣- نشوء العلوم في صدر الإسلام ٤٧

الباب الثاني: الحياة العلمية والتعليم ومؤسساته في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ٥١

الفصل الأول : الحركة العلمية والتعليم في مكة ٥٣

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثاني : المؤسسات العلمية والتعليمية ٥٩

١- المساجد ٦١

٢- الكتاتيب ٦٣

٣- الأربطة ٦٥

٤- المدارس ٦٦

٥- الدروس الخاصة ٧٦

٦- دروس المنازل ٧٩

٧- المكتبات ٨١

الفصل الثالث : رجال الحركة العلمية ٨٥

١- الأساتذة والطلاب ٨٥

٢- المكانة الاجتماعية للعلماء ٨٩

الفصل الرابع : أساليب التعليم والرحلات العلمية

والإجازات ٩٧

١- أساليب التعليم ٩٧

٢- الرحلة في طلب العلم ١٠٠

٣- الإجازات العلمية ١٠٢

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث : مظاهر متفرقة للحركة العلمية في مكة خلال
القرنين السابع والثامن للهجرة ١١١
الفصل الأول : العلوم التي راجت في مكة ١١٣
الفصل الثاني : حركة التاليف في مكة ١٢٧
الفصل الثالث : المجاورون بمكة والرحالون ودورهم في
في الحركة العلمية ١٤٣
الفصل الرابع : دور المرأة في الحركة العلمية ١٥٥
الباب الرابع : العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية في مكة
في القرنين السابع والثامن للهجرة ١٦٧
كلمة تمهيدية عن العوامل المؤثرة في الحياة
الاجتماعية ١٦٧
الفصل الأول: الأوضاع الاقتصادية واثرها في الحياة
الاجتماعية ١٦٩
أولا: مصادر التموين الغذائي لمكة ١٧٠
ثانيا: فترات الرخاء والشدة في مكة ١٧٥
ثالثا: أحوال الطرق ١٨٥

الموضوع | **الصفحة**

الفصل الثاني : أهمية الحج في الحياة الاجتماعية ١٨٧

الفصل الثالث : الصدقات وأوقاف الحرمين وأثرها في إنعاش الأحوال الاجتماعية ١٩٣

أولا : الصدقات ١٩٤

ثانيا : أوقاف الحرمين ٢٠٠

الفصل الرابع : المؤسسات الخيرية والمبرات ودورها في خدمة المجتمع المكي ٢٠٥

أولا : الأربطة ٢٠٥

ثانيا : المؤسسات الخيرية (غير الأربطة) ٢١٨

ثالثا : مشاركة المرأة في الأعمال الخيرية ٢٢٥

الفصل الخامس : المجاورون وأثرهم في الحياة الاجتماعية ٢٢٩

الباب الخامس : مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ٢٣٥

الفصل الأول : عناصر السكان ٢٣٧

١- الأمراء (الأشراف) ٢٣٧

٢- القواد ٢٣٩

٣- سكان مكة الأصليون ٢٤٢

٤- المجاورون ٢٤٣

الموضوع **الصفحة**

٥- الرقيق ٢٤٦

٦- المرأة المكية ٢٤٨

الفصل الثاني : القضاة وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف في مكة ٢٥١

١- القضاة ٢٥١

٢- أئمة الحرم ٢٥٦

٣- أغوات الحرم ٢٦١

٤- السدنة ٢٦٣

٥- التجار ٢٦٤

٦- المهندسون ٢٦٨

٧- الصناع ٢٦٩

الفصل الثالث : الاحتفالات والأعياد والمواكب في مكة ٢٧١

١- صلاة الجمعة ٢٧١

٢- الاحتفال بالموالد ٢٧٢

٣- الأعياد ٢٧٣

٤- الاحتفال بالحج ٢٧٥

٥- الاحتفال برؤية الأهلة ٢٧٦

٦- احتفالات رمضان ٢٧٩

الموضوع **الصفحة**

٧- ختم القرآن ٢٨٠

٨- الاحتفال بكسوة الكعبة.. ٢٨٣

٩- الاحتفال بقدوم المحمل ٢٨٤

الفصل الرابع : العادات الاجتماعية والأزياء والأطعمة

في مكة ٢٨٧

١- أخلاق المكيين وعاداتهم ٢٨٧

٢- الأزياء والملابس ٢٩١

٣- الأطعمة والأشربة ٢٩٣

الخاتمة ٢٩٥

ثبت المصادر والمراجع.. ٣٠١

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد ، فإن كتابي هذا يتناول بالدراسة الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة.

هذا الموضوع كما هو واضح من عنوانه محدود بحدود زمنية ومكانية معينة، فحده الجغرافي مكة ، وحده الزمني فترة تغطي القرنين السابع والثامن للهجرة. وسبب اختياري لهذا الموضوع منشؤه اعتقادي بأن الحجاز على - الرغم من أهميته العظيمة - لم يحظ بما يستحقه من اهتمام الدارسين وعناية الباحثين لهذه الفترة التي تغطيها الدراسة، إذ كانت مصادر التاريخ الإسلامي المعروفة حريصة على تناول تاريخ الحجاز منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى منتصف القرن الثاني الهجري ، يوم كان الحجاز مركزاً للنشاط السياسي والعلمي على السواء . ثم بدأ هذا الحرص يتضاءل ، ولاسيما منذ مطلع القرن الثالث الهجري ، فلم تعد تلك المصادر تمدنا إلا بالنزر القليل الذي يتركز بالدرجة الأولى على تاريخ مكة الديني ، كإقامة الحج للناس ونحو ذلك ، ونادراً ما تشير إلى أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية لهذا البلد ، غير أن هذه المعلومات القليلة مع ما كتبه مؤرخا مكة الأزرقي والفاكهي في القرن الثالث ، تقدم للباحث معلومات مهمة عن تاريخ مكة طوال القرون الثلاثة الأولى . وبموت هذين المؤرخين ، الأزرقي في سنة ٢٥٠هـ والفاكهي في سنة ٢٨٠هـ دخل تاريخ مكة في غياهب النسيان تقريبًا ، وأحاطه الغموض الذي استمر على مدى خمسة قرون ،إلى أن قيض الله لها مؤرخا من أبنائها في

القرن الثامن الهجري ، هو تقي الدين الفاسي ، فقد أحس الفاسي بالفراغ الذي يعانيه دارسو تاريخ مكة، مما حمله على تصنيف كتابيه القيمين " العقد الثمين " و " شفاء الغرام " لسد ذلك الفراغ[1].

أما سبب تركيزي على القرنين السابع والثامن للهجرة ، فيرجع إلى أن هذين القرنين قد شهدا تغييرات تاريخية جسيمة في معظم أنحاء العالم الإسلامي ، ومنها الحجاز . ففي أواخر القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع ، أصاب الدولة العباسية شيء من الانتعاش خلال حكم الخليفة العباسي الناصر لدين الله أبي العباس ابن المستضيء (ت ٦٢٢هـ) ، إلا أنه ما كاد ينتصف القرن السابع حتى اجتاح المغول الشطر الشرقي من بلاد الخلافة العباسية ، بل وبغداد العاصمة ، واستمر زحفهم حتى الحدود المصرية ، مما أدخل عناصر جديدة في تاريخ المنطقة ، ولسوء الحظ فإن الأيوبيين كانوا في فترة هذا الاجتياح الكاسح يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، ولم يتموا مهمتهم في إخراج الصليبيين ، إلا أن الله ألطف بالمسلمين وهيأ للعالم الإسلامي طائفة من أبنائه حملوا الراية ، وورثوا عن الأيوبيين حميتهم وحبهم للجهاد ، وأعني بهم المماليك الذين كان لهم الفضل الأكبر في وقف الزحف المغولي ، وتطهير البلاد الإسلامية من الصليبيين. ولقد كان من حسن حظ مكة أنها كانت موضع اهتمامهم كما كانت موضع اهتمام الأيوبيين من قبلهم، علاوة على اهتمام الخلافة العباسية ورجالها. ولم يكن اهتمام الأيوبيين بالحجاز قاصرا على أبناء الأسرة الأيوبية ، بل شمل ذلك الاهتمام كذلك رجالهم في اليمن ، مثل ملوك الدولة الرسولية التي أصبحت منافسة لنفوذ المماليك في مكة المكرمة ، وفضلا عن ذلك فقد كان

---

(١) الفاسي ، محمد بن أحمد الحسيني . العقد الثمين ؛ تحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨هـ) ، ج ١ ، ص ٤٠٣ .

هناك حكم الأشراف أمراء مكة الذين كان نفوذهم في مد وجزر ، تبعا لقوة شخصية الحاكم منهم ، وتبعا لقوة سلاطين المماليك ومدى اهتمامهم بالبلد الأمين . ولقد واجهتني أثناء البحث صعوبات كثيرة أهمها ناشيء عن الوضع الاجتماعي للمرأة في بلدنا حيث يصعب على المرأة في العادة دخول المكتبات العامة . هذا بالإضافة إلى فقر مكتبة الطالبات في الجامعة بالمصادر والمراجع وصعوبة الاستعارة من المكتبة المركزية ، وفضلا عن ذلك هناك الصعوبات الناشئة عن ندرة وجود المادة العلمية في المصادر المتيسرة ، وتفرقها في نبذ صغيرة متناثرة من العسير جمعها .

وقد كنت أضطر في كثير من الأحيان إلى قراءة كتب بكاملها - خصوصا وأغلبها غير مفهرس فهرسة علمية -، دون أن أعثر على رواية أو خبر له صلة بموضوع الدراسة، إذ كان المؤرخون قليلي الاهتمام بالنواحي العلمية والاجتماعية المتعلقة بمكة . وهكذا اتسم تاريخ مكة في هذه الفترة بكثير من الغموض والإهمال ، وقد أدرك ذلك بعض من سبقنا من المؤرخين، فالفاسي - كما أسلفنا - يتعجب من عدم اهتمام أحد من المكيين بتاريخ بلدهم خلال القرون الخمسة التالية لعهد الأزرقي !! ومن اهتم بتاريخ مكة تركز اهتمامه على معرفة أعيانها من أهلها وغيرهم ، فيتناول ذكر ولاتها وقضاتها وشيء قليل عن علمائها ورواتها . وعلى أي حال ، فإنني قد بذلت كل جهد ممكن في البحث عن المعلومات المدفونة في بطون الكتب على اختلاف أصنافها ، مثل كتب التاريخ والجغرافية العربية والرحلات ومعاجم التراجم وكتب الحديث والفقه ودواوين الشعر وكتب الأدب . وكان هناك إلى جانب الكتب المطبوعة عدد من المخطوطات المصورة على الميكروفلم ، وكنت أؤمل وجود بعض المعلومات فيها ،

إلا أنني بعد أن قرأتها لم أجد فيها شيئًا يستحق الذكر . ولكن ذلك لم يثن من عزمي فواصلت البحث وحاولت تخطي كل الصعاب ، حتى تمكنت من جمع المادة المطلوبة ، وقمت بدراستها وتحقيقها وتدقيقها على قدر الإمكان ، واستخراج ما يهمني من المعلومات والفوائد منها ثم صياغته في موضوع متكامل راعيت في تناوله وترتيبه وتبويبه القواعد المنهجية المتبعة في البحث والتأليف . فكانت الحصيلة هذه الدراسة التي أضعها بين يدي القارىء الكريم. وقبل القيام بتلخيص محتويات الدراسة، لا بد أن أشير إلى ملاحظة مهمة، وهي أن الحياة العلمية في أي بلد من بلاد العالم ، وفي أي عصر من العصور لا تقوم إلا بوجود العلماء وليس في الوسع معرفة عناصر تلك الحياة العلمية إلا باستعراض حياة العلماء ، ومعرفة بعض الجوانب من نشاطاتهم ، الأمر الذي اضطرني إلى إيراد تراجم موجزة للمشهورين منهم ، إذ ليس هناك وسيلة خيراً منها لتصوير الحياة العلمية . ولقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة والجوانب التي تناولتها أن نقسمها إلى خمسة أبواب، وكل باب يحتوي على عدد من الفصول بحسب الموضوعات التي تشملها، **فالباب الأول** جاء بعنوان " لمحات تمهيدية " ويضم ثلاثة فصول : **فالفصل** الأول منه بعنوان " مصادر تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة " ويشمل التعريف بالمصادر المخطوطة والمطبوعة ، والمعلومات المستقاة منها وانتفعت بها في هذه الدراسة ، مع الإشارة إلى المراجع الحديثة المتأخرة .

أما الفصل الثاني فيلقي الضوء على الوضع السياسي في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ويعطي فكرة عامة ولمحة سريعة عن الحكام الذين حكموا مكة خلال فترة دراستنا ويتناول فترات الأمن والاضطراب التي سادت

تلك الحقبة ، ذلك أن الوضع السياسي هو الوعاء الذي تدور في نطاقه الحياة العلمية والحياة الاجتماعية ، ولا يمكننا أن نفهم جوانب تلك الحياة إلا في ضوء الأوضاع السياسية .

أما الفصل الثالث - وهو عن موقف الإسلام من العلم والتعليم- فيتناول الإشارات الواردة في القرآن الكريم في فضل العلم والعلماء ، وحض الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة على طلب العلم ، مع الإشارة إلى نشوء العلوم في صدر الإسلام .

وفي ظني أن هذه اللمحات التمهيدية التي انطوى عليها الباب الأول ضرورية جدا لمن يريد دراسة الحياة العلمية والحياة الاجتماعية في مكة في عصر من عصور التاريخ الإسلامي .

أما الباب الثاني وعنوانه " الحركة العلمية والتعليم والمؤسسات التعليمية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة " فإنه يضم أربعة فصول ، يختص **الفصل الأول** منها بدراسة الحركة العلمية والتعليم في مكة المكرمة بصورة عامة، والجذور القديمة لهذه الحركة .

أما الفصل الثاني فيختص بدراسة المؤسسات العلمية والتعليمية ، فيشمل أنواع الدراسة ودور المساجد والكتاتيب ، والأربطة ، والمدارس في نشر التعليم خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، فضلا عن الدروس الخاصة وغيرها مما ساعد على نشر العلم بين المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها . وتحدثت كذلك في هذا الفصل عن الدروس التي كانت تلقى في المنازل ، وعن المكتبات وما لها من دور في نشر التعليم .

أما الفصل الثالث فتتناول الدراسة فيه الأساتذة والطلاب والمكانة

الاجتماعية التي احتلها العلماء في المجتمع المكي ، وذكر الأعمال التي مارسوها خلال فترة دراستنا ، مع التطرق إلى مدرسي المسجد الحرام .

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه الأساليب التي أتبعت في التعليم وكذلك الرحلة في طلب العلم ، والإجازات العلمية ، وذكر عدد من العلماء الذين منحوا بعض الإجازات في مكة ، مع الإشارة إلى عدد من الأشخاص الذين تلقوا تلك الإجازات عنهم ، ثم الإجازة بالمراسلة .

وقد كان **الباب الثالث** بعنوان " مظاهر متفرقة للحركة العلمية في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة " ويضم أربعة فصول أيضا وهي تتناول مظاهر من الحركة العلمية مما لا يقع ضمن موضوعات الباب الثاني .

فالفصل الأول من هذا الباب يتحدث عن العلوم التي راجت في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة على اختلاف أنواعها كالعلوم الدينية واللغوية ، والتاريخ وغيرها من العلوم .

أما الفصل الثاني فيتحدث عن حركة التأليف في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة وازدهار هذه الحركة ، ذلك أن التأليف مظهر مهم من مظاهر الحياة العلمية .

وجاء **الفصل الثالث** بعنوان " المجاورون بمكة والرحالون ودورهم في الحركة العلمية " وقد تحدثت فيه عن تاريخ المجاورين ، وضربت أمثالا على المهام " الوظائف " التي تولاها أولئك المجاورون ، ثم تناولت الرحالين الذين قصدوا مكة خلال فترة دراستنا مع التنويه بصورة موجزة بما اشتملت عليه رحلاتهم .

أما الفصل الرابع فتهدف الدراسة فيه إلى توضيح " دور المرأة في الحركة العلمية " ويبدأ بكلمة تمهيدية عن مكانة المرأة في الإسلام ، ثم يتحدث عن دور المرأة في الحركة العلمية ، وكيف كان للنساء اهتمام بالعلم وأن لبعضهن

مكاتبات ومحاورات مع علماء العصر ، وبعضهن تولى التدريس ، وأشرت إلى المجازات من النساء مع ذكر من حصلت على الإجازة بالمراسلة .

أما البا ب الرابع وهو بعنوان " العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة " ، ويضم هذا الباب كذلك خمسة فصول ، وأول هذه الفصول اشتمل على تناول الأوضاع الاقتصادية المؤثرة في الحياة الاجتماعية ومنها مصادر التموين الغذائي لمكة ، وفترات الرخاء التي سادت مكة خلال فترة دراستنا ، وكذلك الأزمات الاقتصادية والمجاعات وارتفاع الأسعار ، وأحوال الطرق المؤدية إلى مكة ، وعلاقة ذلك بتيسير وصول الحجاج ، إذ لا يخفى اعتماد مكة الكبير على الحجاج .

أما الفصل الثاني فقد خصص لدراسة أهمية الحج في الحياة الاجتماعية .

والفصل الثالث مخصص للصدقات وأوقاف الحرمين وأثرها في إنعاش الأحوال الاجتماعية في مكة . فقد تناول هذا الفصل الصدقات التي ترد إلى مكة من الملوك وأكابر المسلمين وغيرهم ، والأوقاف التي حبست للاستفادة من ريعها في تأمين الدعم المادي لسكان مكة .

أما الفصل الرابع فقد خصص لدراسة المؤسسات الخيرية والمبرات ودورها في خدمة المجتمع المكي مثل الأربطة والمؤسسات الخيرية (من غير الأربطة) مثل الآبار ، العيون والسبل ، والبرك ، والمطاهر والمستشفيات . كما تضمن هذا الفصل فقرة عن مشاركة المرأة في الأعمال الخيرية مثل إقامتها لبعض الأربطة.

والفصل الخامس قد خصص لدراسة أثر المجاورين في الحياة الاجتماعية في مكة، ذلك أن المدينة المقدسة استقطبت اهتمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وقد آثر فريق كبير منهم الهجرة إلى مكة والإقامة فيها إلى الأبد ، فحمل هؤلاء معهم عاداتهم وتقاليدهم وأزياءهم مما كان له أثره في حياة أهل مكة .

أما الباب الخامس فعنوانه " مظاهر الحياة الاجتماعية في القرنين السابع والثامن للهجرة " ، حيث أن تلك المظاهر هي قوام الحياة الاجتماعية وجوهرها ، ويشتمل هذا الباب على أربعة فصول :

الفصل الأول يختص بدراسة عناصر السكان في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة فمنهم الأمراء ، والقواد وسكان مكة الأصليون ، والمجاورون والرقيق ، والتجار فضلا عن المرأة المكية .

والفصل الثاني يتناول القضاة وأئمة الحرم والأغوات والسدنة ، إذ لا تخفى أهمية هذه الفئات ودورها في حياة مكة ، لا سيما وأن أغلبهم يقوم بخدمات أساسية في المسجد الحرام الذي يعد عماد الحياة في المدينة المقدسة .

أما الفصل الثالث فيلقي الضوء على الاحتفالات والأعياد والمواكب ، مثل صلاة الجمعة والاحتفال بالحج ، وبرؤية الأهلة ، واحتفالات رمضان والاحتفال بكسوة الكعبة وقدوم المحمل ، ومناسبات ختم القرآن . ولا يخفى أن هذه الاحتفالات والأعياد والمواكب تعد من العناصر المهمة المكونة للحياة الاجتماعية ولابد للدارس من الإلمام بها .

أما الفصل الرابع فهو بعنوان " العادات الاجتماعية والأزياء والأطعمة في مكة " وفي هذا الفصل تتناول الدراسة أخلاق المكيين وعاداتهم والأزياء والملابس والأطعمة والأشربة التي كانت سائدة بينهم ، وهذه أيضا تعد من العناصر الأساسية التي لايجوز إغفالها عند دراسة الحياة الاجتماعية .

ثم هناك كلمة ختامية موجزة وبها اختتمت دراستي وهي أنني إذ أقدم هذه الدراسة عن عاصمة الإسلام المقدسة ، آمل أن أكون قد أديت خدمة متواضعة للدارسين ، وأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه ،، والله الموفق ...

الباب الأول

لمحات تمهيدية

الفصل الأول : مصادر تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة .

الفصل الثاني : الوضع السياسي في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة .

الفصل الثالث : موقف الإسلام من العلم والتعليم .

الباب الأول

لمحات تمهيدية

لا بد لدارس أحوال مكة الثقافية والاجتماعية في القرنين السابع والثامن للهجرة ، من أن يلم قبل تناول تلك الأحوال بعدد من الأمور التي لا يمكن بدونها الإلمام بالموضوع وفهمه فهما صحيحًا ، مما دفعني لتخصيص هذا الباب لدراسة تلك الأمور ، وأعني بها :

أولا : مصادر تاريخ مكة في القرنين المذكورين ، لما لهذه المصادر من أهمية بالغة في تصوير أحوال مكة في الحقبة المذكورة ، خصوصًا وأن أغلبها مصادر معاصرة ، وهذه ميزة لا بد من التنويه بها ، لا سيما وأن مكة بقيت محرومة - كما أسلفنا - مدة تقرب من خمسة قرون من أي كتب صنفت في تاريخها .

ثانيا : لا بد لدارس الحياة العلمية والاجتماعية من إلقاء نظرة سريعة على أحوال مكة السياسية خلال القرنين السابع والثامن ، إذ لا يمكن فهم الحياة العلمية والأحوال الاجتماعية في أي بلد من البلدان إلا في نطاق الوضع السياسي لذلك البلد ، بالنظر لتلازم تلك الأوضاع ببعضها.

ثالثا: أن دراسة الحياة العلمية لأي بلد مسلم ، سواء كان ذلك في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، تتطلب بلا شك معرفة موقف الإسلام من العلم والتعليم ، إذ أن ما شهده العالم الإسلامي منذ فجر تاريخه من حركة علمية دائبة ، ما هو إلا نتيجة منطقية للموقف الذي اتخذه الإسلام من العلم وأهله .

ولهذا صار من الواجب تخصيص باب لهذه الأولويات وفيما يأتي التفصيل:

الفصل الأول

مصادر تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

بالنظر لأهمية المصادر في إعداد أي بحث من البحوث ، فقد رأيت من الضروري تخصيص هذا الفصل لمصادر تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، والتعريف بها وبمزاياها . وحيث إن تناولها كلها سيؤدي إلى تضخم هذا الفصل ، لذلك اقتصرت على التعريف ببعض المصادر التي اخترتها من العدد الوافر من المصادر التي اعتمدتها في إعداد هذه الدراسة، وهي المصادر التي كانت ذات قيمة أساسية بالنسبة لموضوع البحث .

أولا : المصادر المخطوطة :

١- إتحاف الورى بأخبار أم القرى[١] للنجم عمر بن فهد الهاشمي المكي المتوفى سنة (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م). قام ابن فهد في هذا المخطوط باستخراج المعلومات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية التي أوردها تقي الدين الفاسي في كتابه " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " ورتبها ترتيبًا زمنيًا منذ مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م، حين توقف الفاسي عن التدوين . كما أن ابن فهد قد أضاف من عنده بعض المعلومات مع التركيز على أخبار الحج، ومن قدم مكة حاجًا من الأعيان والعلماء، وأخبار أمراء الحج والنفقات التي أنفقت في مكة وكانت آتية من خارجها. وقد اهتم كذلك بأخبار أهل مكة وبعض أحوالهم الاجتماعية وتناول الكوارث الطبيعية والمبادلات التجارية والمراكب وما تحمله إلى مكة وأخبار الأسعار[٢].

---

(١) صورة ميكروفلم بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود برقم ١١٣ .

(٢) الرشيد ، ناصر بن سعد ، بنوفهد : مؤرخو مكة المكرمة والتعريف بمخطوط النجم بن فهد إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ج ٢ ، ص ٨٤ . وقد تم تحقيق هذا الكتاب بجامعة أم القرى بمكة

ولقد استفدت من هذه المخطوطة في دراسة الحياة الاجتماعية وتأثرها بغلاء الأسعار ورخصها ، وذكر الصدقات ، وما إلى ذلك مما حدث في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة .

٢- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، لأبي البقاء محمد بن أحمد الضياء القرشي المتوفى سنة ٨٥٤[١]. وقد استقيت من هذه المخطوطة معلومات غير قليلة عن مساجد مكة والمطاهر فيها .

٣- تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام لمحمد بن أحمد ابن سالم الصباغ (المتوفى سنة ١٣٢١هـ)[٢]. وعلى الرغم من تأخر هذا المخطوط من ناحية الزمن . فقد حصلت منه على معلومات قيمة تخص المدارس والأربطة الموقوفة في المدينة المقدسة والبرك والعيون والآبار والمطاهر في مكة وحرمها .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

لقد كان كتابا الفاسي " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " و " شفاء الغرام" من أهم المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة ، إذ يعد هذان الكتابان من أهم المصادر التي تناولت تاريخ مكة في القرنين السابع والثامن . ولذلك وجب عليَّ أن أعرِّف به وبمؤلفاته وهو: تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المكي المالكي المولود في سنة ٧٧٥هـ بمكة ، وقد درس فيها وفي المدينة، وقام برحلات عدة في سبيل طلب العلم إلى مصر والشام وفلسطين واليمن . وله من الشيوخ حوالي خمسمائة شيخ بالسماع وبالإجازة[٣]. وفي سنة ٨٠٠هـ أذن له في الإفتاء والتدريس[٤]. كذلك شغل منصب قضاء المالكية في مكة بتعيين من السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق (٨٠١هـ/٨٠٨هـ) . كما أنيطت

(١) صورة ميكروفلم بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود برقم ٢٨١ .
(٢) صورة ميكروفلم بالمكتبة المركزية بجامعة الملك سعود برقم ٢٥١ .
(٣) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٩ .
(٤) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

به وظيفة التدريس في المدرسة الغياثية التي أنشأها بمكة السلطان غياث الدين ملك البنغال سنة ٨١٣هـ ، كما درس وأفتى بالمسجد الحرام(١)، وقد توفي سنة ٨٣٢ هـ . وللفاسي مؤلفات عديدة في مختلف العلوم ، ويهمنا منها مؤلفاته المتعلقة بتاريخ مكة التي جعلته - على ما أعتقد - شيخ مؤرخي الجزيرة في عصره وهي :

١- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، وهو مطبوع في «٨» مجلدات ويتضمن تراجم الشخصيات البارزة من أهل مكة ومن وردها .

٢- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، وهو مطبوع عام ١٩٥٦م في جزءين ، ويتناول تاريخ مكة .

ويعد الفاسي من أغزر المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ مكة إنتاجًا وأقومهم منهجًا وأوسعهم علمًا، وقد استفاد جميع من أتى بعده من مؤرخي مكة من كتبه، أمثال ابن فهد القرشي وقطب الدين النهروالي وابن ظهيرة . وقد دفعه إلى التأليف عدم وجود مصادر تخصصت في تاريخ مكة - كما أسلفنا - منذ عهد الأزرقي (٢٥٠هـ) والفاكهي (٢٧٠هـ) ، اللذين اهتما بأخبار الكعبة والمسجد الحرام وما شابه ذلك(٢).

لقد انقطعت أخبار مكة من القرن الثالث الهجري حتى أيامه مما أحدث فجوة في المعلومات عنها ، الأمر الذي حمل الفاسي على أن يكمل الفراغ وكان من ثمرات تلك المحاولات تصنيفه لكتابيه الكبيرين اللذين أسلفنا ذكرهما . وقد صنف الأول منهما وهو " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " على أساس

(١) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام - مكة : مكتبة النهضة الحديثة - دار إحياء الكتب العربية . (١٩٥٦م) ج ١ ، ص ٢ - ٥ .
الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٩ .

موضوعي ، ورتبه على الحقب الزمنية[1] المتتالية ، والثاني كتابه " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " انتهج فيه نهج كتب التاريخ المحلي المؤسس على تراجم الرجال .

وقد اعتمد الفاسي في تأليف هذين الكتابين ليس على المصادر المكتوبة فحسب ، بل عمد إلى جمع المعلومات من شواهد الرخام والنقوش المحفورة على الأحجار والأخشاب الداخلة في أبنية القبور والمباني العامة ، فضلا عن الروايات الشفوية المستقاة من أخبار الثقات ، وما شاهده بنفسه وعلق ذلك كله بذهنه وسجله ، وضم إليه من تاريخ أبي الوليد الأزرقي مايلائمه[2]. وهكذا لم تقتصر مصادر الفاسي على الكتب المدونة ، بل تعدت ذلك إلى الآثار والنقوش والوثائق التي لها صلة بموضوع اهتمامه ، وقد أحسن الفاسي استخدام ثقافته الواسعة ومصادره في تصنيف كتبه في تاريخ مكة[3].

وتشتمل كتبه ولاسيما كتابه " شفاء الغرام " على معلومات قيمة عن النواحي الدينية والثقافية والعمرانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتغطي فترة طويلة تبدأ بعصور ما قبل الإسلام ، وتنتهي في أوائل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ولذلك فإن " شفاء الغرام " ليس مصدرا من مصادر التاريخ السياسي لمكة فحسب ، بل هو بأبوابه الأربعين يعد موسوعة تشتمل على التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني لمكة المكرمة ، ولاسيما خلال فترة مهمة من تاريخها ، وهي الفترة التي خضعت فيها

---

(1)W. G. Millward : Takial - Din - Fasi's sources for The History of Mecca from the Fourth to the Ninth Centuries A.H. Sources for the History of Arabia, Riyadh University Press, 1399, 1979, Page 37 - 39.

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢ - ٣ .

(٣) عنقاوي : عبدالله عقيل ، المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام ، بحث ألقي في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، مطابع جامعة الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

الحجاز خضوعا مباشرا لسلاطين المماليك في مصر[1]. ويكفي دليلا على أهمية هذا الكتاب أن منتخبات منه قد طبعت في لايدن عام ١٨٥٩م . وقد كان اعتمادي على هذا الكتاب كبيرا ، إذ استفدت منه في استقاء المعلومات المتعلقة بالنواحي السياسية ، وبالحياة الاجتماعية والثقافية ، وبالظروف التي تعرضت لها المدينة المقدسة كأمطار مكة وأخبار الغلاء والرخص والأوبئة وما إلى ذلك ، مما كان له تأثير على أحوالها الاجتماعية خلال فترة دراستنا .

هذا فيما يتعلق بكتاب " شفاء الغرام " ، أما " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " فإنه أوفى مصدر عن تراجم أعيان أهل مكة ومن سكنها أو مات بها من الرواة والعلماء والفقهاء والقضاة والكتّاب والولاة ومن وردها من أعيان الناس وغيرهم في مدى ثمانية قرون ، نهج فيه مؤلفه نهج من سبقه من العلماء الذين أفردوا مصنفات خاصة لتراجم أهل بلد بذاته كالخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " وأبي نعيم الأصفهاني في " أخبار أصفهان " وابن عساكر في " تاريخ دمشق " وغيرهم . وقد استكمل بذلك ما بدأه عمدة مؤرخي البلد الحرام أبو الوليد الأزرقي صاحب كتاب " أخبار مكة " وأبو عبدالله الفاكهي صاحب كتاب " تاريخ مكة " ، فقد استفاد الفاسي في تصنيفه هذا من مصنفات سابقيه من المؤرخين ، وما تلقاه من الأخبار عن الثقات ، وما شاهده مسجلا على الرخام والأحجار والأخشاب على المنوال الذي اتبعه في كتاب " شفاء الغرام " وقد تناول فيه الكلام على مكة وتاريخها وفضائلها ومعالمها وآثارها ومساحتها وتحديدها . وجعل ذلك بمثابة مقدمة طوبوغرافية للمدينة المقدسة ثم بدأ بسيرة موجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وأتبعها بتراجم الأعيان مبتدئا

---

(١) عنقاوي : المرجع السابق ، ص ٦٧ .

بالمحمديين ، تبركا باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، ولم يفته أن يترجم لعدد من نساء مكة .

والباعث الذي دفع الفاسي لتأليف هذا الكتاب هو الباعث نفسه الذي دفعه لتأليف " شفاء الغرام " . ويعد هذا الكتاب موسوعة كبرى لتاريخ مكة وعلمائها ومن سكنها ، ولقد خدمني هذا الكتاب خدمة عظيمة ، فقد استقيت منه جانبًا كبيراً من المعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة ، فكان مصدري الأساس لاسيما فيما يتعلق بالنواحي السياسية والحياة العلمية والاجتماعية وأحوال المجاورين في مكة (النزلاء) ، وكذلك أحوال المرأة ودورها في الحركة العلمية، وأخبار المؤسسات العلمية ، والأربطة والمدارس والمدرسين والمعيدين في المسجد الحرام وفي غيره من المؤسسات التعليمية ، والدروس الخاصة ودروس المنازل والطلبة ، ومن ضمنهم أولئك الذين رحلوا من أجل طلب العلم ، والإجازات وتلك التي تتناول أخبار المفتين وأعمال التأليف علاوة على المهن التي احترفها الطلبة كالتجارة والأذان وعقد الأنكحة ، والحسبة والفراشة ، والحجابة . ومنه استقيت معلومات غير قليلة عن طبقات المجتمع المكي من الأمراء ، والقضاة ، والأئمة ، وكذلك تلك المعلومات المتعلقة بالمؤسسات الخيرية والاجتماعية كالأربطة والأوقاف التي لها علاقة بالأربطة والآبار المخصصة لسقاية الناس وما إلى ذلك .

٣- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . وهو تصنيف أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٩م .

يعد هذا الكتاب من كتب التاريخ المهمة فهو يتضمن تراجم رجال القرن

(١)الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ المقدمة (ج . د . هـ .) .

الثامن الهجري وأحوالهم ، وقد جمع فيه المؤلف تراجم العلماء والمحدثين والفقهاء والمؤرخين والصلحاء والمتقين والشعراء والمصنفين والوزراء والسلاطين ، وغيرهم من الأمراء والكتاب ، ولم يترك حتى خدام السلاطين ممن عاش في القرن الثامن ، مرتبة أسماؤهم ترتيبًا أبجديًا ، وقد أخذ العسقلاني شطرا من التراجم من تصانيف العلماء الذين كانوا قبله ممن ذكر في مقدمته ، ثم أضاف أكثر التراجم من عنده بتحقيق أحوال أصحابها[1]. ولقد أتى بتراجم كثيرة للنساء العالمات ، وذكر اشتغالهن بالتدريس والتحديث والتأليف[2]. ولقد وجدت في هذا الكتاب معلومات مفيدة عن المدرسين والمجاورين (النزلاء) في مكة ، ومعلومات أخرى عن العلوم والإجازات والأئمة .

٤- إنباء الغمر بأنباء العمر . وهو لابن حجر العسقلاني أيضا .

لقد خصص ابن حجر هذا الكتاب للحوادث والوفيات التي وقعت في عصره منذ ولادته في سنة ٧٧٣هـ حتى سنة ٨٥٠هـ أي قبل وفاته بسنتين . ولقد ذكر المؤلف في هذا الكتاب كل ما وقع خلال تلك الفترة من الحوادث المهمة في العالم الإسلامي ووصف مجالس ملوك القاهرة والشام ، وما كان يجري فيها من مناقشات سياسية أو إدارية أو فقهية وأخبار سائر الدول الإسلامية[3].

ولقد أمدني هذا الكتاب بمعلومات مهمة عن المدرسين والمفتين في الحرم المكي ، والعلوم في مكة ومن برز فيها .

٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، تصنيف محمد بن عبدالرحمن السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٦م . وهذا كتاب آخر أعده من المصادر

---

(١) العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة . - بيروت : دار الجيل ج ٤ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٢) بالإضافة إلى ذلك نقد أحوال الرجال والنساء وسلك فيه طريقا جديدا بحيث أنه حسن شمائلهم الحميدة وقبح عاداتهم الذميمة .

(٣) أنباء الغمر بأنباء العمر؛ تحقيق محمد أحمد دهمان . - دمشق ، ١٣٩٩ هـ ، المجلد الأول ، ص٦-٧.

الأساسية لبحثي فهو يحفل بتراجم العديد من العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء والخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ، من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . وقد ذكر السخاوي فيه من كان في معجم شيخه ابن حجر وتاريخي العيني والمقريزي ، وقد رتب الكتاب على حروف المعجم . وضمّن هذا المصدر قسما خاصا بالنساء[1]، ولقد انتفعت به رغم أنه مخصص لأهل القرن التاسع . لأن المؤلف كان يشير إلى كثير من المعلومات المتعلقة بالقرن السابق على سبيل الاستطراد ، أو لعلاقتها بمن يترجم لهم ، أو لتداخل حياة المترجم له في القرنين الثامن والتاسع ، وهكذا فإنني أفدت منه في دراسة الحركة العلمية ولاسيما فيما يتعلق بالعلوم التي راجت في مكة المكرمة ، ودور المرأة في الحركة العلمية ، ومؤدبي الأطفال ، والطلبة الذين رحلوا من أجل طلب العلم ، والمفتين ، والمهن التي احترفها الطلبة والتأليف والإجازات . وكذلك أفادني في دراسة الحياة الاجتماعية ، فقد وجدت فيه معلومات تختص بطبقات المجتمع وبالأوقاف الخيرية ، ومشاركة المرأة في الأعمال الخيرية .

٦- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، وهو للسخاوي أيضا .

في دراستي للناحية الاجتماعية كطبقات المجتمع وأغوات الحرم والأربطة والعلوم استفدت مما ورد في هذا الكتاب رغم أنه في تاريخ المدينة ، لوجود إشارات فيه تتعلق بمكة .

٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تصنيف عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ . وقد رتبه ابن العماد على السنين من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سنة ألف هجرية . وذكر فيه ما وقع من الحوادث ، وضمنه تراجم للأعيان من العلماء والملوك وغيرهم ، فأصبح معجمًا

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . - بيروت ، (لا توجد سنة طبع) ج ١ ، ص ٥ .

لتراجم الشخصيات البارزة من أهل الدين والسياسة والعلم والأدب ، وذيلاً لما ألف في ذلك قبل سنة ألف[1]. وقد أفادني هذا الكتاب في استقاء المعلومات المتعلقة بالمرأة وبالنزلاء (المجاورين) .

٨- رحلة ابن بطوطة المسماة " **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** " لمؤلفها أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي المتوفى سنة ٧٧٩هـ ، و " ابن بطوطة " هي شهرة اشتهر بها هو وعائلته . ورحلته من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها في دراسة الحياة الاجتماعية اعتمادا كبيرا ، وخاصة في وصف المواكب والاحتفالات والأعياد التي وصفها وصفًا متوسعًا، وكذلك استفدت منها في استقاء المعلومات عن " النزلاء في مكة " وقد وفد ابن بطوطة إلى مكة لأداء فريضة الحج في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م ثم عاد إليها ثانية في موسم الحج في سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م . وحج كذلك في سنة ٧٣٢هـ[2]، وأن الرحلات التي قام بها أتاحت له فرص الاتصال بالشعوب والأمم ودراسة نفسياتها وعاداتها وأخلاقها ، فضلاً عن وصف المساجد والمدن التي زارها وذكر الحكام وأعمالهم في السلم والحرب . وقد اشتملت الرحلة على معلومات تاريخية وجغرافية مفيدة[3]عن البقاع التي زارها ، ومنها مكة المكرمة .

٩- وتعد رحلة محمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب . - بيروت - لبنان ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - ج ١ ، ص ٥ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ، ص ٤٨٠ .
ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " . - ط ١ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، ج ١، ص ١٦ .

(٣) عبدالعزيز ، محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، . - الكويت : وكالة المطبوعات - ١٩٧٣م ، ص ٢٠٣ .

المسماة " تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار " من المصادر المهمة التي اعتمدت عليها في حديثي عن الحياة الاجتماعية ، فهي وإن كانت تخص في مجملها أحوال القرن السادس الهجري فإنها تحوي معلومات مهمة يمكن قبولها لتصوير الأحوال في القرن السابع الهجري ، بالنظر لبطء التحولات التي تخضع لها الحياة الاجتماعية ، ولاسيما فيما يتعلق بالمواكب والاحتفالات والأعياد . وكذلك استفدت من هذه الرحلة (للسبب نفسه) فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية وأثرها في الحياة الاجتماعية ، على الرغم من أن رحلته كانت في القرن السادس ، ذلك لأن المعلومات التي أوردها ابن جبير تشبه كثيرا المعلومات التي ذكرها ابن بطوطة ، مما يدل على بطء التغيير في مثل هذه الأحوال . وقد تضمنت الرحلة وصف المدن وما فيها من غرائب ، والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، فضلا عن النواحي الدينية وذكر مجالس الوعظ والمستشفيات وما إلى ذلك[1]، وما يتعلق منها بمكة المكرمة شيء كثير.

١٠- وتعد رحلة أبي القاسم بن يوسف التجيبي السبيتي المتوفى سنة ٧٣٠هـ المسماة " مستفاد الرحلة والاغتراب " ، من المصادر المهمة لدراسة العادات الاجتماعية ، مثل ختم القرآن ، وذكر أئمة الحرم والعلوم ومن برز فيها في مكة . وقد قدم المؤلف إلى مكة في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٧م لأداء فريضة الحج، وقد أسهب في وصف الطريق الذي سلكه مع الحجاج وما يقدمه ذلك الطريق من خدمات تجارية[2]، كما وصف مكة وصفًا كاملاً .

(١) ابن جبير : الرحلة المسماة " تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار " دار صادر بيروت ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ٥ - ٦ .

(٢) التجيبي ، القاسم بن يوسف : " مستفاد الرحلة والاغتراب " تحقيق وإعداد عبدالحفيظ منصور - الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م ، المقدمة ص (د) .

١١- ورجعت كذلك إلى كتاب معجم الشيوخ لعمر بن فهد الهاشمي المكي المتوفى سنة ٨٨٥هـ . وخاصة فيما يتعلق بالعلوم التي راجت في مكة وحركة التأليف فيها .

ويعد هذا الكتاب من المصادر المهمة ، وتكمن أهميته في التراجم الوافية لبعض علماء المدن الإسلامية ، كما يعد سجلاً مهمًا للمدارس ونظامها الداخلي في عهده ، وسجلا لأمهات الكتب التي كانت تدرّس ، كذلك يعد الكتاب من الوثائق المهمة المتعلقة بالوظائف الإدارية في تلك الفترة كالقضاء والحسبة ونظر المدارس . وتراجم هذا الكتاب مرتبة حسب حروف المعجم(١) .

١٢- ومن الكتب التي رجعت إليها كتاب " الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة " ، تصنيف عبد القادر بن محمد الجزيري المتوفى بعد سنة ٩٧٦هـ/١٥٨٦ - ١٥٦٩م ، وقد أمدني هذا الكتاب بمعلومات عن طبقات المجتمع وأخبار الأزمات الاقتصادية كالغلاء والقحط والأوبئة والرخاء ، وأحوال الطرق والصدقات .

لقد أوفى الجزيري الكلام عما يتعلق بإمارة الحج في آخر عهد المماليك الجراكسة وأول عهد العثمانيين إلى ما بعد منتصف القرن العاشر الهجري سنة ٩٧٢هـ . ولقد وصف طرق الحج إلى مكة المكرمة وفصل الكلام بصفة خاصة على طريق الحج المصري ، ومن يأتي على ذلك الطريق البري من القاهرة إلى مكة المكرمة . وتناول أمراء الحج منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سنة ٩٧٢هـ . وسجل جوانب مهمة من تاريخ مكة المكرمة وحوادث الحج كما صور كثيرا من المآسي التي كانت تقع من عمال الدولة التركية(٢) .

---

(١) ابن فهد ، عمر بن فهد الهاشمي المكي : معجم الشيوخ ، تحقيق وتقديم محمد الزاهي راجعه حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢٦ .

(٢) الجزيري ، عبدالقادر محمد الجزيري الحنبلي ، الدرر الفرائد المنظمة ، أعده للنشر حمد الجاسر . - الرياض : دار اليمامة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٣ - ٤ .

١٣- ولقد استفدت من كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ، وهو كتاب أشهر من أن يعرف . وقد نفعني هذا الكتاب في دراستي للنواحي الاجتماعية ، وعند الحديث عن الصدقات التي كان يرسلها سلاطين المماليك إلى مكة .

١٤- ويعد كتاب " العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية " تصنيف علي بن حسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م ، من المصادر التي استقيت منها بعض المعلومات التي تخص النواحي الاجتماعية ، ولا سيما الصدقات التي كان يرسلها سلاطين المماليك إلى مكة . مثلما فعلت في كتاب " النجوم الزاهرة " وكذلك علاقة حكام اليمن بمكة ، إذ يتناول كتاب " العقود اللؤلؤية " تاريخ الدولة الرسولية منذ إنشائها حتى سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م ، فهو معاصر لفترة دراستنا وغير خافية علاقة الرسوليين بمكة المكرمة .

١٥- وهناك كتاب " حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة " تصنيف جلال الدين عبدالرحمن السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) . فقد وجدت فيه معلومات غير قليلة عن الصدقات التي كان يرسلها سلاطين المماليك إلى مكة . وقد تناول السيوطي في كتابه هذا أمراء مصر منذ خضوعها لسلطان بني أيوب إلى أن اتخذها الخلفاء العباسيون دارا للخلافة ، وذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين كما ذكرقضاة مصر ووزرائها والطريق المسلوك من مصر إلى مكة[1]، مما له علاقة بدراستنا .

١٦- أما كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م فإنني انتفعت به في استقاء المعلومات

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - ط ١ . - ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م . ج ٢ .

التي تخص الأوبئة التي انتشرت في مكة ، والصدقات التي كانت ترد إليها . ولهذا الكتاب أهمية كبيرة في دراسة تاريخ مكة السياسي والاقتصادي منذ بداية العصر الأيوبي حتى سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م - ١٤٤١م ، ويعد المقريزي شاهد عيان لبعض فترات تاريخ الدولة المملوكية ، ولذلك فمعلوماته تتسم بالأهمية .

١٧- وكذلك كتاب " الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك " وهو لتقي الدين المقريزي أيضا ، فقد استفدت منه في استقاء المعلومات التي تخص الصدقات التي ترد إلى مكة من ملوك الدول وكذلك عن كسوة الكعبة وعن خروج المحمل إلى مكة المكرمة .

١٨- ومن المصادر التي استقيت منها بعض المعلومات التي تخدم الحياة الاجتماعية تاريخ المستبصر أو " صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز " لابن المجاور ، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب المتوفى بعد سنة ٦٢٦هـ ، فقد وجدت فيه معلومات عن الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الحياة الاجتماعية وعن بعض العادات الاجتماعية .

١٩- وكذلك كتاب تاريخ ابن الفرات لناصر الدين محمد بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م الذي وجدت فيه بعض المعلومات عن أحوال الطرق وأخبار الرخص والغلاء .

٢٠- أما كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، لمحمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ . فقد وجدت فيه معلومات عن المؤلفين والرحالين والمدرسين .

٢١- ومن المراجع المتأخرة الحديثة التي رجعت إليها كتاب العلاقات الحجازية - المصرية زمن سلاطين المماليك لعلي بن حسين السليمان ، فقد استفدت منه معلومات تتعلق بطبقات المجتمع ، وبالأزمات الاقتصادية كالأوبئة والغلاء وما إلى ذلك . كذلك استفدت منه في الوقوف على أنواع الدراسة التي كانت تمارس في مكة وأحوال المجاورين .

٢٢- وهناك أيضا كتاب " بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد " تأليف الدكتور سليمان عبدالغني مالكي الذي استفدت منه بعض المعلومات التي أوردها عن طبقات المجتمع والأعياد والأربطة والآبار والسبل .

٢٣- بالإضافة إلى تلك الكتب توجد أطروحة (لم تنشر بعد) (١) أعدها ريتشارد مورتيل لنيل درجة الدكتوراه في الأدب من جامعة القاهرة ، وهي بعنوان " الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي " ، فقد استفدت منها معلومات تخص أحوال مكة السياسية في القرنين السابع والثامن للهجرة .

٢٤- وكذلك هناك بحث قدمه إلى الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الدكتور سامي الصقار - بعنوان " الحركة الثقافية في الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين " فقد استقيت منه بعض المعلومات المتعلقة بموقف الإسلام من العلوم ونشوء الحركة العلمية في الحجاز في صدر الإسلام .

٢٥- وهناك بحث نشره الدكتور عبدالله عقيل عنقاوي في مجلة كلية الآداب في جامعة الرياض ، المجلد الثاني لسنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م بعنوان " المحمل - نشأته وآراء المؤرخين فيه " .

٢٦- ويوجد بحث آخر للدكتور العنقاوي باللغة الإنجليزية ، وهو :

The Pilgramage to Mecca in Mamluk times in Arabian Studies, Cambridge, 1979.

هذه هي أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إعداد هذه الدراسة .

---

(١) علمت أثناء إعداد هذه الدراسة أن تلك الأطروحة هي قيد الطبع من قبل جامعة الملك سعود وعلى نفقتها .

الفصل الثاني

الوضع السياسي في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

(الثالث عشر ، والرابع عشر للميلاد)

ليس هدفي هنا شرح تفاصيل الوضع السياسي في مكة خلال مدة هذه الدراسة، وإنما تذكير القارىء ببعض الحقائق عن وضعها السياسي ، ليكون على بينة من أمرها وهو يقرأ هذه الدراسة، إذ لا يمكن أن تكون الحياة العلمية والأحوال الاجتماعية بمعزل عن الأوضاع السياسية .

لقد كانت مكة المكرمة في الفترة التي تغطيها هذه الدراسة (من بداية القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن) تابعة للأيوبيين أولا ثم للمماليك من بعدهم ، ولكن حكمها الفعلي كان للأشراف الحسنيين . وبطبيعة الحال كانت خلال ذلك تابعة اسماللخلافة العباسية في بغداد والقاهرة ، وهذا يلاحظ من اهتمام بعض الخلافاء ورجال دولتهم بالمدينة المقدسة الذي تجلى في إقامة المنشآت كالمدارس الشرابية التي سيأتي ذكرها - إن شاء الله - والأربطة ، إلا أننا سوف نقتصر هنا على إيراد لمحة سريعة فقط عن الأحوال السياسية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة لخروجها عن موضوع اهتمام هذه الدراسة أولا ، ولأن هناك - كما أسلفنا - دراسة قيمة عن الأحوال السياسية بمكة في العصر المملوكي[1]، قام بها الأستاذ ريتشارد مورتيل ، وقد وفّى فيها هذا الموضوع حقه . فسأكتفي هنا بإيراد بعض الحقائق عن الأوضاع السياسية المتعلقة بحكم

(١) انظر مورتيل ، ريتشارد ، رسالته للدكتوراه التي تحمل عنوان " الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي " . المقدمة إلى جامعة القاهرة - كلية الآداب - قسم التاريخ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م (لم تنشر) .

مكة المكرمة، فأقول لقد استطاع الشريف قتادة بن إدريس الحسني إزالة إمارة أبناء عمه الهواشم في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وإقامة إمارة حسنية جديدة بمكة[1]، ظلت تحكمها طيلة العصر المملوكي (٦٤٨هـ/٩٢٣م) ولقد نعمت مكة في عهد الشريف قتادة بالأمن والاستقرار، إذ تمكن من القضاء على معارضيه من الأشراف[2] وأمن جانب الخلافة العباسية . ثم أخذ ينشر نفوذه السياسي في أنحاء الحجاز واليمن[3]. ولكن الأحوال السياسية تدهورت عقب وفاته ، واستولى الأيوبيون الذين حكموا اليمن عليها لبضع سنوات[4]. ثم أصبحت مكة مسرحا لصراع دار بين الأيوبيين من جهة والرسوليين باليمن من جهة أخرى ، وذلك لأن السيطرة على مكة تضفي على صاحبها شرفًا ورفعة وتجعله في نظر المسلمين أكثر الحكام تمتعا بالشرعية ، لكونه خادمًا للحرم الشريف وحاميًا له ولحجاج بيته الحرام . وظلت أحوال مكة مضطربة حتى أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، حين استقل الشريف محمد أبو نمي بإمارتها[5]. وكان ذلك في مطلع العصر المملوكي . ولقد اهتمت دولة المماليك في مصر منذ عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس ، بمد نفوذها إلى مكة ، فنشأت علاقة متميزة بينها وبين إمارة مكة ، بالنظر لحرص المماليك على الظهور أمام العالم الإسلامي كخدام لبيت

---

(١) سنة ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ - ١٢٠١م
الفاسي : العقد الثمين ، تحقيق فؤاد سيد ، (القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٧هـ) ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
الفاسي : شفاء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة (مطبعة السنة المحمدية ١٣٨١هـ)، ج ٢ ، ص ١٩٩ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٦٤ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ؛ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٥٦ - ١٩٥٧م ، ج ١ ، ص ١٦١-١٦٢ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٦٤ .
(٣) العصامي ، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي : سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي . - القاهرة : المطبعة السلفية ، بدون تاريخ ، ج ٤ ، ص ٦٤ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٨٠ - ٨٦ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ؛ تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ، ج ٥ ، ص ٨٢
(٥) الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٤٥٩ ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٨٠ حتى ص ٨٦ .

الله الحرام وحماة له ، وما لبثت تلك العلاقة أن توثقت في عهد السلطان قلاوون[١] .

وبعد وفاة الشريف محمد أبي نمي في مطلع القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي ، تدهور حكم الأشراف الحسنيين بمكة ، بسبب المنازعات التي قامت بين أولاده حول وراثة الإمارة . فبدأت الدولة المملوكية في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تتدخل في مجرى الحياة السياسية للإمارة عن طريق عزل بعض الأشراف المتنازعين وتولية آخرين ، مستهدفة بذلك القضاء على المنازعات وإعادة الهدوء والاستقرار إلى بلاد الحجاز[٢]. ثم لجأ بعض هؤلاء الأشراف إلى إيلخانات المغول بفارس والعراق[٣]، يستمدون العون منهم لتثبيت مركزهم في إمارة مكة في مواجهة المماليك ، مما حمل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على بذل المزيد من التدخل في شؤونها . وبعد وفاة هذا السلطان حاولت الدولة الرسولية باليمن التقرب إلى أشراف مكة ، رغبة في توثيق صلتها بالإمارة[٤]، مدفوعة إلى ذلك بالدوافع ذاتها التي كانت تدفع المماليك للحرص على وجود صلة وثيقة بينهم وبين إمارة مكة . ولكن محاولات الرسوليين لم يكتب لها النجاح ، وبقيت للمماليك اليد العليا في شؤون مكة . هذا وقد ازدادت الخلافات والمنازعات بين أشراف مكة حول ولاية الإمارة أثناء

---

(١) المقريزي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) مورتيل : المرجع نفسه ، ص ١١١ حتى ص ١١٥ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ؛ تحقيق فؤاد سيد (القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (. - القاهرة : المؤسسة المصرية للتأليف ، ١٩٦٣م)، ج ٩ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٤) الفاسي : المصدر السابق؛ تحقيق فؤاد سيد، القاهرة ١٣٨٣هـ، ج ٣ ، ص ٣٩٥، ج ٦، ص ١٦٩-١٧٠ .
الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ؛ تحقيق محمد بسيوني . - القاهرة ، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، ج ٢ ، ص ٧٠ .
ابن فهد : إتحاف الورى (حوادث سنة ٧٤٢هـ) .

النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مما ألحق الضرر بالحجاج والمجاورين وبعامة أهل مكة . ولقد شهد هذا العهد تزايداً واضحا في نفوذ الدولة المملوكية بمكة ، على الرغم من صغر سن السلاطين المماليك ، فقد كان المعارضون لشريف مكة يلجأون إلى السلطان في القاهرة محاولين زعزعة خصومهم عن إمارة مكة ، وكثيرا ما يستجيب السلطان لتلك المحاولات فيعزل من يشاء ويولي من يشاء ، مما نتج عن ذلك فقدان الأشراف الحسنيين لسلطتهم في إمارة مكة[1].

ومهما يكن الحال فإن عهد الشريف حسن بن عجلان (٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م-٨٢٩هـ/١٤٢٦م) يمثل نقطة تحول مهمة في تاريخ إمارة مكة في عصر المماليك، ففي الشطر الأول من عهده تمكن هذا الشريف من السيطرة على طوائف الأشراف والقواد الذين كانوا يثيرون الاضطرابات في الإمارة ، وأخضعهم لحكمه. كما قام بتوسيع نطاق نفوذه السياسي في الحجاز، وكان من أهم أسباب نجاح الشريف حسن بن عجلان في ذلك فوزه بتأييد الدولة المملوكية لحكمه، وأبرز مظاهر هذا التأييد تولية السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق الشريف حسن ابن عجلان[2] في منصب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية كلها ، مما وطد الروابط القائمة بين إمارة مكة وسلطنة المماليك ، ثم ما لبث أن عزل الشريف حسن من هذا المنصب في عهد السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٥هـ[3]

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ج ٤ ، ص ٦١٨ - ٦١٩ ، ج ٦، ص ٦٠ - ٦١ .
المقريزي : المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٢١ .
ابن تغرى بردى : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣١٧ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) المقريزي : المصدر السابق ؛ تحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور(القاهرة، مطبعة دار الكتب ١٩٧٢م) ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
مورتيل : المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

إثر اضطراب الأوضاع السياسية بالحجاز*. ولما زادت حدة الاضطراب في أواخر عهد الشريف حسن بن عجلان ، عمد السلطان الملك الأشرف برسباي إلى إرسال عسكر من المماليك إلى مكة في كل عام ليقيم بها ويساعد أميرها الحسني في تصريف أمورها ، وبذلك تم تحول إمارة مكة المتمتعة بالحكم الذاتي إلى ولاية مملوكية . ولقد ظلت على ذلك في عهد الشريف بركات بن حسن ، وهو عهد يخرج عن الفترة الزمنية المحددة لهذه الدراسة . وعلى أي حال ، فإن مكة كانت خلال هذه الفترة موضع اهتمام الأيوبيين والمماليك من بعدهم ، وأنها مرت بفترات من الهدوء والاضطراب بسبب التنافس على إمرتها ، وقد تركت تلك الاضطرابات آثارها في حياة المدينة المقدسة ، إلا أنها لم تحل - لحسن الحظ - دون ظهور حركة علمية ملحوظة فيها ، خصوصا وقد كان للمماليك أنفسهم اهتمام خاص بالمؤسسات العلمية .

---

* وللاطلاع على بعض التفاصيل عن العلاقات المضطربة بين مكة من جهة والمماليك والرسوليين من جهة أخرى ، وتأثيرها على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية تراجع هذه الدراسة في الفصل الأول من الباب الرابع؛ وبالاضافة إلى ذلك توجد أمثلة أخرى ذات علاقة بالموضوع منها ماحدث في سنة ٧١٣هـ عندما عزم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون(١) على أداء فريضة الحج وعندما علم حميضة ورميثة من أبناء الشريف محمد أبي نمي بقدوم السلطان الناصر محمد وبصحبته أخوهما أبو الغيث لتوليته إمارة مكة ، أدركا أن مقاومتهما للناصر لن تجديهما نفعا ، وعمدا إلى نهب أموال التجار الذين قدموا إلى مكة من اليمن كما صادرا أموال الموسرين من أهل مكة ، وأخذا أموال المجاورين ثم تركا مكة(٢).

(١) فترة ولايته للمرة الأولى (٦٩٣ - ٦٩٤هـ)
فترة ولايته للمرة الثانية (٦٩٦ - ٦٩٨هـ) .
فترة ولايته للمرة الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ) .
زا مباور ، ادوارد فون : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، أخرجه د. زكي محمد حسن وحسين أحمد محمود واشترك في ترجمة بعض فصوله الدكتورة سيده كاشف وحافظ أحمد حمدي وأحمد ممدوح حمدي . القاهرة ، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .

الفصل الثالث

موقف الإسلام من العلم والتعليم

لقد جاء الإسلام بنوره فأضاء جميع نواحي الحياة الإنسانية ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور بتعاليمه الغراء وشريعته السمحة . والحق فإن بذور العلم في الإسلام والحضارة الإسلامية قديمة قدم الإسلام نفسه ، إذ بدأ إنباتها منذ نزول الوحي ، فهاهي ذي الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة تدعو المسلمين بقوة إلى الدراسة وتحثهم على البحث والترحال في سبيل العلم ، وكانت أولى سور الكتاب الكريم نزولا هي سورة القلم. وقد حفل بكثير من الآيات التي تستثير الذهن وتفتح الآفاق أمام الإنسان ليدرس ويبحث ويستقصي ويستقرىء آيات الكون التي خلقها الله سبحانه وتعالى، ثم ليندفع في طريق التغيير والتطور[١].

١- فضل العلم والعلماء في القرآن :

لقد أعلى القرآن منزلة العلماء وأغدق عليهم أسمى الدرجات ، وهل هناك دليل أقوى على شرف العلم من الشرف الذي أسبغه الله عز وجل على العلماء فقد قال الله عز وجل ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ..﴾[٢] .. وقال أيضا ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط.. ﴾[٣].. وقال ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ..﴾[٤].

(١) الصقار ، سامي : الحركة الثقافية في الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين . البحث ألقي في الندوة العربية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، عقدته كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٢ (لم ينشر) .

(٢) سورة المجادلة ، الآية (١١) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٨) .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٩) .

هذه الآيات وآيات أخرى كثيرة تحض على طلب العلم ، وتبين طريقة المتعلمين وتأديبهم ، وليس العلم والذكر في هذه الآيات هو علم الدين وحسب ، بل هو كل علم نافع يرفع من قدر الإنسان ويجعله أكثر خبرة بالحياة واطلاعا على أحوالها[1]. وعلاوة على ذلك تناول القرآن كثيرا من القصص وهذه الآيات في مجموعها دعوة صريحة واضحة إلى مواصلة تدارس القرآن الكريم وتربية النفس بآدابه المستخلصة من العلم بآياته .

٢- حض الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة على طلب العلم :

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث على طلب العلم ، فكان يدعو المسلمين لتعلم القراءة والكتابة ، فهو أول المشجعين على التعلم ، وأبرز دليل على ذلك موقفه من أسرى بدر ، إذ عرض على أسرى قريش ممن يعرف القراءة والكتابة ولا يملك مالا لفداء نفسه ، أن يعلم عشرة من صبيان الأنصار القراءة والكتابة[2].

وفي الحديث النبوي أمثلة كثيرة على تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم للتعليم من ذلك قوله ..

"طلب العلم فريضة على كل مسلم"[3]. "من يرد الله به خيراً يفقهه في دينه وإنما العلم بالتعلم"[4]. "من سلك طريقًا يبتغي فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم

---

(١) طلس ، أسعد : التربية والتعليم في الإسلام . - ط١ . - بيروت : دار العلم ، ١٩٥٧م ، ص٤٥ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى . - بيروت ، ١٩٦٠م ، ج٢ ، ص ٢٢ .
(٣) ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني : سنن ابن ماجه ؛ حققه محمد مصطفى الأعظمي . - القاهرة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج١ ، ص ٤٨ .
(٤) البخاري ، محمد بن إسماعيل : صحيح البخاري . - القاهرة : (دار الحديث ، طبعة الحلبي (بدون تاريخ)) ، ج١ ، ص ٢٤ .

يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ... الخ"[1]"
مامن خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يصنع "[2].

٣ - نشوء العلوم في صدر الإسلام :

لقد شهد صدر الإسلام نشوء العلوم الإسلامية وفي مقدمتها علوم الدين من قرآن وحديث وفقه . وقد بدأت عملية تعليم القرآن في وقت مبكر جدا قبل إنشاء المساجد العامة[3].

ودليلنا على ذلك أن الأنصار قد طلبوا بعد بيعة العقبة الأولى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم من يفقههم في الدين ، فبعث إليهم مصعب بن عمير وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام[4]، وكان يسمى في المدينة "المقرىء". ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إرسال المعلمين إلى القبائل التي تدخل في الإسلام وتلك التي يؤمل دخولها فيه، ومن ذلك إيفاده أربعين رجلا من أصحابه إلى نجد لإقراء أهلها القرآن وتفقيههم في الدين[5].

ولقد سار الخلفاء على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في إرسال المعلمين

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
ابن ماجه : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٤ .
الدرامي ، عبدالله بن عبدالرحمن : سنن الدرامي ، القاهرة ١٩٦٦م ، المقدمة ، ص ٢١ .
(٢) النووي أبو زكريا يحيى بن مشرف : نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، شرح مصطفى سعيد الحسن ، مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ، ج٢ ، ص ٩٥٥-٩٥٦ .
(٣) الصقار : المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٤) ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك بن هاشم المعافري : السيرة ، تحقيق أحمد حجازي ، (بيروت ، دار التراث العربي للطباعة والنشر ، ج٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .
(٥) ابن هشام : السيرة ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، ج٣ ، ص ١٩٣، ١٩٤ .

إلى الأمصار والبلاد المفتوحة . أما بالنسبة للعلوم التي عرفها المسلمون في صدر الإسلام فخير مثال على ذلك ما كان يبحث في مجلس ابن عباس مثل الفقه والعربية والأنساب والشعر وأيام العرب ووقائعها وتفسير القرآن الكريم وأحكام الكتاب والحديث ، ولقد كانت هذه العلوم متميزة عن بعضها البعض ومعروفة بأسمائها ، وقد تخصص بعض العلماء في بعضها دون بعضها الآخر بخلاف ابن عباس الذي كان موسوعيًا وكان متبحرا في كل شيء[1].

ومن الملاحظ أن انتشار العلم في العالم الإسلامي وازدهار الحركة العلمية قد انعكسا بطبيعة الحال على الحرمين الشريفين ، لما لهما من قدسية في نفوس المسلمين جاعلين البيت الحرام مثابة للناس ، إذ يقصدونه من كل فج عميق لأداء فريضة الحج ،(فأصبحت مكة ملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم ، وهي بحكم دينهم الحنيف لا بد لهم أن يتوجهوا إليها ويرتبطوا بها ولهذا فقد أصبحت مكة منذ جاء الإسلام مركزا للثقافة الإسلامية ، يجتمع فيها العلماء الذين يفدون من أقصى الشرق والغرب ، ويتحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وتبادل رأي واستزادة علم وامتداد لروافد المعرفة وانتشار للأفكار بين مختلف الفئات الإسلامية[2].)

وهناك حقيقة أخرى أدت إلى ازدهار الحركة العلمية في الحجاز هي أن انتقال النشاط السياسي إلى خارج الجزيرة أتاح لأهل الحجاز الفرصة للتركيز على العلوم وطلبها ، ولذلك لم يكن غريبًا أن تستمر مكة المكرمة في رعاية العلم والعلماء بصرف النظر عن التطورات السياسية التي شهدتها المدينة المقدسة ، مما سنلمسه بوضوح في الفصول الآتية من هذه الدراسة إن شاء الله .

---

(١) الصقار : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٢) الجاسر ، حمد : أشهر رحلات الحج ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي والمغربي . - ط١ . - دار الرفاعي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ١١ .

الباب الثاني

الحياة العلمية والتعليم ومؤسساته في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

الفصل الأول : الحركة العلمية والتعليم في مكة .

الفصل الثاني : المؤسسات العلمية والتعليمية .

١- المساجد . ٢- الكتاتيب .

٣- الأربطة . ٤- المدارس .

٥- الدروس الخاصة . ٦- دروس المنازل .

٧- المكتبات .

الفصل الثالث : رجال الحركة العلمية .

١- الأساتذة والطلاب .

٢- المكانة الاجتماعية للعلماء .

الفصل الرابع : أساليب التعليم والرحلات العلمية والإجازات .

١- أساليب التعليم .

٢- الرحلة في طلب العلم .

٣- الإجازات العلمية .

الباب الثاني

الحياة العلمية والتعليم ومؤسساته في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

نتناول في هذا الباب الحركة العلمية والتعليم في مكة المكرمة ولا سيما دور المسجد الحرام في تلك الحركة ، إذ كان عامرا بحلقات التدريس التي كان أكابر الشيوخ يعقدونها في جنباته ، وهو تقليد إسلامي محض يعود إلى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد رسخه في مكة ابن عباس (رضي الله عنهما) . وحيث إن التعليم لم يكن قاصرا على المسجد الحرام ، وقد شارك في هذه المهمة مؤسسات أخرى مثل الأربطة والمدارس ، فقد خصصنا فصلا في هذا الباب لتلك المؤسسات . هذا وقد كان للتعليم أساليب معينة يتبعها القوم ، ولا تكمل هذه الدراسة إلا بإلقاء الضوء على تلك الأساليب التي يدخل ضمنها الرحلة في طلب العلم ، لذلك خصصناها بفصل من فصول هذه الدراسة . وحيث إن الإجازات العلمية تحتل مكانة خاصة في عملية التعليم عند المسلمين ، إذ كان المتعلمون منهم يحرصون على الفوز بها تتويجا لجهودهم في طلب العلم وتكون دليلا على بلوغهم مرتبة علمية سامية تؤهلهم للتدريس ، بل كان يحرص على كسبها الكبير والصغير كشهادة يفخر بها الإنسان بين أقرانه وأترابه . لهذا كان من الواجب أن نتناول هذه الإجازات في هذا الفصل . وبالنظر لأهمية الأساتذة والطلاب في عملية التعليم إذ هم الأركان التي تقوم عليها تلك العملية ، فقد خصصنا فصلا لهؤلاء ، واستطردنا في هذا الفصل الحديث عن المكانة الاجتماعية التي كان العلماء والأساتذة يحتلونها في المجتمع المكي . وقبل الدخول في التفاصيل لابد لي من الاعتراف بأنني اضطررت في أحيان كثيرة إلى أن أستعين بالمراجع المتأخرة لاستكمال المعلومات الشحيحة، الواردة في المصادر .

الفصل الأول

الحركة العلمية والتعليم في مكة المكرمة

ألقينا الضوء في الباب الأول على موقف الإسلام من العلم والتعليم وتشريفه لأهل العلم مما أدى إلى نهضة علمية واسعة شملت بقاع العالم الإسلامي ، ومنها مكة المكرمة التي أشرنا فيما سبق إلى المكانة التي احتلتها تلك المدينة المقدسة كمركز علمي بارز في الحياة العلمية الإسلامية .

ولقد أدت حلقات العلم في المسجد الحرام دوراً بارزاً في الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز عامة ، فقد كان للمسجد دور فعال في رقي الأمة الإسلامية وتطورها في مختلف المجالات الدينية والفكرية والحضارية منذ فجر الإسلام ، سواء أكان ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أم في حياة من جاء بعده من الصحابة والتابعين[1] . وفي عهد الخلفاء الراشدين توسعت ثقافة مكة بدافع من دينها الجديد . وظل المسجد الحرام في هذا العهد يزدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى ، وظلت حلقاتهم تتدبر تفسير آيات الذكر الحكيم ، وأخذ اتساع الحلقات يتضاعف في مواسم الحج ، ولا يخفى أن المقصود بالحلقات هنا ، ذلك النظام التعليمي القائم على إحاطة الطلاب بشيخهم وهو نظام يعود إلى العصر النبوي - كما أسلفنا - وقد استمر هذا الشكل

---

(١) باقاسي ، عائشة عبد الله : بلاد الحجاز في العهد الأيوبي ، دار مكة للطباعة والنشر - (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) ، ص ١٠١ .

حتى بعد إنشاء المدارس الإسلامية . ومن الممكن وصف الحلقة بأنها صفوف دراسية دائمة ذات عدد غير محدود من الطلاب[1].

وفي العهد الأموي ازدحمت مكة بمجموعة كبيرة من الأعلام الذين زهدوا الحياة وانقطعوا للعبادة والعلم ، ومن أشهرهم عبدالله بن عباس الذي رجع إلى مكة واتخذ مجلسه في دار زمزم ينشر علومه ومعارفه . ويعد ابن عباس من أشهر الصحابة علماً وأكثرهم اطلاعاً ، وقد سمي حبر هذه الأمة وترجمان القرآن، لكثرة علمه وسعة اطلاعه ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ألفًا وستمائة وستين حديثًا[2]، ومن الملاحظ أن عودته إلى مكة لم تكن مجرد انتقال من بلد إلى بلد ، إنما هي عودة إلى حياته العلمية الأولى ، واستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما دعا له فقال " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "[3]، وكما أسلفنا فإن ابن عباس كان يجلس في البيت الحرام عند قبة زمزم[4]ويعلم التفسير والحديث والأدب والمغازي والسير وأيام العرب وأشعارهم ، الأمر الذي يدل على براعته في ميادين شتى من ميادين

---

(١) الخطيب البغدادي ، أحمد بن علي : تاريخ بغداد (١٣٤٩هـ/١٩٣١م) ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .
أحمد منير الدين : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري ، ترجمة الدكتور سامي الصقار . - الرياض : دار المريخ ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م ، ص ٥٤ .

(٢) الفاسي : العقد ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة : (١٣٨٥هـ/١٩٦٦م) ج ٥ ، ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الثالث ، طبعة ١٩٧٧م/١٣٩٧هـ، ص ٦٢ .
الخن ، مصطفى سعيد : عبد الله بن عباس : (بيروت، دار القلم، ١٩٨٠م، ص ١٥ .

(٤) الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ؛ تحقيق رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

العلم والمعرفة ، وقال عمرو ابن دينار " مارأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس : الحلال والحرام والعربية والأنساب "[1].

نتيجة لذلك اتسعت حلقة ابن عباس في المسجد الحرام وكثر الوافدون إليها ، ولعبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما لمدرسة مكة من شهرة علمية ، وقد تخرج في هذه المدرسة عدد من كبار التابعين مثل عطاء بن أبي رباح الذي خلف ابن عباس في حلقة العلم والفتيا ثم صارت هذه الحلقة لابن جريج[2] وقد تخرج فيها كثيرون . وعلى الرغم من وفاة ابن عباس سنة ٧٨هـ[3]، فإن مدرسة مكة استمرت قائمة يتلقى أبناؤها العلم طبقةً بعد طبقة .

ولم يقتصر نشاط مكة العلمي على حلقات الدرس التي تعقد فيها ، فقد رحل فقهاؤها إلى مختلف البلاد فنشروا علومهم هناك ، وكانت مكة في موسم الحج تمتلىء بالمستنفعين والمناقشين وكانت بعض المجالس تعقد في بيوت فقهائها علاوة على حلقاتهم في المسجد[4].

ولايفوتنا أن نذكر أن حلقات العلم في مكة أصبحت تغص بطلاب العلم من أصحاب مالك والشافعي ثم أصحاب ابن حنبل ، وقد برز من بين هؤلاء أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ، وهو أول من صنف في تاريخ مكة وأخبارها[5].

---

(١) ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ بن كثير : البداية والنهاية . – ط ٢ – . مكتبة المعارف ، (١٩٧٤م/١٣٩٤هـ) ج٨، ص٣٠١ .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦١ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

(٤) السباعي ، أحمد ، تاريخ مكة . – ط ٤ . – دار مكة للطباعة والنشر . (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج ١ ، ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٥) وكتابه مطبوع بجزءين ، تحقيق رشدي الصالح ملحس – دار الأندلس .

ولقد انتاب النشاط العلمي لأسباب غير واضحة شيء من الفتور خلال ثلاثة قرون من الرابع إلى السادس . ولقد برزت بعض البيوت التي اختصت بطلب العلم في القرن السادس الهجري مثل بيت الطبري وهم ينتسبون إلى قريش ، ثم ظهر آل ظهيرة وهم من قريش أيضاً ، وآل النويري ، وقد برزت منهم أسماء كثيرة في عهد الأيوبيين استطاع أصحابها أن يشاركوا آل الطبري في رئاسة التدريس بمكة ، وأن يتولوا الإمامة والخطابة في المسجد الحرام ، وقد ساعد وجود هذه الأسر على عودة الجو العلمي إلى مكة ، ولقد تحسن الوضع كثيراً في العهد الأيوبي لكثرة من قصد مكة من العلماء ، وكانت حلقات التدريس تعقد يوميًا في المسجد . وتضم جميع الراغبين في حضورها إذ كانوا يتحلقون حول شيخهم الذي يلقي إليهم بدروسه ويناقشهم ويناقشونه . ولقد كان لكل مذهب ركن خاص به في الحرم المكي[1] .

والدراسة في الحرم المكي لم تنتهج منهجا مقرراً أو محدداً ، فالمدرس هو الذي يقرر ما يريد تدريسه لطلبته وهو الذي يختار المنهج الملائم لهم ، والدرس يعقد يوميا من قبل الشيخ وتضم الحلقة الجميع بلا تفرقة[2]. ومن الملاحظ أن

---

(١) عبدالعزيز ، محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ٣٢ .

باقاسي : المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) مالكي ، سليمان عبدالغني : بلاد الحجاز بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز (١٤٠٢هـ/١٩٨٣م) ، ص ١٨٧ .

بالنسبة للحاشيتين (١ و ٢) حاولت العثور على المصادر التي رجع إليها كل من الحسيني وباقاسي ومالكي فلم أوفق ، إذ لم يرجعوا إلى مصدر أصلي إلا أن عقد الحلقات في المساجد أمر معروف مشهور بالتواتر ولا سيما في المسجد الحرام .

حلقات العلم لم تكن تقتصر على الدروس الملقاة فحسب ، بل كان يتم فيها مناظرة العلماء ، من المجاورين والوافدين عليهم من شتى أقطار العالم الإسلامي ، حيث كانت تعقد في الحرم المكي في أوقات موسم الحج حلقات مختلفة تتناول جميع العلوم النقلية والعقلية[1] .

واستمر الحال على تلك الصورة في عهد المماليك إذ ظلت البيوت المتخصصة بالعلم في مكة تنشر العلم بين طلابه سواء في الحلقات العامة في المسجد الحرام أو في بيوتها الخاصة ، وقد نبغ كثير من الطلاب في هذا العهد ، نتيجة ازدياد حلقات التدريس . وفي هذا العهد اشتهر عدد غير قليل من العلماء الذين ينتمون إلى الأسر العلمية التي ذكرناها آنفا . وفضلا عن ذلك فقد كانت مجالس بعض الأمراء في هذا العهد ندوة لكبار العلماء ، حيث حرص أولئك الأمراء على المشاركة في النشاط العلمي ، فجعلوا من مجالسهم مثابة للقاء العلماء حيث تسود روح البحث العلمي ومن أشهر تلك المجالس مجالس حسن ابن عجلان[2] وابنه بركات وحفيده محمد ، وكلهم من أمراء مكة وكانوا يمتازون بالإقبال على أهل العلم .

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى (مخطوطة) ، ص ٢١٥ .
مالكي : المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٢) هو أمير ونائب السلطنة بالأقطار الحجازية ، تولى إمارة مكة حوالي عشرين سنة ، توفي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م . وقد سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول المخصص للأحوال السياسية .
الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

الفصل الثاني

المؤسسات العلمية والتعليمية

لم يكن المسجد الحرام وحده ملتقى العلم والعلماء والأساتذة والطلاب ؛ بل هناك أماكن أخرى يمكن اعتبارها جوازاً مؤسسات علمية أدت دورها في الحركة التعليمية في مكة المكرمة ومنها الكتاتيب وبعض الأماكن العامة والخاصة وما إليها من المؤسسات العلمية والتعليمية التي عرف بعضها منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه ، واستمرت تؤدي دورها فترة طويلة حتى شاركتها في هذه المهمة المدارس . ولقد كان المسلمون الأوائل يتلقون العلم في تلك المؤسسات هم وأبناؤهم وبناتهم ومواليهم ، فيقرأون آيات الكتاب الكريم ويدرسون علم الفرائض والدين[1]. ثم اتسعت حركة التعليم فشملت مؤسسات كثيرة أخرى ، منها المدارس والأربطة ، وما إلى ذلك . وقد عرفت مكة المكرمة هذه المؤسسات جميعها أو أكثرها على أقل تقدير . ولكن الدراسة في تلك المؤسسات لم تكن تسير على وتيرة واحدة ، إذ يلاحظ وجود عدد من أنواع الدراسة التي يمكن إيجازها في الآتي :

أ - فهناك دراسة نظامية قائمة في مدارس معينة يتولى التعليم فيها عدد من الأساتذة يرأسهم " شيخ المدرسة " الذي يعينه السلطان ثم يتخرج التلاميذ من المدارس بإجازات من مدرسيهم توضح ما قرأوه وحفظوه وتفتح لهم الأبواب للتدريس[2].

---

(١) طلس ، أسعد ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) ابن حجر ، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج ٤ ، ص ١٦٩ .

السليمان ، علي بن حسين : العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك (القاهرة ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص ٢٢٤ .

ب - أما النوع الثاني من أنواع الدراسة فوسط بين الانتظام وعدمه إذ يتم في الأربطة والزوايا[1].

ج - النوع الثالث من الدراسة وهو الأغلب والأعم ويتألف من الدراسة في المقامات أي مقامات المذاهب الأربعة بالحرم ، وهي أماكن معينة بالمسجد المكي، ويوجد ما يماثلها في المسجد النبوي لاجتماع أتباع المذاهب الأربعة ، كل على حدة للصلاة والدراسة وقد اتصفت هذه الدراسة ببعض من النظام منذ سنة ٨٠١هـ ففيها شرع الأمير بيسق في عمارة مقام الحنفية فجعله بأربعة أساطين من حجر منحوت عليها سقف مدهون . أما المقامات الثلاثة الأخرى للمذاهب فقد عمرت سنة ٨٠٧هـ . وزودت بمحاريب ووسائل للإنارة[2]ولكن هذا لا يعني أن المقامات كمواضع للصلاة والدراسة كانت غير موجودة قبل عام ٨٠١هـ ، فقد ذكر لنا الفاسي عن نور الدين علي المدلجي المتوفى سنة ٧٨٢هـ أنه كان يلقي درسه خلف مقام الحنفية[3].

وقبل أن نتناول دور المساجد والأربطة والمدارس في عملية التعليم ونشر العلم خلال القرنين السابع والثامن في مكة ، أرى من المفيد أن نعود إلى الوراء لنلقي نظرة سريعة على أول مؤسسة للتعليم في الإسلام ، وهي دار الأرقم ابن أبي الأرقم[4]التي يمكن اعتبارها أول مدرسة في الإسلام ، إذ لم يكن في استطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجهر بتعاليم دينه في المسجد الحرام خشية تعريض نفسه وأتباعه لأذى الكفار ،لذلك آثر أن يتخذ دار الأرقم مقرا

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٢) ابن فهد، عمر بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، مكة جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي، ج٣، ص٤١٠-٤١٢ (مخطوطة) ص ٣١ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) الفاسي : العقد، ج ٦ ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٤) ابن هشام : السيرة - تحقيق مصطفى السقا وآخرين . - ط ٣ . - بيروت - لبنان، دار إحياء التراث، (١٣٩١هـ/١٩٧١م) ج ١ ، ص ٢٧٠ .

لدعوته بعيدا عن الأنظار ، وعلاوة على دار الأرقم كانت هناك دار الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة التي يمكن اعتبارها مركزاً علمياً آخر يجتمع فيه المسلمون[1]. وظل منزل الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة مكانًا للتعليم حتى بعد بناء المساجد إلى أن نزلت الآية الكريمة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ...الآية ﴾[2].

وهكذا وقع النهي عن دخول منازل الرسول صلى الله عليه وسلم مما أدى إلى اتجاه المسلمين إلى المسجد ، ومع ذلك فإن منازل العلماء بصورة عامة بقيت تؤدي دوراً مهماً في عملية نشر العلم والتعليم في مختلف العصور الإسلامية ، ومن أبرز الأمثلة على تلك الدور دار الإمام الغزالي ، حيث كان يجتمع بطلابه ويلقي دروسه عليهم بعد اعتزاله العمل في المدارس النظامية[3].

وبعد هذه اللمحة الخاطفة نتناول المؤسسات التعليمية في مكة خلال فترة دراستنا مبتدئين بالمسجد الذي يعد أهم تلك المؤسسات ثم نتبعه بالبقية .

أولاً: المسجد :

لا شك أن المسجد هو أقدم المؤسسات العلمية في الإسلام ، فالتعليم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمسجد ، ولاسيما إذا كان متعلقاً بأمر من أمور الدين . وكان أول مسجد أسس في الإسلام هو مسجد قباء كما هو معروف . فالمسجد هو قبل كل شيء مكان للعبادة ولكنه كان إلى جانب ذلك معهداً لتعليم القرآن وتفهم آياته وأحكامه، ولدراسة الحديث النبوي[4].

(١) شابي ، أحمد : تاريخ التربية الإسلامية . – ط ٧ . – مكتبة النهضة المصرية (١٩٨٠م) ، ص ٥٤ .

(٢) الأحزاب ، الآية ٥٣ .

(٣) الغزالي : المصدر السابق ، ج ١ ، المقدمة ص " و " .

(٤) حسين ، محمد كمال : انتشار الإسلام وأشهر مساجد المسلمين في العالم . – ط ١ . – القاهرة : دار الفكر العربي ، (١٩٧٦م) ص ٣١ .
فهمي ، أسماء : مبادىء التربية الإسلامية . – القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)، ص٢٦ .

ولقد أصبحت المساجد بعد الهجرة هي المكان المخصص للتدريس ، فقد كان المعلم يجلس في ركن من أركان المسجد ، ويتحلق حوله الآخذون عنه على شكل حلقة تصغر أو تكبر على حسب قدر المعلم ، وكان شكل هذه الجلسة على غرار جلسة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسوة به . ولقد اتسعت وظيفة المسجد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي حياة خلفائه الراشدين ، فعلاوة على كونه مكانا للعبادة وللتعليم وتدارس أمور المسلمين وعقد ألوية الجيوش المحاربة ، كان مكانا للقضاء بين الناس ، ودارا لاستقبال وفود القبائل[1] .

والذي يهمنا هنا هو كون المسجد مكانا للتعليم والتعلم ، ومما يميز الدراسة فيه تكافؤ الفرص التعليمية للجميع ، وحرية نشر العلم فيه ، إذ يستطيع أي مسلم أن ينضم إلى الحلقة التي يريدها بدون قيد أو شرط ، فالطالب يختار الشيخ الذي يعجبه والموضوع الذي يرغب فيه ، وباستطاعته كذلك أن ينتقل من حلقة إلى حلقة . ولقد حوت مكة عدداً غير قليل من المساجد ، إلا أن أهمها ولا شك هو المسجد الحرام ، بل هو أهم المساجد الإسلامية على الإطلاق لمكانته الخاصة ، ولقد كانت حلقاته تزخر بالطلاب والمتعلمين وسنتناول هذه الحلقات إن شاء الله عند حديثنا عن مدرسي الحرم المكي في الفصل الثالث .

وحديثنا عن مدرسي الحرم يعكس دور المسجد الحرام في عملية التعليم خلال القرنين السابع والثامن . ولذا فإننا نكتفي هنا بهذه الإشارة .

---

(١) عبد الله ، عبد الرحمن صالح : تاريخ التعليم في مكة . - ط ١ . - دار الفكر ، (١٣٩٢هـ/١٩٧٣م) ، ص ٣٨ - ٣٩ .

لقد حاولت العثور على المصادر التي رجع إليها الباحثون في الحاشيتين (السابقتين) فلم أوفق ، لأنهم لم يرجعوا إلى المصادر الأصلية ، ولكن استخدام المسجد في الأمور المذكورة في المتن ، أمر معروف .

ثانيا: الكتّاب " الكتاتيب " :

يعد الكتّاب من أقدم مؤسسات التعليم عند المسلمين وأسبقها وجوداً في العالم الإسلامي منذ العهد النبوي ، لتقوم بتربية صغار المتعلمين ولقد كان له دوره في الحركة التعليمية والثقافية في بلاد الحجاز ، ولكن انتشاره والتوسع فيه تم على رأي بعض الباحثين عندما قطع المسلمون في الفتوحات أشواطا كبيرة ، وبعد الاتصال بغيرهم من الأمم[1]. إذ نشأت الحاجة إلى وجود أعداد كبيرة ممن يعرف القراءة والكتابة للقيام بمهام الدولة ، فضلا عن الحاجة إلى المتفقهين بأمور الدين . وفي الكتّاب يتم تعليم الكتابة والقراءة وشيء من مبادىء العلوم الدينية واللغة ، وقصص الأنبياء ، وقد تحدد مفهوم الكتّاب إذ أصبح يطلق على المكان الذي يتعلم فيه الصبيان . وسبب تسميته بالكتّاب ذلك أن الطفل يتعلم فيه الكتابة والقراءة ، ويرى بعض الباحثين أن الكتّاب نشأ مع نشوء المسجد[2]. ومن أهم الأمور التي كانت موضع اهتمام الكتاب قراءة القرآن الكريم وحفظه وتجويده . وجميع علماء المسلمين تتلمذوا في هذه الكتاتيب في بداية حياتهم ، إذ كان يتعلم فيها أبناء المسلمين الأغنياء منهم والفقراء على السواء .

ولقد شهدت مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة هذا النوع من المؤسسات. ولقد كان كثير من هذه الكتاتيب في المسجد الحرام نفسه كما يتضح من الأمثلة الآتي ذكرها ، ولإعطاء فكرة موجزة عن المؤدبين الذين تولوا التعليم في الكتاتيب نورد نبذاً موجزةً عن البعض منهم :

---

(١) فهمي ، أسماء : المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) عبدالعزيز ، محمد الحسيني : المرجع السابق ، ص ٣٢ - ٣٣ .

١- محمد بن ثابت الأنصاري المراكشي المتوفى بمكة سنة ٧٤٩هـ ، فقد كان يؤدب الأطفال بمكة عند باب أجياد من الحرم الشريف[١] .

٢- يوسف بن علي بن سليمان القروي نزيل مكة والمتوفى بها سنة ٧٦٤هـ، ولقد كان مؤدبا بالمسجد الحرام جاور بمكة سنين كثيرة وكان قارئا للحديث[٢] .

٣- عبدالرحمن بن عبدالله الجبرتي لقد أدب الأطفال بمكة وتوفي فيها سنة ٧٧٣هـ ، وكان ممن يهتم بعلم القراءات[٣] .

٤- يوسف بن محمد بن محمد الطنجي المتوفى سنة ٧٧٥هـ المؤدب بالحرم الشريف[٤] .

٥- أبو بكر أحمد بن الجبرتي المتوفى سنة ٧٨٦هـ بمكة أدب الأطفال بالمسجد الحرام تحت مئذنة باب علي[٥] .

٦- يوسف بن عيسى بن عياش التجيبي الأندلسي المكي ، المتوفى سنة ٧٩٤هـ[٦] .

٧- الحسن بن عبدالأحد بن عبدالرحمن القرشي الحنبلي (٧٧٠هـ - ٨٢٦هـ) المتوفى بمكة لقد أدب الأطفال بالمسجد الحرام[٧] .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج١ ، ص ٤٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤٨٨ .

(٣) العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٩٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٩ .

(٦) لقد كان مؤدباً بالمسجد الحرام ، وكان يؤم بمقام المالكية نيابة عن القاضي نور الدين النويري وأدب أولاده مع جماعة من أولاد أعيان الحرم .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

٨- يوسف بن نصير بن عبدالله المصري ، المؤدب بالمسجد الحرام المتوفى في مصر سنة ٨٢٩هـ[١].

من استعراض هذه النبذ الموجزة يتضح لنا أن مكة المكرمة حفلت بعدد غير قليل من المؤدبين الذين كانوا يؤدبون أطفالها ، وكلها تشير إلى حقيقة واحدة ، هي أن التعليم كان يتم في مكاتب تقع ضمن المسجد الحرام . وفضلا عن ذلك ، فإن بعض المدارس المكية قرر واقفوها ضم عدد من الأيتام إليها لدراسة القرآن الكريم ، كما هو الحال في المدرسة الأفضلية التي سيرد ذكرها إن شاء الله .

ثالثا : الأربطة :

لم يقتصر التعليم عند المسلمين على المسجد والكتّاب ، بل وجدت عندهم مؤسسات أخرى كانوا يتلقون فيها العلم مثل الأربطة التي فتحت أبوابها للعلماء وطلاب العلم الذين يتنقلون في أرجاء العالم الإسلامي طلبا للحديث النبوي وعلوم الدين والعربية . وهي في العادة مخصصة لسكن عدد محدود من الفقراء المجردين غير المتأهلين ويتفرغون للتعبد والدروس[٢]، وهذه الأربطة ليست قاصرة على الرجال وحدهم ، بل توجد هناك أربطة خاصة بالنساء يتعبدن فيها ويتلقين فيها دروسا في الوعظ والدين .

أما الأربطة التي أنشئت في مكة وفي الحجاز بصورة عامة ، فقد كان لها علاقة بالحجاج الوافدين لأداء مناسك الحج ، وكذلك لطلاب العلم المجاورين في مكة وقد أنشأ أهل الخير عدداً منها ، وقد أدى إنشاؤها إلى توفير سبل الراحة

---

(١) لقد جاور بمكة سنين تزيد على العشرين ، وسمع الحديث وقد عمل طباخاً بالمسعى .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٩٩ .
(٢) فهمي ، أسماء : المرجع السابق ، ص ٢٦ .

لطلاب العلم وللحجاج الذين يقيمون فيها أثناء موسم الحج ، إذ تؤمن لهم المسكن والمأكل . وقد أدى هذا بدوره إلى اندفاع المجاورين إلى الإقبال على طلب العلم والتفقه في الدين ، حيث توفر لهم مايرفع عنهم الفقر والعوز ، وعلاوة على ذلك ، فإن بعض الأربطة تلقت أعداداً غير قليلة من الكتب على سبيل الوقف مما أتاح لنزلائها فرصة المطالعة والدراسة ضمن جدران تلك الأربطة. وقد أدت الأربطة دوراً مهمًا في المجتمع المكي خصوصا قد أوقفت عليها وعلى نزلائها الأوقاف الكثيرة من قبل الخلفاء والسلاطين وأهل الخير من الأغنياء[1]. وهكذا تنوعت الأوقاف فشملت المباني والأموال والكتب وغيرها ، وسوف نورد بعض الأمثلة على الأوقاف التي حبست على الأربطة في القرنين السابع والثامن في الفصل المتعلق بأربطة مكة باعتبارها من المؤسسات ذات الصبغة الاجتماعية ، والذي يهمنا هنا هو أن نزلاء الأربطة كانوا يتدارسون العلم ويتذاكرونه ، وينتهزون فرصة اجتماعهم لتبادل المعلومات والإجازات ، مما جعل للأربطة دورا غير منكور في الحركة العلمية والتعليمية[2]. وفضلا عن ذلك فإن بعض هذه الأربطة كانت تخصص لسكنى طلبة بعض المدارس في مكة، كما سنرى إن شاء الله .

رابعا : المدارس :

من الملاحظ أن دور المدارس الإسلامية أخذ في البروز والشهرة في منتصف القرن الخامس الهجري، ولكن ظهورها في مكة تأخر كما هو الحال في كثير من

---

(١) باقاسي : المرجع السابق ، ص ٩٠ .

(٢) مثل أربطة طلاب العلم كرباط المغاربة ورباط الحضارمة ورباط الشرابي الآتي ذكرها في الفصل الرابع من الباب الرابع . يرجى مراجعتها هناك .

البلاد الإسلامية الأخرى إلى الربع الأخير من القرن السادس الهجري[1]. وعلى أي حال فقد كثرت المدارس في مكة وأخذت على عاتقها مهمة التدريس ونشر العلم والمعرفة بين المسلمين ، وتسابق الحكام والأمراء وعِليّة القوم إلى تأسيسها حتى كثر عددها . وكان هؤلاء المؤسسون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، بعضهم من العراق وبعضهم من اليمن وغيرها من البلاد الإسلامية ، بل بعضهم من أهل الحجاز أنفسهم . والجدير بالذكر أن بعض هذه المدارس كانت قائمة ضمن الحرم مثل دار زبيدة التي كان يدرس فيها محمد بن أحمد القسطلاني[2]. أما أشهر المدارس التي وجدت في مكة خلال فترة دراستنا فهي :-

١- مدرسة الزنجيلي :

هذه المدرسة أسسها الأمير فخر الدين عثمان بن علي الزنجيلي[3]، نائب عدن وهو منسوب إلى زنجيلية ، وهي قرية من قرى دمشق ، وقد أوقف هذا الأمير مدرسته على فقهاء الحنفية سنة ٥٧٩هـ ، وموضعها عند باب العمرة خارج المسجد الحرام[4]، وهي الدار المعروفة بدار السلسلة[5]، وقد بنى بجوارها

(١) الجراعي ، تقي الدين أبو بكر بن زيد الحنبلي : تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد - تحقيق الشيخ طه الولي ، بيروت (١٤٠١هـ/١٩٨١م) ، ص ١٩٦ .
عبد الله ، عبد الرحمن صالح : المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) لقد أفتى في سنة ٦٢٣هـ ، وحدث بكثير من مسموعاته ، وببعض تأليفه .
الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٤ .

(٣) هو من كبار أمراء دولة المعظم نوران شاه الأيوبي ، وقد صحبه في فتحه اليمن سنة ٥٦٩هـ ، ولما رجع المعظم إلى الديار المصرية سنة ٥٧١هـ جعله نائبا على عدن ومنطقتها وتوفي سنة ٥٨٣هـ .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .

(٤) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
معروف ، ناجي : المدارس الشرابية ، ط ٢ القاهرة ، دار الشعب ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ، ص ٣٤٩ .

(٥) الفاسي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٧ .

رباطًا خاصًا لسكنى المدرسين فيها ، ويفصلها عن المسجد الحرام دار واحدة[1]. وأشهر مدرسي هذه المدرسة صديق بن يوسف بن قريش الحنفي المولود سنة ٥٣٧هـ[2]. والملاحظ أن المعلومات عن مدرسي هذه المدرسة قليلة جداً ، ولم نعثر إلا على مدرس واحد فقط .

٢- مدرسة طاب الزمان الحبشية :

أسستها السيدة طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضيء العباسي في سنة ٥٨٠هـ ، في الموضع المعروف بدار زبيدة ، ووقفتها على عشرة من الفقهاء الشافعية المقيمين في مكة[3].

٣- مدرسة النهاوندي :

تقع هذه المدرسة عند الدريبة ، ولقد ذكر الفاسي أن لها نحو مائتي سنة[4] ومعنى ذلك أنها كانت قائمة خلال فترة دراستنا . ولم تذكر لنا المصادر لماذا سميت بهذا الاسم . ومن هم فقهاؤها .

---

(١) معروف ، ناجي : المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .
مالكي : المرجع السابق ، ص ١٩١ .

(٢) لقد سمع في مصر ، واستوطن فيها مدة ، وتولى حسبة البلد ثم حج إلى مكة وتولى بها تدريس مدرسة ابن الزنجيلي ، وولي بها بيع الحنطة المسيرة من ديوان المعظم ، فلما قدم ، طولب بالحساب فعجز ، فحبس في القلعة وتشفع فيه عند السلطان فلم يقبل فيه شفاعته ، ومات وهو في الاعتقال ، وكان يهتم بصنعة الكيمياء .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) الفاسي : المصدر نفسه ، تحقيق محمود محمد الطناحي - القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية (١٣٨٨هـ/١٩٦٩م) ، ج ٨ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
الصباغ : تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام (مخطوط) - ص ١٥٤ .
ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى ؛ تحقيق وتقديم محمد شلتوت (الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر مكة ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ج ٢ ، ص ٣ - ٥ .

(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٨ .

٤- مدرسة ابن أبي زكريا :

سميت بذلك نسبةً إلى علي بن أبي زكريا ، ويعرف بأبي ظاهر المؤذن الذي أوقفها سنة ٦٣٥هـ . وتقع بقرب المدرسة المجاهدية بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام[١].

٥- مدرسة ابن الحداد المهدوي :

أنشأ هذه المدرسة عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الحق المهدوي المعروف بابن الحداد . وأوقفها سنة ٦٣٨هـ على الطلبة المشتغلين بمذهب الإمام مالك ابن أنس . وقد عرفت أيضا بمدرسة الأشراف الأدارسة " لاستيلائهم عليها[٢]. ومن أشهر الذين درسوا فيها محمد بن عمر بن التوزري[٣].

٦- المدرسة الشرابية :

في سنة ٦٤١هـ أسس إقبال الشرابي خادم المستنصر بالله العباسي وأحد قواده هذه المدرسة . وكانت تقع على يمين الداخل إلى المسجد الحرام من باب السلام ، ولقد اهتم الشرابي بهذه المدرسة إذ أقام بها مكتبة وأوقف عليها كتبًا كثيرة[٤]، وجعل هذه المدرسة مخصصة لتدريس فقه المذاهب الأربعة على غرار

---

(١) النهروالي ، قطب الدين المكي الحنفي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ١٧٧ .

الحنفي : علي بن تاج الدين بن تقي الدين : منايح الكرم في أخبار مكة والبيت ، وولاة الحرم ، مخطوطة ، جامعة الملك سعود رقم ٣ ، تاريخ دهلوي .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٣٣٥ .

الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) الفاسي : العقد : تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦٢م ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٤) النهروالي : المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

المدرسة المستنصرية التي أسسها في بغداد ، وذلك إلى جانب دروس النحو والأدب ، والدراسة فيها تسير على نهج المدرسة النظامية[١]. ولم يكن طلابها من العرب فحسب ؛ بل من العرب والعجم . وقد وقف مؤسسها عليها أوقافًا كثيرة بوادي نخلة ووادي مر ، وكانت حصيلة هذه الأوقاف ترسل إلى هذه المدرسة ليتم توزيعها على المدرسين والطلبة ، وقد استمرت في أداء رسالتها حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي[٢].

٧- المدرسة المنصورية (المظفرية) :

لقد أوقف الملك المنصور وهو السلطان عمر بن رسول[٣]صاحب اليمن هذه المدرسة التي تقع في الجانب الغربي من المسجد الحرام ، أوقفها على الفقراء الشافعية المحدثين . وكانت عمارة المدرسة على يد الأمير فخر الدين الشلاح سنة ٦٤١هـ[٤]. وقد عرفت بالفخرية أيضًا أو بمدرسة الشلاح ثم عرفت بالمدرسة المنصورية ، كذلك سميت باسم مدرسة السلطان أو المظفرية نسبة إلى الملك المظفر والد الأمير فخر الدين[٥].

---

(١) باقاسي : المرجع السابق ، ولقد أخذت باقاسي هذه المعلومات من النهروالي (في الأعلام) وعن الطبري (الأرج المكي) ولكنني بحثت عن هذه المعلومات في هذين المصدرين فلم أجدها .

(٢) معروف ، ناجي : المرجع نفسه ، ص ٣٧١ .

(٣) هو عمر بن علي بن رسول ، الملك المنصور ، نور الدين أبو الفتح صاحب اليمن ومكة ولقد تمكن من دخول مكة في سنة ٦٢٩هـ ، توفي مقتولا سنة ٦٤٧هـ .

الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ .

الخزرجي ، علي بن الحسن : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، (١٣٢٩هـ/١٩١١م) ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ٨١ .

(٤) الفاسي : شفاء ج ١ ، ص ٣٢٨ . يذكر ابن حاتم اليامي في كتابه (السمط الغالي الثمن) أن عمارتها كانت في سنة ٦٤٠هـ .

الهمداني ، محمد بن حاتم اليامي : كتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ، تحقيق ركس سمث ، لندن (١٩٧٤م) ص ٢٢١ ، ٣٤٨ .

(٥) معروف ، ناجي : المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

وقد جعل فيها الملك المنصور مدرسًا ومعيداً وإمامًا ومؤذنًا ، وسمح للأيتام أن يتعلموا فيها القرآن الكريم(١) .

وأشهر مدرسي هذه المدرسة :

١- محمد بن عمر بن محمد التوزري (٥٩٨هـ - ٦٦٣هـ) ، وقد سمي إمام الحديث بالمدرسة المنصورية(٢) .

٢- أحمد بن عبد العزيز بن القاسم بن عبد الرحمن المعروف بالشهيد الناطفق الجزولي النويري المكي المالكي المتوفى سنة ٧٣٧هـ(٣) .

٣- محمد النجم الأنصاري الذروي الأصل المكي ويعرف بالمرجاني المتوفى سنة ٨٢٧هـ وكان له التدريس مع نظر المدارس الرسولية بمكة(٤) .

٤- عبد العزيز بن علي العقيلي النويري المكي الشافعي المتوفى سنة ٨٢٥هـ وهو مدرس الحديث بهذه المدرسة(٥) .

ومن أشهر طلاب هذه المدرسة عبد الواحد بن زين الدين محمد بن الزين أحمد بن محمد الطبري المكيّ المتوفى سنة ٨٢٧هـ ، لقد كان يطلب العلم بالمدرسة المنصورية بمكة وغيرها(٦) .

---

(١) الخزرجي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

(٣) قدم مكة قبل سنة ٧٠٠هـ ، وقد سمع من كثيرين ، السخاوي : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٤) لقد درس في دمشق وأجاز له جماعة ، وقد درس الفقه والنحو وقد حدث ، سمع منه الطلبة ، وكان كثير التلاوة كثير الفكاهة ، وملجأ القاصدين الواردين حسن السفارة لهم خاصة الحجازيين .
السخاوي : الضوء ، ج ٧ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) لقد كان قاضي تعز باليمن ، ولد سنة ٧٧٨هـ ، سمع الحديث بمكة على قاضيها جمال الدين ابن ظهيرة ، وتصدر للفتيا بمكة .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤٥٢ .

(٦) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٥٢٧ .

٨- المدرسة المقامة بدار العجلة :

تقع هذه المدرسة على يمين الخارج من باب المسجد المعروف بباب العجلة[١] ، بالجانب الشامي من المسجد الحرام[٢]. وقد ذكر الفاسي في كتابه " شفاء الغرام " أنه لا يعرف من وقفها ولا متى أوقفت . وذكر أن الأمير أرغون النائب[٣]قرر فيها درسا للحنفية قبل سنة ٧٢٠هـ أو بعدها بيسير من أوائل الثلاثين من القرن الثامن . وفي أيام الفاسي كانت المدرسة تحت إشراف أولاد الشريف راجح ابن أبي نمي وأشراف مكة ، ولعلها إحدى مدارس الأشراف الآتي ذكرها . وأول من درس في هذه المدرسة يوسف بن علي بن يوسف بن أبي بكر السجزي المكي الحنفي ، فقد درس بها عدة سنين[٤]. والمعلومات عن مدرسي هذه المدرسة قليلة، ولم نعثر إلا على اسم مدرس واحد فقط .

٩- المدرسة المجاهدية :

هذه المدرسة تقع في الجانب الجنوبي من المسجد الحرام وهي مدرسة الملك

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
الصباغ ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٣) هو الأمير أرغون الدوادار ، كان اشتراه المنصور قلاوون ، ورباه مع ولده الناصر محمد ، وتولى عنده نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة ٧١٢هـ ، ثم ولاه نيابة حلب ، وقد اشتغل بالفقه على مذهب الحنفية ومهر فيه إلى أن صار يعد من أهل الإفتاء ومن تعلقه بهذا المذهب قرر درسا له في مكة في هذه المدرسة .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .

(٤) لقد سمع وأجاز له كثيرون ، وحدث ودرس وأفتى ، وله تأليف في العروض وشعر . وسمع منه كثيرون . وقد ناب عن عمه الشهاب الحنفي بمقام الحنفية وعن القاضي شهاب الدين الطبري في العقود ، ثم عزل عنها وتوفي سنة ٧٦١هـ بمكة .
الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

المجاهد[1] صاحب اليمن ، وقفها على الفقهاء الشافعية ، وتاريخ وقفها هو سنة ٧٣٩هـ[2] ووضع فيها إماماً ومؤذنًا ومدرسًا ، وطلبة وأيتامًا[3].

ومن أبرز مدرسي هذه المدرسة :

١- أحمد بن محمد بن إبراهيم قاضي مكة ، شهاب الدين أبو الفضل ابن قاضي مكة نجم الدين بن الشيخ محب الدين الطبري المكي الشافعي ، لقد درس بالمنصورية والمجاهدية ، بتفويض من المجاهد وتوفي سنة ٧٦٠هـ[4].

٢- القاضي أحمد بن محمد العقيلي المشهور بمحب الدين النويري المكي الشافعي قاضي الحرمين وخطيبهما ، لقد درس وأفتى بالحرمين ودرس بالمجاهدية واستمر في التدريس حتى وفاته في سنة ٧٩٩هـ[5].

---

(١) هو علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول ، السلطان الملك المجاهد ابن الملك المؤيد ابن الملك المظفر بن الملك المنصور ، بويع بالملك بعد موت أبيه بالسلطنة سنة ٧٢١هـ ، ومن أفعاله الجميلة بمكة إنشاؤه عمارة على موضع النبي صلى الله عليه وسلم بسوق الليل في سنة ٧٤٠هـ ، وتحليته لباطن الكعبة ، توفي بعد سنة ٧٦٤هـ .

الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ١٥٨ - ١٧٣ .

(٢) الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) الخزرجي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٤) لقد تولى قضاء مكة بعد أبيه بولاية من الشريف عطيفة بن أبي نمي أمير مكة ثم بتفويض من المجاهد صاحب اليمن .

الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

(٥) هو قاضي مكة وخطيبها ، كان يتولى تدريس الدرس الذي أحدثه بشير الجمدار منذ عام ٧٨٩هـ ، وأضيف إليه التدريس بالمدرسة المجاهدية .

الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

٣- محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي المكي (٧٥١ هـ - ٨١٧ هـ) المولود بمكة والمتوفى فيها ، كان قاضي مكة وخطيبها ، تولى تدريس المدرسة المجاهدية سبع عشرة سنة ، وكذلك تولى التدريس في المدرسة الغياثية[١].

١٠- المدرسة الأفضلية :

هذه المدرسة هي مدرسة الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد صاحب اليمن[٢]وقد أوقفت قبل سنة ٧٧٠ هـ وابتدأ التدريس بها عام ٧٧٠ هـ على المذهب الشافعي ، وتقع هذه المدرسة في الجانب الشرقي من المسجد الحرام[٣]. وقد جعل فيها مؤسسها مدرسًا ومعيداً وعشرة من الطلبة وإمامًا ومؤذنًا ومعلمًا وأيتامًا يتعلمون القرآن ، وأوقف عليها كذلك الأوقاف الكافية[٤]. وممن تولى التدريس بها محمد بن أحمد القرشي العقيلي المتوفى سنة ٨٢٠هـ[٥]

ولقد تولى نظر المدارس الرسولية بمكة المنصورية ، والمجاهدية ، والأفضلية عبد اللطيف بن محمد بن علي بن سالم الزبيدي اليمني نزيل مكة المتوفى سنة ٨٠٠ هـ ، تولاها سنة ٧٨٦ هـ بعد عزل القاضي ابن الفضل النويري عنها[٦].

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٥٣ - ٥٧ .

(٢) تولى الملك الأفضل السلطنة نحو أربعة عشر عامًا وذلك بعد أبيه سنة ٧٦٤ هـ حتى توفي سنة٧٧٨هـ
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٩٤ .
الخزرجي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ ، ١٥٩ .

(٣) الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

(٤) الخزرجي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٥) هو قاضي مكة وخطيبها المولود سنة ٧٧٥ هـ .
الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ .
والمقصود بنظر المدارس هنا هو الإشراف على نفقاتها وصيانتها وليس هناك ما يدلل على وجود نظام خاص بها .

١١- مدارس الأشراف :

لقد أنشأ الأشراف في القرن الثامن الهجري مدرستين هما مدرسة الشريف عجلان التي أنشئت عام ٧٧٢ هـ[١]، ومدرسة الشريف جار الله بن حمزة ابن راجح بن أبي نمي التي تقع بدار العجلة ، وقد أنشئت هذه المدرسة عام ٧٨٩ هـ، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام ، وفتح لها صاحبها في جدار المسجد بابًا وستة شبابيك[٢].

جميع هذه المدارس التي سبق أن ذكرناها اهتمت بتدريس العلوم الدينية وأهمها القرآن وعلومه وكذلك الفقه على المذاهب الأربعة[٣].

ويتضح من وجود هذا العدد الكبير من المدارس في مكة المكرمة مدى النهضة التعليمية التي شهدتها المدينة المقدسة خلال فترة دراستنا .

والجدير بالذكر أن إنشاء المدارس في مكة المكرمة استمر خلال القرون التي أعقبت فترة دراستنا . ومن أبرز تلك المدارس المدرسة السلطانية الغياثية البنجالية[٤]، ثم المدارس التي أسسها السلاطين العثمانيون[٥]، إلا أنها تقع خارج النطاق الزمني لهذه الدراسة .

---

(١) معروف : ناجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .

(٣) مالكي : المرجع السابق ، ص ١٩٦ .
عبد الله ، عبد الرحمن صالح : تاريخ التعليم في مكة ، ص ٨٢ .

(٤) تقع هذه المدرسة بالجانب اليماني من المسجد الحرام عند باب (الحزورة) وقد أنشأها السلطان الملك غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه بن السلطان شمس الدين صاحب بنجالة بالهند المتوفى سنة ٨١٤هـ، أنشأها سنة ٨١٣ هـ ، وعين للتدريس فيها فقهاء على المذاهب الأربعة وهم قضاة مكة الأربعة . وأشهر المدرسين فيها المؤرخ تقي الدين الفاسي الذي تولى التدريس فيها سنة ٨١٤ هـ .
الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .
الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٣٩ . و ج ٣ ، ص ١٦٩ .
الصباغ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٥) مثل المدارس السليمانية العثمانية الأربع التي أسسها السلطان سليمان في مكة ولم تكمل هذه المدارس إلا في عهد السلطان سليم خان «المولود عام ٩٢٩هـ والمتولي السلطة عام ٩٧٤هـ» .
النهروالي ، قطب الدين : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٣٣٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ .

خامساً: الدروس الخاصة :

إلى جانب الحلقات العامة في المسجد الحرام والمدارس ، كانت هناك بعض الدروس الخاصة * التي عرفتها مكة ، ولاسيما في القرن الثامن الهجري إذ دأب بعض الأمراء المسلمين وبعض التجار الموسرين على إنشاء دروس خاصة على حسابهم تلقى في المسجد الحرام ، إذ كانوا يدفعون لمن يقوم بتدريسها أجراً معلومًا ، وقد بلغ هذا الأجر في بعض الحالات مبلغًا كبيراً إذ بلغ ٢٠٠ مثقال ذهب في السنة[١]. وقد ساعدت هذه الدروس على نشر العلم بين صفوف المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها ، ومن بين تلك الدروس :

١- الدرس الذي قرره في المسجد الحرام بدر الدين الخروبي أحد تجار الكارم في مصر ، وقد تولى تدريسه علي بن محمد الحسني الفاسي الذي تولى مباشرة الحرم قبل سنة ٧٤٠ هـ[٢].

٢- الدرس الذي قرره بشير الجمدار أحد أمراء المماليك بمصر . وممن تولى تدريس هذا الدرس القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله ابن ظهيرة[٣]وقاضي الحرمين محب الدين النويري[٤]، وقد كان هناك تنافس

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ١٢٩ - ١٣١ .

(٢) ولد علي هذا سنة ٧٠٨ هـ ، وتوفي سنة ٧٦٩ هـ .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٣٧ .

(٣) هو قاضي مكة وخطيبها ومفتيها ولد بمكة سنة ٧٥١ هـ وسمع فيها من كثيرين ورحل إلى مصر ودمشق وأجاز له كثيرون وكان على إلمام واسع بالعربية والفقه وتوفي سنة ٨١٧ بمكة .

(٤) هو قاضي الحرمين وخطيبهما ، أحمد بن محمد العقيلي المولود سنة ٧٥٢ هـ بمكة ولقد سمع في مكة والمدينة ودرس الفقه والنحو الفرائض ودرس وأفتى وحدث بالحرمين ، وولي قضاءهما وخطابتهما في سنة ٧٧٣ هـ . ثم اقتصر على قضاء المدينة وخطابتها وإمامتها في سنة ٧٧٥ هـ . توفي سنة ٧٩٩هـ بمكة .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٦ .

* وهي حلقات مؤقتة تستمر على قدر استمرار اهتمام منشئيها بها ، بخلاف الحلقات العامة التي تستمر باستمرار وجود المدرسين ورغبتهم في مواصلة التدريس ، وتنتهي عادة بوفاتهم .

شديد على تولي هذا الدرس - لأسباب لا نعلمها - إذ عندما عين محب الدين النويري قاضيا للحرمين أصر على انتزاع درس بشير الجمدار من القاضي جمال الدين بن ظهيرة فاستطاع ذلك، ثم عاد إليه في ولاية القاضي عز الدين ابن القاضي محب الدين وولي عوضه قضاء مكة[1].

٣- الدرس الذي قرره شاه شجاع[2]، فقد قرر درسا في الحديث بالمسجد الحرام، وقد ولي تدريسه علي نور الدين علي بن أحمد بن إسماعيل الكناني المدلجي الفويّ المتوفى سنة ٧٨٢ هـ بالقاهرة. وكان يأخذ لقاء تدريسه نحو مئتي مثقال من الذهب سنويا وكان يدرس خلف مقام الحنفية عند أول الرواق[3].

٤- الدرس الذي قرره يلبغا الخاصكي[4] أحد مماليك الملك الناصر بن قلاوون، فقد قرر درسا في الفقه الحنفي بالمسجد الحرام. وقد تولى تدريسه سنة ٧٦٣ هـ العلامة محمد بن محمد بن سعيد الصغاني[5] المتوفى سنة ٧٨٠هـ، وبعد وفاته حل محله ابنه أحمد الذي تولى علاوة على ذلك

---

(١) الفاسي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦.

(٢) هو شاه شجاع بن محمد بن مظفر اليزدي ملك شيراز وما حولها، اشتهر بحب العلم وله إلمام بالعربية، وكان ينظم الشعر، ويحب الأدباء، وقد قصده كثير من الأدباء.
ابن حجر: الدرر، ج ٢، ص ١٨٧.

(٣) لقد كان علي هذا من نزلاء الحرمين، وقد سمع من كثيرين في دمشق والمدينة ومكة، وكان له مشاركة في علم الحديث والعربية.
الفاسي: العقد، ج ٦، ص ١٢٩ - ١٣١.

(٤) هو يلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري، وقد كان ليلبغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ومعروف كثير في بلاد الحجاز، وهو الذي حط المكس عن الحجاج بمكة.
ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٥) الفاسي: العقد، ج ٢، ص ٢٩١ - ٢٩٢.
ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر، المجلد الأول، ص ٢١٦ - ٢١٧.

تدريس المدرسة الغياثية البنجالية[١] التي أنشئت في أوائل القرن التاسع . ومدرسة الزنجيلي[٢] وتوفي هذا في سنة ٨٢٥ هـ بمكة[٣].

ومن أشهر الطلبة الدارسين بدرس يلبغا :

١- محمد بن كمال بن علي بن أبي بكر الهندي الدهلوي ، الملقب بشمس الدين الحنفي المتوفى سنة ٧٩٣ هـ[٤].

٢- أحمد بن أبي البركات محمد بن أبي السعود محمد بن حسين ابن عطية ابن ظهيرة القرشي المخزومي المكي الحنفي المتوفى سنة ٨٢٣هـ[٥].

٣- أحمد بن عبد الله الشهاب المكي المتوفى سنة ٨٠٩ هـ[٦].

٥- الدرس الذي قرره الأميرَ أرغون النائب بمصر وحلب ، في مدرسة بدار العجلة في مكة قبل سنة ٧٢٠ هـ[٧].

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
(٢) : المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٣٢٨ .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
(٣) الفاسي : المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، من ص ١٦٨ حتى ص ١٧٠ .
السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ١٧٩ .
السخاوي : التحفة ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٤) لقد جاور بمكة سنين كثيرة ، وكان يؤم بمقام الحنفية نيابة عن إمامه الشيخ شمس الدين محمد ابن محمود الخوارزمي ، الذي أخذ عنه علم العربية .
الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
(٥) لقد كان يميل إلى حفظ الأشعار والنظر في تاريخ ابن خلكان الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .
(٦) السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .
(٧) انظر حاشية (١) من الصفحة (٥٤) .
والفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .
ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

ويتضح مما تقدم أن معظم الدروس الخاصة كانت تلقى في المسجد الحرام ، وإن كان بعضها خصت به إحدى المدارس . وعلى أي حال ، فإن تلك الدروس كانت تأخذ ولاشك شكل الحلقات المعروفة في المساجد وأنها ساهمت في نشر التعليم بين الناس .

سادسًا: دروس المنازل :

لم تقتصر الدراسة في مكة على المساجد والمدارس والكتاتيب ، ولا على الدروس الخاصة التي أسلفنا ذكرها، بل كانت هناك دراسة في المنازل وهي تقوم بالدرجة الأولى على الآباء والأقارب ، ولاسيما بالنسبة لتعليم الإناث . وهذا تقليد جرى عليه المسلمون في كل زمان ، حيث كان الأب أو الجد يتولى تدريس بناته أو حفيداته . وربما تولت التدريس إمرأة فاضلة ، فدرّست بعض محارمها من الرجال أو أقاربها من النساء . وقد عرفت مكة هذا النوع من التعليم ، كما أن كثيراً من الأبناء قد درسوا على آبائهم ، ولعل من المفيد أن نورد بعض الأمثلة لتأكيد وجود هذا النوع من التعليم . وفيما يأتي بعض الأمثلة :

١- عبد الله بن محمد العمري الحرازي المكي ، المتوفى سنة ٨١٦ هـ . سمع من والده ، وقرأ على عمته أم الحسن كما اشتغل على علماء آخرين[١] .

٢- موسى بن عيسى الزهراني الخالدي القرشي المخزومي المتوفى سنة ٨٢٩هـ ، درس الفقه على يد والده ، وكانت له عناية بإرشاد الجاهلين والصبر على الإنفاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنه لم يقتصر في الأخذ عن والده بل تتلمذ على شيوخ آخرين[٢] .

---

(١) السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ٤٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ١٨٨ .

٣- أم كلثوم ابنة الجمال محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي المكية المولودة بمكة سنة ٧٨٥ هـ والمتوفاة بها سنة ٨٣٧ هـ وسمعت من أبيها كما سمعت من غيره(١).

٤- زينب ابنة يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن البناء المدني نزيل مكة ، سمعت من والدها في سنة ٧٨٩ هـ ، وأجاز لها كثيرون توفيت سنة ٨٤٩هـ بمكة(٢).

٥- خديجة (وتسمى سعادة أيضًا) ابنة الوجيه عبد الرحمن محمد ابن محمد بن عبد الله بن فهد الهاشمية ، وهي والدة النجم عمر بن فهد ، سمعت من عمها النجم بن فهد كما سمعت من غيره ، وتوفيت سنة ٨٦٠هـ(٣).

هذه أمثلة قليلة ماهي إلا نماذج لهذا النوع من التدريس الذي شاع في الفترة التي تغطيها دراستنا ، كما شاع في مختلف أحقاب التاريخ الإسلامي ، وفي مختلف أنحاء العالم الإسلامي .

---

(١) السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ١٥١ .

(٢) لقد جاورت بمكة وانقطعت بها إلى أن ماتت .

السخاوي : المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٥٠ .

ابن فهد ، نجم الدين عمر بن محمد : الدر الكمين بذيل العقد الثمين (مخطوط) ميكروفلم بالمكتبة المركزية ، جامعة الملك سعود برقم ف ١٩ ، لا يوجد أرقام صفحات .

(٣) أجاز لها التقي بن حاتم والشهاب بن ظهيرة وغيرهم وقد حدثت وسمع منها الفضلاء ، وكانت محسنة للفقراء والأرامل .

السخاوي : المصدر السابق ، ج١٢ ، ص ٢٨ .

سابعًا: المكتبات :

لا حاجة بنا إلى القول إن المكتبة ليست مجرد مستودع للكتب يشرف عليه عالم أو أديب أو متعلم يحرص على ما في المستودع ويقيه من الضياع ، فالمكتبة معمل للثقافة ومؤسسة اجتماعية وعلمية وتربوية[1]، وقد عرفها المسلمون بهذه الصفة ، وقد كان لها دورها في الحركة العلمية والتعليمية . والذي يهمنا هنا أمر المكتبات الموجودة في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة . وعلى الرغم من كثرة بحثي في أمهات المصادر بهذا الخصوص ، فلم استدل إلا على معلومات قليلة عن مكتبة الحرم المكي ، التي تعد بداية تأسيسها مرتبطة بوجود الكتب والمصاحف في الحرم المكي الشريف . أما تاريخ بدء اتخاذ خزائن للكتب في المسجد الحرام ، فإن هناك أدلة تاريخية تشير إلى أنه كان في المسجد الحرام خزائن للكتب يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري . ومن الإشارات التي تدل على ذلك أخبار السيل الذي دخل الحرم سنة ٤١٧ هـ ، ووصل إلى خزائن الكتب فأتلف الشيء الكثير[2] .

وفضلاً عن ذلك فإن الكتب والمصاحف كانت تحفظ في خزائن تقع تحت قبة بين زمزم وبين بيت الشراب* ، وقد أشار السيوطي في كتابه " الوسائل إلى

---

(١) أمين ، بكري شيخ : الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية - مطابع صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م) ، ص ١٧٦ .

(٢) الأزرقي : المصدر السابق ، ج ٢ ، الملحق رقم ٣ ، ص ٣١٢ ، علمًا بأن الملحق ليس من كتاب الأزرقي .

* المتواتر عند الناس أنه المكان المخصص لصنع الشراب الذي كان يوزع في مناسبات خاصة إلا أنني لم أهتد إلى مصدر يوضح ذلك إلا الفاسي ذكر في العقد ج ١ ، ص ٩١ وجود خلوة إلى جانب بيت زمزم فيها بركة تملأ من ماء زمزم ويشرب منها الناس فلعلها هي المقصود ببيت الشراب أو هي سقاية العباسي التي ذكر الفاسي (انظر : العقد ، ج ١ ، ٩٣) .

معرفة الدلائل " أن أول من عمل هذه القبة وبيت الشراب هو المهدي في خلافته[(١)].

ولقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن باب قبة الشراب إلى جهة الشمال ، وفيها تختزن المصاحف الشريفة والكتب التي للحرم ، وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت منسوخ سنة ثماني عشرة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف ، وفتحوا باب الكعبة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف[(٢)].

وعلاوة على ذلك فقد أوقفت أعداد غير قليلة من الكتب في بعض الأربطة والمدارس التي ساعدت ولا شك على تكوين بعض المكتبات ، وإن لم تذكر المصادر صراحة وجود مكتبات منظمة في تلك الأربطة والمدارس (اللهم إلا ما يتعلق بمكتبة المدرسة الشرابية) . وسوف نورد أمثلة لبعض تلك الوقفيات :

أ- ففي سنة ٥٩٤ هـ/ ١١٩٧م أمر ملك اليمن نور الدين بن صلاح الدين الرسولي[(٣)] بإنشاء رباط بمكة وأوقف فيه كتبًا منها " المجمل لابن فارس "[(٤)] ، و " الاستيعاب لابن عبد البر "[(٥)].

---

(١) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن : الوسائل إلى معرفة الأوائل - تحقيق د. إبراهيم العدوي وعلي محمد عمر - مكتبة الخانجي بالقاهرة ، لا يوجد تاريخ ، ص ٥٣ .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٣) هو مؤسس الدولة الرسولية باليمن التي حكمت بعض أقاليم اليمن ومدت حكمها أحيانا إلى الحجاز ولنور الدين هذا آثار في البلدين ومنها مدارس ومساجد .
الخزرجي ، علي بن الحسن : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، ج ١ ، ص ٨٤ .
أمين ، بكري المرجع السابق ، ص ١٧٧ . ولقد ذكر بكري أن نور الدين أنشأ هذا الرباط في مكة وأخذ هذه المعلومات من كتاب العقود ج١ ص ٤٣ - ٨٨ ، ولكنني بحثت عن هذه المعلومات في "العقود" فلم أجدها .

(٤) هو أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي من أئمة اللغة والأدب تتلمذ عليه بديع الزمان الهمذاني صاحب " المقامات " وله مؤلفات كثيرة ، مثل كتاب " المجمل " في اللغة ، وكتاب " حلية الفقهاء " توفي سنة ٣٩٠ هـ .
ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٥) هو يوسف بن عبد الله القرطبي المالكي ، أبو بكر ، من كبار حفاظ الحديث والمؤرخين . أديب له =

ب- وفي سنة ٦٤١ هـ أسس إقبال الشرابي خادم المستنصر بالله وأحد قواده المدرسة الشرابية (وقد سبق ذكرها) ، وقد أقام الشرابي بها مكتبة وأوقف عليها كتبًا كثيرة[١].

ج- وكذلك أنشأ ملك فارس شاه شجاع رباطًا تجاه باب الصفا[٢]وأوقف فيه سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٦م كتبًا .

د- وقد أوقف عبد الله بن أبي بكر المعروف بالكردي المتوفى سنة ٧٨٥ هـ كتبًا كثيرة جعل مقرها رباط ربيع[٣] .

هـ/ وأوقف محمود بن جمال الدين أبو طاهر الهروي الناسخ المتوفى سنة ٧٩٦هـ كتبًا في الحديث والفقه وجعل مقرها برباط الخوزي بمكة[٤].

و- وأوقف كذلك أحمد بن سليمان بن أحمد الشهاب المصري المالكي المعروف بالتروجي المتوفى سنة ٨١٢ هـ عدة كتب وجعل مقرها برباط الخوزي[٥] آنف الذكر .

ز- وكذلك أوقف إبراهيم بن محمد بن حسين المعروف بالموصلي المالكي ، نزيل مكة المتوفى سنة ٨١٥ هـ كتبًا بخطه منها شرح ابن الحاجب وغيره[٦].

= مؤلفات كثيرة توفي سنة ٤٦٣ هـ وكتاب الاستيعاب خاص بسير الصحابة رضي الله عنهم .
ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٦٦ .

(١) النهروالي : المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤ .

(٣) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ١١٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٣٧ .

(٥) السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٦) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

ح- وأوقف علي بن محمد بن سند المصري الفراش بالمسجد الحرام والمتوفى سنة ٨٢٧ هـ كتبًا اقتناها وجعل مقرها برباط ربيع[١].

ط- وكذلك أوقف الشيخ عبد الملك بن سعيد بن الحسن الكردي المتوفى سنة ٨٢٤ هـ كتبه في مكة[٢].

هذه أمثلة قليلة لوقفيات الكتب في أربطة مكة ومدارسها ، ولا شك أن هناك مثيلات لها فات على المؤرخين ذكرها ، أو أننا لم نوفق في الاطلاع عليها . وقبل ختام هذه الفقرة نود أن نشير إلى وجود تجارة كتب كانت معروفة في مكة ، كما يتضح لنا من نسبة أحد نزلاء مكة إلى حرفة بيع الكتب ، واسمه محمد بن خالد الهكاري الكتبي المتوفى سنة ٦٨٧هـ[٣].

ووجود مثل هذه التجارة يدل على إقبال الناس على اقتناء الكتب ، وهذا مؤشر واضح على وجود بعض المكتبات التي أنشأها بعض من اعتاد على اقتناء الكتب من أهل مكة ، كذلك هناك شخص عرف بالناسخ وقد مر ذكره قبل قليل ، هو محمود بن جمال الدين الهروي الذي أوقف كتبه في رباط الخوزي بمكة ، ومعنى وجوده قد يوحي بأن مكة عرفت هذه الحرفة .

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٣ .

الفصل الثالث

رجال الحركة العلمية

لا شك أن وجود الحياة العلمية في أي بلد من البلدان يتوقف على وجود العلماء والأساتذة والطلاب . ولابد لمن يريد الإلمام بالحياة العلمية أن يتناول هؤلاء بالدراسة والتقويم . ولذلك وجب علينا ونحن نحاول الإلمام بالحياة العلمية في مكة المكرمة أن نخصص فصلاً من هذه الدراسة لهؤلاء :

أولاً: الأساتذة والطلاب :

من الطبيعي أن يقترن وجود مؤسسات التعليم بوجود مدرسين وطلبة ، ويهمنا هنا أن نلقي نظرة على أولئك الأشخاص الذين تصدوا للتدريس وهم طبقات ، فطبقة تدرس في المسجد الحرام ، وطبقة في المدارس المستقلة . وهؤلاء المدرسون لم يكونوا من بلد واحد ، وإنما جاءوا من مختلف البلدان ، وهذا يقوم دليلاً على أن مكة جذبت العلماء من مختلف الأقطار . والملاحظ أن المدرسين لم يسيروا جميعهم وفق منهج معين في تدريسهم بالمسجد الحرام ، فمناهج حلقات المسجد متروكة للمدرسين ، يدرس كل منهم مايراه مفيداً . وملاحظة أخرى يحسن بنا إيرادها هنا ، ألا وهي أن فائدة الدروس التي كانت تلقى بالحرم ، لم تكن قاصرة على المكيين وحدهم ، بل قد استفاد من هذه الدروس علماء وطلبة قدموا من شتى ديار المسلمين . وكانت ترد إلى مشاهير علماء الحرم أسئلة من المدن والأقطار المجاورة وكانوا يتولون الرد عليها ، وقد ذكر الفاسي أن القاضي جمال الدين ابن ظهيرة - وهو من ولي التدريس بالمسجد

الحرام في القرن الثامن الهجري - كانت ترد إليه أسئلة كثيرة من الطائف وماحولها ، كما وردت إليه مئات الأسئلة من عدن ومن مدن يمنية أخرى ، وكان يرسل رده عليها[1].

وإتمامًا للفائدة سأتناول بصورة موجزة ذكر عدد من المدرسين ، وأبدأ بمدرسي المسجد الحرام ، ويأتي هؤلاء - كما أسلفنا - في القمة من ناحية الأهمية ، بالنظر لما كانوا يتمتعون به من تقدير بين طلبة العلم ، بل وبين الناس كافة ، إذ كانت دروسهم مفتوحة للجميع ، ونذكر منهم :

١- الخضر بن عبد الواحد بن الخضر ، القاضي بمكة المتوفى سنة ٦٣١ هـ ، لقد كان يدرّس بالحرم ويفتي[2].

٢- محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن العسقلاني المكي الشافعي، لقد درس بمدرسة دار زبيدة بالحرم وأفتى في سنة ٦٣٣ هـ وله مؤلفات، وقد عين لقضاء مكة سنة ٦٤٥ هـ ، توفي سنة ٦٨٦ هـ[3].

٣- محمد بن أبي بكر بن عبد الله العسقلاني المكي شيخ الحرم ومفتيه المتوفى سنة ٦٩٥ هـ بمكة[4].

٤- محمد بن محمد بن أحمد القسطلاني القيسي الملقب أمين الدين ، وقد حدث وسمع منه كثيرون مثل النجم أبي بكر بن عبد الحميد والحافظين

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٥٦ .
عبد الله ، عبد الرحمن صالح : المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٤ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣١٦ .
(٣) ولد سنة ٦١٤ هـ بمصر ، ونشأ بمكة .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩ - ٦٣ .

قطب الدين الحلبي ، وعلم الدين البرزالي ، وقد كان كذلك شيخ الحديث بالمدرسة المظفرية ، توفي سنة ٧٠٤ هـ[١].

٥- إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الأربلي الأصل القاهري الشافعي ، مقرىء الحرمين ، وقد جاور بمكة ، وأقام بها طويلاً ، توفي سنة ٧٤٥ هـ بالمدينة[٢].

٦- ابراهيم بن أحمد بن محمد الأردبيلي المتوفى سنة ٧٧١ هـ نزيل مكة ، لقد كان يعمل ميعاداً بالمسجد الحرام[٣](أي أنه كان له وقت معين لإلقاء الدرس) .

٧- أحمد بن محمد العقيلي المشهور بمحب الدين النويري المكي الشامي ، المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ولقد كان يدرس في المسجد الحرام[٤].

٨- حسين بن أحمد محمد بن ناصر الهندي الأصل ، المكي المولد والدار ، الحنفي المذهب ، لقد كان يعمل مواعيد بالمسجد الحرام بناحية الصفا ويدرس فيه ، مقابل مدرسة عز الدين عثمان الزنجيلي ، وهي المعروفة بدار السلسلة بالجانب الغربي من المسجد الحرام . توفي سنة ٨٢٤هـ[٥].

---

(١) ولد سنة ٦٣٥ هـ بدار العجلة بمكة ، وقد أجاز له جماعة من شيوخه بمكة والشام ومصر وبغداد .
الفاسي : المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) ولد سنة ٦٦٢ هـ بالقاهرة ، وأقام بالمدينة ، وقد قرأ عليه جماعة من الأعيان بالحرمين وانتفع الناس به .
السخاوي : التحفة ، ج ١ ، ص ١٤٦ حتى ص ١٤٨ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٤) بالنسبة لترجمته فقد سبق وأن ذكرناها مع مدرسي المدرسة المجاهدية .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
السخاوي : الضوء ، ج ٣ ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

٩- أحمد بن موسى بن علي المكي المعروف بابن الوكيل الشافعي المتوفى سنة ٧٩١ هـ بمكة لقد كانت له حلقة بالمسجد الحرام يشتغل فيها[١].

١٠- محمد بن أحمد بن إسماعيل الدمشقي المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ، جاور بمكة عدة سنين ، وانتصب للإقراء بالمسجد الحرام[٢].

١١- أحمد بن محمد بن عبد الله التونسي المعروف بالمرجاني ، ولقد كان يعمل ميعاداً بالحرم وأقام بمكة عدة سنين[٣].

أما الطبقة الثانية من المدرسين فهم أولئك الذين أوكل إليهم أمر التدريس في المدارس المكية ، وقد سبق ذكرهم مرتبين حسب مدارسهم ، ولا حاجة لإعادة ذكرهم مرة أخرى .

أما الطلاب فلم أجد في المصادر التي رجعت إليها أي شيء يميزهم عن غيرهم من طلبة العالم الإسلامي في مختلف العصور ، فقد كانت أبواب المسجد الحرام مفتحة أمامهم يجلسون إلى أية حلقة شاءوا ، كما كانت أبواب المدارس مفتوحة أمام الراغبين منهم في الدراسة ، ولم يكونوا مقيدين بأي شروط من السن أو العرق أو التابعية ، فالكل في فرص الدراسة سواء . ولكن المؤرخين لم يتناولوا أحوال الطلبة بخلاف اهتمامهم بالمدرسين الذين ذكروهم بأسمائهم ، وأوردوا شيئًا من تراجمهم ، بسبب بروزهم في المجتمع ، الأمر الذي يسّر لنا التعرف عليهم .

---

(١) لقد درس النحو في مكة على يد أبي العباس بن عبد المعطي ، والفرائض على يد القاضي شهاب الدين ابن ظهيرة وله مؤلفات .
القاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٤٦ .

ولهذا السبب لم يكن بوسعنا إيراد أسماء الطلبة أسوة بما فعلناه حيال المدرسين ، ولكننا نستدرك فنقول إن أولئك المدرسين وغيرهم من العلماء الذين نوهنا بذكرهم ، كانوا - ولا شك - طلبة في يوم من الأيام ، وقد رفعهم جدهم واجتهادهم إلى رتبة المشيخة ، هذا ولم نعدم معرفة أسماء بعض طلبة المدارس في بغداد مثل النظامية والمستنصرية ممن كتب الله لهم البروز على أقرانهم ، حيث ترك لنا المؤرخون بعض المعلومات عنهم ، كما تركوا معلومات وافية عن الأحوال المعيشية والمرتبات التي كانت تصرف لطلبة المدرستين المذكورتين من واقع أوقافهما ، الأمر الذي لم نحظ بمثله بالنسبة لطلبة المدارس المكية .

ثانيا: المكانة الاجتماعية للعلماء :

من الحقائق المسلم بها أن العلماء المسلمين كانوا يتمتعون بمكانة عالية في المجتمع الإسلامي ، ويلقون الاحترام والتبجيل ، خصوصًا وقد منحهم الإسلام وضعًا مرموقًا ، فشرفهم بأن يكونوا ورثة الأنبياء . ولم يقتصر ذلك الاحترام على عامة الناس ، بل كان الخلفاء والسلاطين وغيرهم من الحكام يكنون لهم احترامًا كبيراً وتقديراً بالغًا ، وكانوا يعاملونهم معاملة خاصة ويكرمونهم ، حتى صار ذلك تقليداً نلمسه في مختلف العصور ، ومن مظاهر ذلك التقدير تقديم العون المادي إليهم من قبل أولئك الحكام ، علاوة على اصطحابهم لهم في الحج ، وفي غيره من الرحلات ، ودعوتهم إلى مجالسهم الخاصة ، محاطين بجميع مظاهر التكريم ومشاعر الاحترام .

وقد اعتاد الخلفاء العباسيون على دعوة العلماء من مختلف أقاليم الدولة للقدوم إلى بغداد للاجتماع بهم ولعقد مجالس الدرس لهم ، وكان الخلفاء والحكام يقلدون العلماء مناصب القضاء والخطابة والإمامة في المساجد الكبرى،

كما كانوا يقلدونهم إمارة الحج . وكذلك كان الحكام يستشيرون العلماء عند تعيين القضاة[١].

أما التدريس فلم يكن للدولة فيه أي تدخل اللهم إلا في بعض المدارس هذا من جهة ، أما من الجهة الأخرى فإن موقف أكثر العلماء من أرباب الدولة فقد كان غير ودي ، وكانوا لا يستسيغون التعاون معهم ، إذ لم يكن أغلب العلماء يعترفون بالشرعية إلا للخلفاء الراشدين ولعمر بن عبد العزيز ، ويعدون البقية الباقية من الحكام من أمويين وعباسيين ظلمة[٢]. وقد روى المحدثون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال : " الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك الملك" ، هذه المدة تطابق فترة الخلفاء الراشدين فقط . وهناك سبب آخر لنفرة العلماء من أرباب الدولة ، هو رفض العلماء قبول الوظائف الرسمية وخاصة في القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، بل استمر الرفض بالنسبة لبعضهم حتى في القرنين الرابع والخامس . وأهم أسباب هذا الرفض هو عدم رضا العلماء عن سيرة الحكام ، لأنها لم تكن تتمشى مع روح الإسلام[٣]. أما في الفترة التي نحن بصدد دراستها ، فيبدو أن الأمر قد اختلف كثيراً عما كان عليه في السابق ،

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ١٣ ، ص ٥٠ .
أحمد ، منير الدين : تاريخ التعليم عند المسلمين ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) المعروف أن الإمام مالك أفتى ببيعة محمد النفس الزكية رغم وجود المنصور على رأس الخلافة العباسية ، وفعل الإمام أبو حنيفة مثله ، وأبو حنيفة رفض قبول منصب القضاء الذي عرضه عليه المنصور .
الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ص ٣٢٩ ، ٣٨٥ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٣٧ .

(٣) الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢١٠ .
أحمد ، منير الدين : المرجع السابق ، ص ١١٠ - ١١١ .

إذ عدل العلماء عن موقفهم السابق وصاروا أكثر اتصالاً بحكام زمانهم ، ولدينا شواهد كثيرة تدل على اتصال العلماء بالحكام في مكة من أمثال :

أحمد بن جار الله بن زائد السنبسي المكي الشافعي (٧٤٦ هـ - ٨٢٧ هـ)، فقد لازم الشريف حسن بن عجلان ، صاحب مكة ، وقد حصل على دور وسقايا كثيرة بالوادي[١] .

وهناك عدد قليل من الحالات التي لا تدل على اتصال العلماء بالحكام فقط، بل وعلى قبول مناصب القضاء ، فهم علاوة على التدريس - مثل قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن ظهيرة[٢] الشافعي (٧١٨ هـ - ٧٩٢ هـ) - تولوا القضاء .

ومثله القاضي تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المولود سنة ٧٧٥هـ بمكة وكان إلى جانب القضاء يقوم بالتدريس والإفتاء والتحديث بالحرمين[٣] .

هذه مجرد نماذج ولو أردنا الاسترسال لجئنا بعشرات الأمثلة . ولكن صورة المكانة الاجتماعية لعلماء مكة لا تكتمل إلا باستعراض الأعمال التي مارسوها (خلاف التدريس) خلال فترة دراستنا . ولهذا لا بد لنا من إلقاء نظرة عاجلة على تلك الأعمال :

---

(١) لقد أجاز له كثيرون، وحضر دروس الشهاب ابن ظهيرة ، وقد صارت له مشاركات في الفقه ، وفي مسائل فرضية وحسابية .

السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) لقد درس أحمد على قاضي مكة نجم الدين الطبري وغيره من العلماء والفقهاء والمحدثين ، وذهب إلى بلاد المغرب ، واستفاد من بعض الشيوخ ودرس وأفتى .

ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، ص ٤٨٦ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ .

أ- الإفتاء [1] :

ومن أهم الأعمال التي مارسها العلماء التصدي للإفتاء ولا شك أن هذا العمل ينبغي أن يكون في مستوى عال من العلم والتضلع فيه ، إلا أننا ينبغي أن ننبه إلى أن الإفتاء لم يكن منصبًا حكوميًا ، بل إن الرخصة فيه تصدر من علماء العصر البارزين[2] .

ب - التجارة :

والتجارة أيضًا اتخذها عدد من أهل العلم حرفة لهم كما أن عدداً من التجار طلبوا العلم إلى جانب ممارستهم للتجارة . إذ لم تكن ممارسة التجارة تمنع الراغبين من طلبة العلم من طلبه ومثلهم أهل العلم فلم يكن هناك مايمنعهم من

---

(١) وممن تصدى للإفتاء من أهل مكة :

١) قطب الدين محمد بن أحمد بن علي القيسي التوزري المصري المكي المعروف بابن العسقلاني المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ولقد نشأ قطب الدين في مكة ودرس الفقه فيها وأفتى ولقد حدث في بلاد كثيرة .

انظر حبيب الحلبي ، الحسن بن عمر : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٧٦ ، ج ١ ، ص ١١٠) .

٢) رضي الدين محمد بن أبي بكر القرشي العسقلاني المكي المولود بمكة والمتوفى بها (٦٢٣ هـ - ٦٩٥ هـ) .

انظر الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٥٩ وابن حبيب : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

٣) عبد الوهاب بن عبدالله بن أسعد التاج اليافعي اليمني المكي الشافعي المتوفى بمكة سنة ٨٠٥ هـ وقد أذن له الأبناسي بالإفتاء والتدريس ، ولقد تصدى للاشتغال بالمسجد الحرام عدة سنين وأفتى.

انظر : السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

(٢) السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .

مزاولة التجارة[1] وقد عرف عن الإمام أبي حنيفة مثلاً أنه كان من كبار تجار زمانه ولذا فلم يكن بدعًا أن يقع مثل هذا في مكة .

ج – العطارة [2] :

والعطارة هي الأخرى كانت من بين المهن التي تولاها بعض أهل العلم ولم يجدوا بأسًا في ممارستها .

---

(١) ومن الذين مارسوا هذه المهنة :

١) محمد بن خالد بن حمدون بن محمد الهكاري الهذباني الشافعي الكتبي المتوفى سنة ٦٨٧ هـ ، لقد كان يتاجر في الكتب وسمع من كثيرين في بغداد وحلب ودمشق ، وبمكة من شعيب الزعفراني ، ولقد حدث في أماكن مثل مكة ، وسمع منه الرضي الطبري أمام المقام والحافظان المزي والبرزالي (انظر : الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ – ١٣) .

٢) محمد بن محمد بن سعيد الصاغاني الملقب بالكمال ويعرف بابن الضياء المولود في مكة سنة ٧٦٩ هـ ، لقد سمع في مكة من عدة شيوخ مثل الشيخ شمس الدين بن سكر ، ولقد اهتم بالفقه بالإضافة إلى ممارسته للتجارة .
(انظر : الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .
السخاوي : الضوء ، ج ٩ ، ص ٢٢١ .

٣) علي بن هاشم بن علي بن مسعود بن غزوان القرشي الهاشمي المكي الشافعي المتوفى في مكة سنة ٨٢٦ هـ ، وقد سافر أكثر من مرة إلى اليمن للتجارة ، ولقد سمع الحديث من عدة شيوخ مثل جمال الدين إبراهيم الأسيوطي ، ومن العفيف عبد الله بن محمد النشاوري وإبراهيم بن محمد ابن صديق ، وقد درس الفقه على قاضي مكة جمال الدين ابن ظهيرة وكان مهتمًا بالفقه .
(انظر : الفاسي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٤) .

(٢) ومن الأمثلة على ممارسة أهل العلم لهذه المهنة :

١) حسين بن الزين بن محمد القيسي القسطلاني المكي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وقد سمع الحديث من الفخر التوزري ، الصفي والرضي الطبريين وغيرهم ، ولقد كان له نظم (انظر : الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٢٠٨) .

٢) الحسن بن علي بن محمد بن موسى بن مزاح المكي الشهير بالزكي العطار المتوفى سنة ٨١٢ هـ لقد سمع بمكة من كثيرين مثل سماعه " الموطأ " لمالك على السراج الدمنهوري وغيرهم .
(انظر : الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٤ – ١٦٥) .

د- عقد الأنكحة وتوثيق العقود :

وهناك وظيفة أخرى مارسها بعض أهل العلم وهي وظيفة تناسبهم جداً كالحسبة لعلاقتها بأحكام الفقه أيضًا ، وهي عقد الأنكحة وتوثيق العقود ومسك السجلات ، وأداء الشهادات ، فقد اتخذوها وسيلة لكسب معاشهم[١].

هـ- الفراشة والحجابة :

وهذه مهنة أخرى مارسها بعض أهل العلم لأجل كسب معيشتهم وقد اقتصرت على الفراشة والحجابة في المسجد الحرام وهذه خدمة يتشرف بها الأكابر ، ولذا كان حريًا بأهل العلم أن يمارسوها[٢].

---

(١) وممن تولى هذه المهنة :

١) صالح بن أحمد بن عبد الكريم الشيباني الطبري الأصل المكي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ لقد كان متوليًا لعقود الأنكحة والإصلاح بين الناس نيابة عن القاضي شهاب الدين الطبري ولقد أجاز له مع أخويه علي وعبد الله من دمشق الدشتي والقاضي سليمان بن حمزة وغيرهم .
(انظر : الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٢٥ - ٢٦) .

٢) أحمد بن محمد بن حسين القسطلاني المكي المتوفى سنة ٨٠٣ هـ بمكة لقد كان يكتب الوثائق ويسجل على الحكام مع تأديبه الأبناء في المسجد الحرام تحت منارة باب علي .
(انظر : السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ١٠٩) .

٣) محمد بن المحب بن عبد الرحمن الطبري المتوفى سنة ٨١٥ هـ لقد تولى عقد الأنكحة نيابة عن قضاة مكة بعد أبيه ولقد سمع من كثيرين مثل العز بن جماعة ، وأجاز له كثيرون وحدث وسمع منه التقي الفاسي وغيره .
(انظر : السخاوي : المصدر نفسه ، ج ٩ ، ص ٩٢) .

(٢) ومن الأمثلة على ذلك :

١) أحمد بن ديلم بن محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن الشيبي المكي شيخ الحجبة وفاتح الكعبة المتوفى بمكة في سنة ٧١٢ هـ .
(انظر : ابن تغري بردى : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي : تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦م ، ج ١ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩) .

٢) بلال بن عبد الله الحبشي المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، ولقد كان بوابًا للمدرسة المنصورية وفراشًا بالحرم. ولقد سمع من يوسف بن إسحاق الطبري (جامع الترمذي) ومن المحب الطبري (سنن =

و- الأذان في المساجد :

لقد عثرنا على عدد غير قليل من أهل العلم ممن اتخذ رفع الأذان في المسجد الحرام حرفة له ووسيلة لكسب معاشه(١).

هذه هي المهن التي مارسها أهل العلم بمكة المكرمة وهي مهن شريفة ترفع من مكانة أصحابها ، وتدل على تواضعهم الجم ، إذ لم يترفعوا عن التجارة أو العطارة بدافع الغرور الذي قد يشعر به من نال قسطًا من العلم فقد تخلقوا بخلق الإسلام وتبرأوا من الغرور والغطرسة فأقبلوا على ممارسة الأعمال المعاشية دون خجل أو تردد .

= أبي داود) ، ولقد حدث ، وسمع منه جماعة من الشيوخ .
(انظر : الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٨٠) .

(١) مثل :

١) ذاكر بن عبد المؤمن بن أبي المعالي الكازروني المكي مؤذن الحرم الشريف ، ولقد كان حيًا سنة ٤٩٠ . ولقد قرأ عليه الدمياطي بمكة .
(انظر : الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣٦٣) .

٢) أحمد بن علي بن محمد الكازروني المكي المتوفى سنة ٧٥٣ هـ مؤذن الحرم الشريف ، وكان يؤذن بمئذنة باب العمرة .
انظر : الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

٣) محمد بن حسين الكازروني المكي المتوفى سنة ٨٢٦ هـ بمكة وكان يؤذن بقبة بئر زمزم وهو رئيس المؤذنين بمكة وقد كان إليه أولاً- أمر الأذان بمنارة الميل الأخضر بالمسعى ثم جعل رئيسًا على المؤذنين في سنة ٨٠٨ هـ .
(انظر : الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥) .

وبالنظر لتعدد المؤذنين في المسجد الحرام فقد كان لهم رئيس وهو أقدمهم ولا يعني ذلك أنه كانت لهم رابطة يتولى رئاستها .

الفصل الرابع

أساليب التعليم والرحلات العلمية والإجازات

من الواضح أن دراستنا عن الحركة العلمية والتعليمية ، لا يمكن أن تستكمل عناصرها مالم نلق نظرة ولو خاطفة على أساليب التعليم التي يدخل ضمنها الرحلة في طلب العلم ، ونتناول الإجازات التي كانت لها أهميتها في الحياة العلمية عند المسلمين ، وفيما يأتي عرض موجز لهذه العناصر :

أولاً : أساليب التعليم :

مما سبق بيانه يمكن للقارىء أن يتبين ملامح أساليب التعليم عند المسلمين ولذلك سوف نكتفي هنا بإبراز النقاط الأساسية التي ترتكز عليها تلك الأساليب ، ونعيد إلى الأذهان بأن الدراسة كانت تبدأ بالكتّاب حيث يتعلم التلاميذ القراءة والكتابة والقرآن الكريم . ومن بعدها يتلقون شيئًا من اللغة والنحو والعروض ، وإذا أتموا دراستهم في الكتّاب (وهي تعادل الدراسة الإبتدائية والمتوسطة في عصرنا الحاضر) انتقلوا إلى حلقات المساجد التي تعادل الدراسة فيها المرحلتين الثانوية والعالية وفي المساجد كما أسلفنا حلقات لمختلف العلوم كالفقه واللغة والنحو والحديث . وللمتعلم أن ينضم إلى أي حلقة شاء ويختار أي أستاذ أراد ، ويقضي في تلك الدراسة والتحصيل سنين طويلة، وإذا ما وجد في نفسه المقدرة الكافية والكفاءة العلمية اللازمة ، جلس مجلس المعلم ليناقشه العلماء فإذا ثبتت جدارته وتأكد تفوقه استحق لقب المعلم واستطاع أن يرأس إحدى الحلقات العلمية . هذا وليس في المصادر ما يدل على وجود مواعيد محددة لإلقاء الدروس كما لا يوجد فيها ما يدل على وجود

مواعيد محددة لبداية تدريس علم معين أو نهايته . أما بالنسبة للتعليم في الكتاتيب فإنه يختلف عن التعليم في المدارس لأن الكتاتيب مخصصة للأطفال بينما المدارس والمساجد مخصصة للدراسات ذات المستوى الأعلى . هذا وأن التدريس في المدارس والمساجد يقوم على أساس واحد هو الحلقة ولكن الفرق أن المدارس تؤمن السكن والطعام لطلبتها مما لا نجده في المساجد بينما كانت الأربطة تؤمن السكن المجاني للطلاب .

هذا هو المرتكز الأول لأساليب التعليم عند المسلمين . أما المرتكز الثاني فإن طلب العلم من جانب الطالب لم يقتصر على طلبه لدى علماء مدينة واحدة أو ولاية دار الإسلام ، بل كان الطلبة يرحلون إلى مختلف الديار بقصد لقاء كبار العلماء . ولم تكن الشهادات العلمية معروفة في صدر الإسلام ، فقد كان الطالب يسعى لطلب العلم في وقت فراغه . أما إذا أراد أن يكون مدرسًا فكان واجبًا عليه أن يواظب على حضور حلقات الدرس حتى يصل الدرجة التي تؤهله للجلوس مجلس التعليم - كما أسلفنا - .

أما المرتكز الثالث فهو أن التعليم كان يمارس في مختلف المؤسسات سواءً كانت المساجد أوالمدارس أو الأربطة . وكان يجري على نظام الحلقات ، حيث يتحلق الطلاب حول شيخهم الذي يلقي الدرس ويناقش الطلبة ، ويتلقى أسئلتهم ويجيب عليها . كما أن التدريس كان يعتمد في الغالب على أسلوب الإملاء ، حيث يلقي الشيخ محاضرته فيكتبها عنه الطلبة ، وربما احتاج إلى من يساعده في إيصال صوته إلى أولئك الطلبة ، وكان هذا المساعد هو " المستملي " . ويكاد ينحصر وجود المستملي في مجالس الحديث ، إلا أن التعليم الإسلامي عرف شخصًا آخر تشبه مهمته مهمة المستملي الذي كان يقف

إلى جانب الأستاذ " الشيخ " ليساعده في شرح الدرس للطلبة وإعادته عليهم ، وقد سمي هذا الشخص "المعيد"[1]، وقد اقتصر وجوده غالبًا في المدارس . ولأهمية الدور الذي يؤديه المعيد في عملية التعليم، أرى من المفيد إيراد عرض موجز لدور المعيد هذا في تلك العملية، خصوصًا وأن وجود المعيد في جهاز التعليم يرجع إلى أصول إسلامية، ولم يقتبسه المسلمون من أحد ، إذ كان مبدأ إعادة الدرس وشرحه من قبل شخص آخر غير المدرس، معروفًا عند المسلمين في صدر الإسلام، بل إن الإعادة كانت معروفة منذ العهد النبوي، فقد كان عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم بعد قيامه، فيجمع الناس ويذكرهم ويفقههم فيما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ويشرحه لهم . وهذا تمامًا ما يفعله المعيد في النظام الجامعي الحديث، لكن تسمية هذا الشخص باسم "المعيد" تأخر ظهورها عدة قرون، وهي على كل حال معروفة لدى المسلمين منذ عهد طويل، إذ عرفتها المدارس الإسلامية حتى الخاصة منها مثل مدرسة (بني بلدجي) بالموصل التي أنشئت في أواخر القرن السادس الهجري[2]. ويغلب على الظن أنها ظهرت لأول مرة في المدارس النظامية .

والظاهر أن هذه الوظيفة كانت معروفة في أغلب أقطار العالم الإسلامي ، وقد عرفت مكة وظيفة " المعيد " في مدارسها خلال القرنين السابع والثامن للهجرة . وتأييداً لما أقول سوف أتناول فيما يأتي ذكر عدد من أشهر المعيدين في تلك المدارس :

---

(١) أحمد ، منير الدين : المرجع السابق ، ص ٦٣ - ٦٤ ، وقد عرف هذا المنصب في كثير من المدارس الإسلامية ومنها مدرسة بني بلد جي بالموصل الذي تولاه عمر بن بدر الحنفي المتوفى سنة ٦٢٢هـ (انظر : ابن المستوفي المبارك بن أحمد : تاريخ إربل ، بغداد ١٩٨٠ ج ١ ص ٢٣٧) .

(٢) ابن المستوفي : تاريخ إربل ، تحقيق سامي الصقار ، القسم الأول ، بغداد (١٩٨٠م)، ص ٢٣٧ . الصقار : الحركة الثقافية في الجزيرة العربية - ص ٥٦ .

أ- أحمد بن إبراهيم بن محمد الشافعي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ من أئمة الحرم، لقد كان معيداً في المدرسة المجاهدية[١].

ب- علي بن أحمد الزبيدي المتوفى سنة ٨١٨ هـ ، وهذا أيضًا كان معيداً في المدرسة المجاهدية ، ولقد تولى نظر المطهرة الناصرية بمكة[٢].

ج- عبد اللطيف بن أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسيني الفاسي المكي الشافعي المتوفى سنة ٨٢٢ هـ ، ولقد عين معيداً في المدرسة المجاهدية[٣].

د- علي بن أحمد بن سلامة (٧٤٦ هـ - ٨٢٨ هـ) هو من أبرز الذين عملوا بالإعادة في المدرسة المنصورية[٤].

هذه خلاصة موجزة لأساليب التعليم التي كانت متبعة في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا .

ثانيا: الرحلة في طلب العلم :

تعد الرحلة من مميزات جهود المسلمين في طلب العلم ، وكان العلماء يحثون الطلبة على القيام بها ، فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يفيد من علمائها ، فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، على

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٩ - ١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٨٦ .

(٤) سمع في مكة من الفقيه خليل المالكي ، والقاضي عز الدين بن جماعة ، والشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي ورحل في سبيل طلب العلم إلى بغداد ، والشام ، ومصر وأذن له أكثر من شيخ بالإفتاء . الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

الرغم من كثرة المشاق وشدة الأخطار ، ولكنها لم تقف حائلاً دون تلك الرحلات، وكان الطالب يقطع آلاف الأميال لمجرد قراءة كتاب واحد على مؤلفه، أو على من سمعه من المؤلف، بل ولغرض سماع حديث واحد من شيخ انفرد بروايته بسند عال ، وكان البعض منهم ينتهز موسم الحج ، فيعرج على الشيوخ أثناء سفره للسماع منهم[(١)].

وأهل مكة شأنهم شأن بقية إخوانهم المسلمين ، دأب أبناؤهم على الرحلة في طلب العلم في مختلف العصور ، ولدينا العديد من الأمثلة للطلبة الذين رحلوا من أجل العلم خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة . ولعل من المفيد أن أورد هنا أسماء البعض منهم لتأييد ما ذهبنا إليه ومنهم :

١- محمد بن أحمد بن علي القسطلاني التوزري الأصل المصري ثم المكي (٦١٤ هـ - ٦٨٦ هـ) ، رحل في طلب الحديث وسمع ببغداد ومصر والشام والموصل[(٢)].

٢- محمد بن أحمد بن قاسم العمري الحرازي المكي الشافعي (٧٠٦ هـ - ٧٦٥ هـ) قاضي مكة وخطيبها . رحل في سبيل طلب العلم فذهب إلى الشام، وتعلم الفقه فيها[(٣)].

---

(١) البغدادي ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان، ج٤ ، ص ١٠٩ - ١١٦ .
أحمد ، منير الدين : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس ، ص ٦٥ .

(٢) لقد درس وأفتى ، وروى عنه الدمياطي والمزي والبرزالي .
الكتبي ، محمد بن شاكر بن أحمد ، فوات الوفيات ، تحقيق د . إحسان عباس . بيروت ، (١٩٧٤م) ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .

(٣) لقد درس وأفتى وكان يجلس للتدريس قرب باب العجلة ، وتولى قضاء مكة وخطابة الحرم سنة ٧٦١هـ .
الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

ثالثًا: الإجازات العلمية :

سبق وبينّا أن الطلبة كانوا يواظبون على حضور حلقات الدرس ، ويواصلون الطلب على أيدي الشيوخ دون اكتراث بالمدة التي يقضونها في الطلب ، والمهم في نظرهم هو الإتقان وبلوغ أعلى درجات الإحاطة بالعلوم التي يطلبونها ، ولم يكن هدفهم الحصول على الشهادات أو الرتب ولكن العادة جرت أن المدرس إذا تحقق من استيعاب الطالب للعلم ، كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب الذي قام بدراسته معه ، تفيد بأنه قرأ الكتاب على أستاذه ، وأنه أتقن ما فيه ، وتلك الشهادة تعد دليلاً على أن الطالب قد استوعب الموضوع الذي يدور حوله ذلك الكتاب ، وأنه مجاز بتدريسه وروايته للآخرين ، وتسمى تلك الشهادة " إجازة " ، وهي دليل على أن حاملها قد بلغ مستوى علميًا مقبولاً . وربما كتبت الإجازة على ورقة مستقلة ، لاسيما إذا كانت غير منصبة على كتاب أو حق روايته ، كأن تكون منصبة على إجازة مسموعات الشيخ المانح لها ، وتخويله حق روايتها لمن سمعها منه . ولم تكن تمنح الإجازات إلا بعد التحقق من كفاءة الدارسين ، ويشترط أن يكون المجيز عالمًا بعلم يجيز به ، متقنًا لغته ، ثقة في دينه ، وأن يكون المستجيز من أهل العلم[1].

وقد ساد هذا النظام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ومنها مكة . فالطلاب في الحرم المكي لا يحصلون على شهادات دراسية ، شأنهم شأن غيرهم من الطلبة في مختلف البلدان ، بل كانوا يحصلون على إجازات علمية منفردة من أساتذتهم . وكان علماء الحرم يتبعون في منح هذه الإجازات التقاليد العلمية المتعارف عليها في المجتمع الإسلامي منذ القرون الأولى للهجرة[2].

---

(١) عبد العزيز ، محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ٣٧ حتى ص ٣٩ .

(٢) شلبي ، أحمد : تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٥٤ .

ولقد مارس هذا التقليد العلمي عدد من علماء مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، إذ قاموا بمنح الإجازات في مختلف العلوم ، ولعل من المفيد أن نذكر أسماء عدد من العلماء الذين منحوا بعض الإجازات في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا ومنهم :

١- أبوبكر بن عبدالله بن عبدالهادي[١] .

٢- أحمد بن إبراهيم الفاروثي[٢] .

٣- ابن الجميزي ، وهو من شيوخ مكة[٣] .

٤- الشيخ نجم الدين التبريزي وهو من شيوخ مكة[٤] .

٥- الحافظ أبو الفتح الحصري وهو من أهل مكة وكان إمام الحنابلة في الحرم[٥] .

٦- محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، وهو شيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العيد القشيري المنفلوطي المصري المالكي الشافعي المتوفى سنة ٧٠٢ هـ[٦] .

٧- المحب الطبري وابنه جمال الدين محمد قاضي مكة[٧]. من أهل مكة .

---

(١) السخاوي : الضوء ، ج ٤ ، ص ٩٦ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ١٥٨ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ .
(٦) الكتبي ، محمد بن شاكر : فوات الوفيات والذيل عليها ، المجلد الثالث ، ص ٤٤٢ .
ابن حجر : الدرر ، ج ٤ ، ص ٩٣ - ٩٤ .
(٧) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٩ .

٨ - يوسف بن إسحاق الطبري[١]. من أهل مكة .

ويوجد علماء كثيرون غيرهم ، ولكني اكتفيت بهؤلاء لأنهم يصلحون أمثلة لجمهرة العلماء الذين عرفتهم مكة خلال القرنين السابع والثامن .

أقول إن هؤلاء مجرد نماذج لفريق من العلماء الذين عرف عنهم أنهم منحوا إجازات خلال الفترة التي تغطيها دراستنا . ومن الطبيعي أن يوجد إلى جانبهم أعداد كبيرة من الأشخاص الذين تلقوا تلك الإجازات عنهم . والحق أن استقصاء هؤلاء المتلقين ليس بالأمر الهين ، فضلاً عن كون عددهم كان كبيراً مما لا تستوعبه مثل هذه الدراسة . ولذلك سوف أكتفي هنا بذكر بعضهم على سبيل المثال لا غير ومنهم :

١- محمد بن أحمد بن علي القبسي المكي الشافعي المتوفى سنة ٦٨٦هـ بمكة[٢].

٢- أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري المكي المتوفى سنة ٧١٤هـ بمكة[٣].

٣- محمد بن محمد بن أحمد ، قاضي مكة ومفتيها ، المتوفى سنة ٧٣٠هـ بمكة[٤].

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ٣ ص٩ .

(٢) ولد في مصر ، ونشأ في مكة ، ودرس الفقه والتفسير ، وقد درس بمدرسة دار زبيدة بالحرم وأجاز له الحافظ أبو الفتح الحصري ، وقد أفتى وألف كثيراً من المؤلفات وعين لقضاء مكة سنة ٦٤٥ هـ .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ حتي ص ٣٢٤ .

(٣) ولد أحمد في سنة ٦٣٣ هـ وأجاز له جماعة من الشيوخ .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤) ولد محمد هذا في سنة ٦٥٨ هـ ، أجاز له نجم الدين سليمان بن خليل والحافظ بن مسدي والكمال ابن خليل وغيرهم .
الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

٤- محمد بن عثمان بن موسى الآمدي المكي . القاضي جمال الدين الحنبلي، إمام الحنابلة بالحرم الشريف المتوفى سنة ٧٣١ هـ[١].

٥- سالم بن ياقوت المكي، وهو من أهل مكة (٦٨١ هـ - ٧٧٢ هـ)[٢].

٦- محمد بن أحمد بن عبدالله الأنصاري المتوفى سنة ٧٧٦ هـ بمكة[٣].

٧- محمد بن أحمد بن أبي بكر الشيباني الأسواني الأصل الإسكندراني الشافعي المتوفى سنة ٧٧٧ هـ[٤].

٨- محمد بن أحمد بن إبراهيم الطبري المكي والملقب بمحب الدين المتوفى سنة ٧٩٥ هـ[٥].

نكتفي بهذه النماذج للأشخاص الذين تلقوا الإجازات من أهل مكة ونزلائها، وهي في ظني كافية لإعطاء فكرة عن مدى أهمية الإجازات في الحياة العلمية

---

(١) أجاز له كثيرون مثل التاج عبدالوهاب بن عساكر وابن مسدي وسليمان بن خليل ويعقوب الطبري، وأحمد عبدالدايم، وقد باشر الحسبة بمكة.
الفاسي : المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٩١ .

(٣) ولد محمد هذا في سنة ٧٠٢ هـ وأجاز له من دمشق القاضي سليمان بن حمزة وغيره .
الفاسي : المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) ولد محمد هذا في سنة ٧٠٣ هـ، وأجاز له المطعم بن عبدالدائم وابن النحاس ويحيى بن سعد، ومن مكة الرضي الطبري، وحدث وأفتى، ودرس .
ابن حجر : الدرر، ج ٣، ص ٣٧٣ .

(٥) ولد محمد هذا في سنة ٧٢٧ هـ بمكة، وأجاز له الحجار وابن أبي التائب والشرف بن الحافظ، وأبو نعيم بن الأسعردي وآخرون، وحدث .
ابن حجر : المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٦ .

لمكة المكرمة خلال القرنين السابع والثامن، ولكن هذه الفقرة لا تكتمل إلا إذا تناولنا وجهًا آخر من وجوه الإجازة، ألا وهو الإجازة بالمراسلة .

الإجازة بالمراسلة :

لا شك أن ارتفاع عدد المجيزين أو المجازين يدل على ازدهار الحركة العلمية والتعليمية، كما أن ظاهرة الاستجازة من الخارج تدل على روح علمية عالية وطموح كبير حملا أصحابهما على عدم الاكتفاء باستجازة من يلقون بمكة بل تطلعوا إلى الخارج وحاولوا الحصول على الإجازات من علماء الأقطار الأخرى* وهذا التقليد كان معروفًا في مختلف أقطار العالم الإسلامي ، وقد عرفته مكة أيضًا ولدينا عدد من الأمثلة على وقوع مثل هذه الاستجازات بين أهل العلم في مكة المكرمة ، نذكر منهم على سبيل المثال :

١- ظهيرة بن حسين بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي (ت ٨١٩ هـ) أجاز له من شيوخ مصر الجزائري ، وابن القطرواني وأبو الحرم القلانسي وجماعة من مصر ، ودمشق ومكة[1].

٢- محمد بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المكي المخزومي المتوفى

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

* لقد كان هناك أناس يتخصصون بحمل طلب الاستجازات الموجهة إلى العلماء في البلدان الأخرى ويعودون بالإجازات مرقعة منهم مثل علي بن نفيس المعروف بابن المكبر (ت ٦٤٠ هـ) وكان يتجول في المدن الإسلامية ويحمل كيسًا فيه استجازات موجهة إلى أرباب الحديث (انظر : ابن المستوفي : تاريخ إربل ، ج ١ ، ص ٤٦٠ - ٤٦١) .

سنة ٧٤٩ هـ أجاز له من دمشق القاضي سليمان بن حمزة وجماعته[١].

٣- عبد الرحمن بن يوسف بن أحمد بن صالح بن عبدالرحمن الشيبي المكي أحد الحجبة المتوفى سنة ٧٦٢ هـ بمكة . أجاز له الدشنني والقاضي سليمان بن حمزة والمطعم ، وابن مكتوم وابن عبدالدائم وغيرهم من دمشق علاوة على الرضي الطبري الذي أجازه في مكة[٢].

٤- محب الدين أبو البركات محمد بن أحمد بن الرضي الطبري المكي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، أحد أئمة الحرم ، أجاز له من دمشق أبو العباس الحجار وأحمد بن المحب المقدسي ، وأحمد بن الفخر البعلي ، و أيوب الكحال وآخرون من دمشق ومصر[٣].

٥- محمد بن أحمد بن أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمن الحسني المتوفى سنة ٧٩٦ هـ ، أجاز له من دمشق كثيرون مثل أبي بكر بن الرضي وزينب بنت الكمال وغيرهم ، ومن مصر يحيى المصري وإبراهيم الخيمي وغيرهم[٤].

ولا حاجة بنا إلى القول إن هؤلاء هم مجرد نماذج لمن تلقى الإجازة من الخارج، ولا شك أن هناك كثيرين غيرهم ليس من السهل استقصاؤهم .

---

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤١٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، من ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٨٣ .

الباب الثالث

مظاهر متفرقة للحركة العلمية في مكة

خلال القرنين السابع والثامن للهجرة

١- الفصل الأول : العلوم التي راجت في مكة .

٢- الفصل الثاني : حركة التاليف في مكة .

٣- الفصل الثالث : المجاورون بمكة والرحالون ودورهم في الحركة العلمية.

٤- الفصل الرابع : دور المراة في الحركة العلمية بمكة .

الباب الثالث

مظاهر متفرقة للحياة العلمية في مكة
خلال القرنين السابع والثامن للهجرة

من الواضح أن الحياة العلمية في مكة المكرمة لم تكن قاصرة على التعليم ومؤسساته المختلفة ، وعلى دراسة أحوال الأساتذة والطلاب ، إذ عبّرت الحركة العلمية عن نفسها في مظاهر عديدة أخرى ، وقد اخترنا منها أن نستعرض ذكر العلوم التي راجت في المدينة المقدسة وأقبل عليها الناس خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، وجعلناها موضوعًا للفصل الأول من هذا الباب . أما الفصل الثاني فقد خصصناه لحركة التأليف التي شهدتها مكة المكرمة في هذه الفترة ، ثم هناك نزلاء مكة من غير أهلها ويطلق عليهم عادة اسم " المجاورين " ، وقد كان لهؤلاء دور في الحركة العلمية (وقد لمسنا طرفًا من ذلك في ثنايا الأبواب السابقة من هذه الدراسة)، وهذا هو موضوع الفصل الثالث . كما أن فترة دراستنا شهدت وصول عدد غير قليل من الرحالين ، وأغلبهم من أهل العلم ، وقد كان لهؤلاء لقاءات مع علماء الحرمين ، وقد تناولناهم مع المجاورين في فصل واحد . وعلاوة على ذلك فقد كان للمرأة المكية دورها في الحياة العلمية ، ولذا صار من حقها أن نخصها بفصل خاص بها وهو الفصل الرابع .

الفصل الأول

العلوم التي راجت في مكة المكرمة
خلال القرنين السابع والثامن للهجرة

من الملاحظ أن هذه العلوم لم تولد دفعة واحدة وإنما شهدت منذ نشوئها تطوراً مستمراً خلال القرون السابقة لهذه الفترة وفقًا لما أشرنا إليه في فصل سابق ، وأن الحالة التي وصلت إليها تلك العلوم خلال القرنين السابع والثامن ، هي بطبيعة الحال حصيلة التطورات التي مرت بها خلال القرون السابقة . والملاحظ أن اهتمامات الناس كانت متنوعة إذ شملت مختلف العلوم ، وكان الواحد منهم يهتم في بعض الأحيان بعدة علوم ويبرز فيها ، أما أهم تلك العلوم فهي :

أولاً : العلوم الدينية :

وينضوي تحت هذا العنوان مجموعة من العلوم ذات علاقة بالقرآن الكريم والحديث وباستنباط الأحكام منها أي الفقه وأصوله، وفيما يأتي عرض موجز لأحوال تلك العلوم في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا :

أ- علم التفسير :

لقد اهتم المسلمون بدراسة التفسير على مر العصور وصنفت فيه الكتب ، وظهر المفسرون في كل مكان ، وكان لمكة المكرمة حظ منهم ، وقد عرفنا عدداً من الطلاب الذين درسوا التفسير في مكة ، خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة ومنهم :

١- أحمد ابن عبدالله بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي الشافعي المولود في مكة سنة ٧٨٩ هـ ، وقد تلقى دروسًا في التفسير والأصول والعربية[١].

٢- وهناك محب الدين الطبري الذي كان رمزاً للحركة العلمية في بلاد الحجاز ، وقد خدم الطبري التفسير خدمات جليلة وأهمها كتابه "الجامع لتفسير القرآن ". وليس غريبًا أن يبرز في التفسير أحد أبناء مكة، فقد كان ابن العباس إمام المفسرين .

وقد راج التفسير بين المجاورين وقد كان من أبرزهم الإمام الزمخشري محمود بن عمر (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) الذي جاور في مكة وقد وصفه الفاسي في كتابه " العقد الثمين " بأنه الإمام الكبير في التفسير ، فقد صنف كتابه " الكشاف " في تفسير القرآ العظيم[٢]. والزمخشري وإن كان سابقًا لفترتنا إلا أنه يصبح نموذجًا للمجاورين في مختلف العصور ، وعلى أي حال فإنه يتضح مما تقدم أن التفسير كان من العلوم التي عرفتها مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة كما عرفته من قبل .

ب - علم القراءات :

لقد لقي هذا العلم اهتمامًا كبيراً من المسلمين وبرز فيه عدد من أكابر العلماء الذين وضعوا مبادئه ، ورسخوا قواعده وصنفوا فيه كثيراً من الكتب في مختلف العصور ، ومنها العصر الذي يهمنا في هذه الدراسة ، أي القرنين

---

(١) لقد درس المنطق ، والفرائض والحساب والفلك ، وأجاز له بالإفتاء والتدريس المراغي وابن حجي والجلال البلقيني .
السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ١٣٧ - ١٣٩ .

السابع والثامن للهجرة . ولقد وجد بالفعل في مكة خلال هذه الفترة من يهتم بعلم القراءات ، ومن هؤلاء :

١- محمد بن عبدالله الدلاصي المكي المتوفى سنة ٧٢٣ هـ بمكة[١] .

٢- عمر بن محمد بن فتوح الدمنهوري المتوفى سنة ٧٥١ هـ درّس القراءات في الحرمين[٢] .

٣- عبدالرحمن بن عبدالله الجبرتي نزيل مكة والمتوفى فيها سنة ٧٧٣هـ[٣] .

٤- أحمد بن محمد بن محمد الشهاب المصري المكي الحنفي الشاذلي المقرئ، ويعرف بالمسدي المتوفى سنة ٨٦٥ هـ قرأ القراءات على يد الزين بن عياش[٤] .

وهناك أعداد أخرى ممن اهتم بالقراءات نذكر منهم محمد بن علي الشمس المقرئ[٥] وعلي بن أحمد السلمي المكي[٦] وأحمد بن محمد الشهاب[٧] .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .
(٣) لقد كان يؤدب الأطفال .
ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج٢ ، ص ٣٣٣ .
(٤) لقد كان أحمد شيخ رباط ربيع بمكة .
السخاوي : الضوء ، ج ٢، ص ٢٠٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .
(٦) ولد علي هذا بمكة سنة ٧٤٦ هـ وكان أشهر شيوخه تقي الدين عبدالرحمن البغدادي مقرئ الديار المصرية ويحيى بن صفوان الأندلسي ولقد سمع من الفقيه خليل المالكي ، والقاضي عز الدين ابن جماعة والشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي وغيرهم ، وقد أذن له فقيه الشام العلامة شمس الدين ابن قاضي شهبة بالإفتاء ، وقد درس الفقه وأفتى .
الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
(٧) ولد سنة ٧٤٦ هـ بمكة ، وقد اشتغل ببيع الجوخ ورزق فيه .
السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

ج - الحديث :

يعد الحديث ثاني مصادر الشريعة الإسلامية ، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم وقد اهتم المسلمون بالحديث اهتماماً عظيماً ، وتجلى ذلك الاهتمام في معاجم الرجال التي صنفت في تراجم الألوف من رواة الحديث وطلابه الذين اهتموا بدراسة الحديث في مختلف أقطار العالم الإسلامي ، وكان لمكة المكرمة حظها من النشاط الحديثي منذ البداية وحتى هذه الفترة التي يعنينا أمرها . وقد سمع على بعض محدثي مكة محدثون بارزون مثل علم الدين البرزالي الذي سمع من محمد بن محمد القسطلاني[1] ، ولقد برز منهم في هذه الفترة :

١- عمر بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإربلي الشافعي ، لقد جاور بالحرم الشريف ، وحدث بمكة وبإربل ، وتوفي سنة ٧٠٦ هـ ، وهو عم المؤرخ الشهير ابن خلكان مصنف كتاب " وفيات الأعيان "[2] .

٢- نصر بن محمد بن علي بن أبي الفرج بن علي بن أبي الفرج الهمذاني النهاوندي البغدادي الملقب برهان الدين ، وقد جاور بمكة وتوفي سنة ٦١٨ هـ[3] .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) لقد تفقه عمر على مذهب الشافعي ، وسمع بمكة من كثيرين .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .
السبكي ، تاج الدين تقي الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .
المنذري ، عبدالعظيم بن عبدالقوي : التكملة لوفيات النقلة - تحقيق بشار معروف النجف (١٩٦٨م) ج ٤ ، ص ٣٥ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

٣- محب الدين الطبري المكي الملقب بشيخ الحجاز وهو أحمد بن عبدالله ابن محمد ، ولد بمكة وتوفي بها (٦١٥ هـ - ٦٩٤ هـ) وكان فقيهًا وإمامًا محدثًا له مصنفات في الحديث والفقه[١].

٤- عبدالله بن محمد بن أبي بكر عبدالله العسقلاني المكي المتوفى سنة ٧٧٧ هـ وكان ممن اشتغل بالحديث وسمع في كل من مكة ودمشق وحلب والقاهرة من كثيرين[٢].

٥- عبدالله بن محمد بن محمد بن سليمان بن موسى النشاوي المكي المولود في مكة سنة ٧٠٥ هـ . وقد حدث بمكة المكرمة[٣].

٦- علي بن هاشم بن علي بن مسعود بن غزوان القرشي الهاشمي المكي الشافعي الملقب نور الدين ، وكان ممن اشتغل بالحديث توفي سنة ٨٢٦هـ[٤]والغريب أننا على رغم شدة اهتمام المكيين بالحديث ، لم نعثر على مدارس متخصصة بالحديث (دور الحديث) في مكة أسوة بالمدن الإسلامية الأخرى .

د- الفقه :

لقد انتشرت المذاهب الإسلامية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ومنها الحجاز التي استقطبت في الحرمين الشريفين عدداً غير قليل من علماء الفقه

---

(١) الفاسي : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٦١ .

(٢) لقد قرأ في عدة علوم .

ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، المجلد الأول ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) العسقلاني : الدرر ، ج ٢ ، ص ٣٠١ (هذا ولم أعثر على تاريخ وفاته) .

(٤) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

على تلك المذاهب . ويتجلى ذلك في وجود أئمة أربعة وأحيانًا خمسة في الحرم وكذلك قضاة أربعة . وقد تم ذكرهم عند الحديث عن القضاة الأمر الذي يدل على أن اهتمامات علماء مكة كانت تشمل مختلف المذاهب[1]. ولغرض إلقاء الضوء على هذه الناحية سوف نذكر بعضًا من هؤلاء العلماء ممن عاش في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، ومنهم :

١- أحمد بن علي بن محمد القيسي المصري المالكي المتوفى بمكة سنة ٦٣٦ هـ . لقد كان من أعيان فقهاء المالكية[2].

٢- محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله القاضي نجم الدين الطبري الأصل المكي (٦٥٨ هـ - ٧٣٠ هـ) لقد كان مشهوراً بمعرفة الفقه يقصد بالفتوى من بلاد الحجاز واليمن[3].

٣- عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي المكي الشافعي . (٦٩٨هـ - ٧٦٨ هـ) وكان على اطلاع في الفقه[4].

٤- محمد بن أحمد بن عبدالله الأنصاري الخزرجي المكي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ وكان من أهل الفقه[5].

٥- محمد بن هارون إمام الفقه وأصوله وعلم الكلام في مكة وقد تتلمذ عليه أبو عبدالله البلوي صاحب الرحلة المشهورة فقد درس عليه الفقه وعلومًا أخرى[6].

---

(١) التجيبي : المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

(٢) ابن فرحون المالكي : الديباج المذهب ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) لقد كان شاعراً ، قاضي مكة ابن قاض .
ابن قاضي شهبة ، تقي الدين أبو بكر بن أحمد : طبقات الشافعية ، الهند (١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م)، ج ٢ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٤) لقد كان على علم بالفقه وأصوله والعربية والفرائض والحساب ولقد كان شاعراً .

(٥) ابن حجر ، العسقلاني : الدرر ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

(٦) البلوي ، خالد عيسى ، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق العلامة السائح ، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية ، المغرب ج ٢ ، ص ٩٨ حتى ١٠١ .

وفضلاً عن ذلك فقد عرفت مكة عدداً غير قليل من المتصوفة وهذا يتضح من كثرة الأربطة الموقوفة على الصوفية ، كما يتضح مما ورد في ثنايا هذه الدراسة عن بعض الشخصيات التي عرفت بالتصوف ، مثل محمد بن عبدالله البعداني الفقيه[1] وغيره :

والظاهر أن المذهب الشافعي كان أكثر شيوعًا وأعلى أهمية لأن السلاطين المماليك كانوا على هذا المذهب وكان السلطان يستشير القاضي الشافعي عند تولية قضاة المذاهب الأخرى كما سنرى في الفقرة المتعلقة بالقضاة إن شاء الله .

ثانيًا: العلوم اللغوية :

من الملاحظ أن علم اللغة يستهدف وضع القواعد التي من شأنها المحافظة على أصول اللغة العربية سليمة ، وقد وضعت أسسه الأولى في البصرة والكوفة لأسباب ليس هذا محل بحثها . ولا شك أن واضعيه كان همهم الأول هو حفظ القرآن الكريم وسلامته من اللحن عندما يقرأه المسلمون ، ولاسيما من أبناء الشعوب الأعجمية الذين دخلوا في الإسلام[2].

ولعل من المفيد أن نلقي نظرة عجلى على النحو وغيره من علوم اللغة :

١- النحو واللغة :

يعد النحو أبرز علوم اللغة العربية ، لقد اهتم المسلمون بدراسته لاتصاله الوثيق بعلوم الدين ، وبرز فيه علماء كبار في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، ولكن قيادته ظلت للعراق ، إلا أن دراسة النحو كانت موضع اهتمام المتعلمين في كل مكان . والملاحظ أن الاهتمام بإعراب الكلام ظهر منذ العهد النبوي ،

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٥٢ ٥٣ ، وكان البعداني من نزلاء الحرمين الذين اشتهروا بالفقه والتصرف (انظرالفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٣) .

(٢) عبدالعزيز ، محمد الحسيني : المرجع السابق ، ص ٧٢

إذ يروى أن رجلاً لحن في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال " أرشدوا أخاكم فقد ضلّ " وفي هذا إشارة واضحة على أن نشوء النحو كان مبكراً[1]. ولقد اشتركت جميع أمصار الدولة الإسلامية في التراث اللغوي والنحوي .

وقد كان لعلماء الحجاز اهتمام بعلوم اللغة ، ولاسيما بعلم النحو شأنهم شأن العلماء في البلاد الإسلامية الأخرى ، وفيما يأتي لمحة موجزة عن أشهر اللغويين ممن له علاقة بمكة المكرمة :

١- الحسن بن محمد الصاغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ والصاغاني هذا من أهل البنجاب ، وقد جاور بمكة ورحل إلى بغداد في طلب العلم وتتلمذ على أئمة علماء مكة في اللغة ، وألف كتبًا عديدة في النحو ومعاجم اللغة[2].

٢- عمر بن محمد بن فتوح الشافعي المقرئ الدمنهوري المتوفى سنة ٧٥١هـ، ولقد برع في النحو والقراءات والحديث والفقه[3].

٣- إبراهيم بن محمد الأميوطي المكي المولود والمتوفى بمكة (٧١٥ هـ - ٧٩٠ هـ) وتصدى للتدريس والتحديث[4]علاوة على النحو .

٤- أحمد بن محمد بن عبدالمعطي الملقب بنحوي الحجاز ، المتوفى سنة

---

(٢) أبو الطيب اللغوي ، عبدالواحد بن علي : مراتب النحويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة (١٩٧٤م) ، ص ٢٣ .
الصقار ، سامي : الحركة الثقافية في الجزيرة العربية ، ص ٤٩ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ١٧٦ وهو من سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
(٣) لقد تولى عمر هذا الإفتاء ، وحدث ودرس القراءات في الحرمين .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٥٦ - ٣٥٨ .
(٤) لقد اشتغل في الفقه والأصول وناب في الحكم وجاور في مكة مدة طويلة .
ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر - المجلد الأول ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

٧٨٨ هـ ، جاور بمكة وأصله من المغرب ، وتولى التدريس فيها ، فاشتغل بتعليم العربية والعروض[١].

٥- أحمد بن موسى بن علي المكي المعروف بابن الوكيل الشافعي المتوفى سنة ٧٩١ هـ ، لقد درس النحو بمكة على يد أبي العباس ابن عبدالمعطي ، والفرائض على يد القاضي شهاب الدين ابن ظهيرة وكان له حلقة في المسجد الحرام يشتغل فيها ، وكان يحضر عند القاضي أبي الفضل النويري في دروسه العامة[٢].

وبالنظر لكثرة الغرباء في مكة من غير العرب فالمتوقع انتشار اللحن بين الناس ، إلا أن المصادر التي بين يدي لم تشر إلى مدى تفشي اللحن في الفترة التي تغطيها هذه الدراسة . كذلك فإن هذه المصادر لا تتناول دور الحجاز في تطوير علوم اللغة لكن وجود عدد ممن اهتم بتلك العلوم بين أبناء مكة لدليل على وجود دور لهم في هذا المضمار ، من أمثال أحمد بن علي الحسني الفاسي المتوفى بمكة في سنة ٨١٩ هـ ، وقد كان له تقدم في علم المعاني والبيان[٣].

٢- الأدب :

لم تكن علوم الدين والنحو واللغة هي الشيء الوحيد الذي اهتم به المسلمون في فترة صدر الإسلام ، بل كان لهم اهتمام كبير بالأدب العربي ولاسيما الشعر. وقد كان الناس ينشدونه في المساجد ومنها مسجد الرسول (ﷺ) والمسجد الحرام . فقد كان ابن عباس يستنشد عمر بن أبي ربيعة في المسجد

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ١٨٧ .

(٣) لقد مهر في معرفة الأحكام والوثائق ودرس وأفتى وولي مباشرة الحرم بعد والده في سنة ٧٧١ هـ . السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

الحرام فينشده عمر من شعره وجلساء ابن عباس يسمعون[1]. وقد نشط الشعر في الحجاز وخاصة في مكة التي استقر فيها عدد كبير من الشعراء ، حتى أن أمراءها من الحسنيين أنفسهم كانوا يجيدون نظم الشعر والتغني به[2].

ولقد تناول الباخرزي في كتابه " دمية القصر "[3]شعراء الحجاز حتى زمانه ، فذكر أنهم مجموعة من المكيين والمدنيين ومن الطائفيين والثقفيين واليمنيين ، ومنهم العامري والأسدي والبكري والطائي والربعي والغساني والهمذاني والشيباني ، وجميعهم يمثلون شعراء الجزيرة العربية حتى منتصف القرن الخامس الهجري[4].

ومن قول الباخرزي يتضح لنا أن مكة كان لها نصيب ملحوظ في الشعر ، شأنها في ذلك شأن غيرها من مناطق الجزيرة . وهذا طبيعي جداً ، إذ لا يوجد هناك ما يمنع أن تكون الحجاز قد عرفت الشعر كما عرفته الأقطار الإسلامية الأخرى ، وعرفته مكة المكرمة بالذات . ولقد أورد لنا الفاسي في كتابه " العقد الثمين " ذكر عدد من الشعراء والمشتغلين بالأدب في مكة في القرنين السابع والثامن من الهجرة ، وسوف نذكر بعضًا منهم على سبيل المثال :

---

(١) الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين : الأغاني : طبعة دار الكتب المصرية (١٩٥٧م) ، ص٧٦- ٧٨ .
الصقار ، سامي ، الحركة الثقافية في الجزيرة العربية ، ص ٤٨ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ١٢٣ .
مالكي : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٣) الباخرزي ، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي - دمية القصر وعصرة أهل العصر ، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، دار الفكر العربي (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م) ، ج ١ .

(٤) ضيف ، شوقي - تاريخ الأدب العربي ، (عصر الدول والإمارات ، الجزيرة العربية ، إيران ، مصر) دار المعارف ، لا يوجد تاريخ ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

١- نصر الدين بن محمد بن علي النهاوندي البغدادي المتوفى سنة ٦١٨ هـ إمام الحنابلة بالحرم الشريف ، فقد اشتغل بالأدب وله أشعار[١].

٢- عمر بن علي بن مرشد الحمويّ الأصل ، المصري المولد ، الشاعر المشهور الملقب بسلطان العشاق المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وقد جاور بمكة مدة ثم رجع إلى مصر[٢].

٣- عبدالصمد بن عبدالوهاب بن هبة الله الدمشقيّ المعروف بابن عساكر الشافعي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، نزيل مكة[٣].

٤- الشيخ قطب الدين القسطلاني المكي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ وكان يدرس في دار زبيدة ، وكان من المؤلفين الكبار ، وكان يقول الشعر[٤].

٥- يحيى بن يوسف المكي ، ويلقب محيى الدين المعروف بالنشوالشاعر المتوفى سنة ٧٨٢ هـ[٥].

٦- أحمد بن موسى المكي ، شهاب الدين المعروف بابن الوكيل الشافعي يكنى بأبي عباس المتوفى سنة ٧٩١ هـ[٦].

٧- محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز ابادي الشيرازي الشافعي (٧٢٩هـ - ٨١٧ هـ) ، نزيل مكة ولقد كان يقول الشعر ، وقد وصفه الفاسي بأنه في بعضه قلق لجلبه فيه ألفاظًا عويصة[٧].

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٣٢ - ٤٣٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٤ .
(٥) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .
(٧) لقد كان له مؤلفات سوف نذكرها عند تطرقنا للتأليف .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٧ .
الفيروز ابادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب : المغانم المطابة في معالم طابة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ص المقدمة .

ثالثًا : التاريخ :

لقد تضمن القرآن الكريم - كما أسلفنا - إشارات تاريخية كثيرة ، إذ تحدث عن عدد من الأمم التي سادت ثم بادت ، كما تحدث عن الرسل والأنبياء وأقوامهم . وقد احتاج المفسرون إلى معرفة الخلفية التاريخية لتلك الأمم والأقوام ، لكي يأتي التفسير صحيحًا وافيًا بالغرض المنشود . ومن هنا نشأ اهتمام المسلمين بالتاريخ ، ثم إنهم احتاجوا لمعرفة أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله ليتخذوها قدوة ويسيروا على هديها مما حدا بهم إلى جمع أخبار السيرة النبوية . ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حث المسلمين على تعلم الأنساب لغرض صلة الرحم ، والاهتمام بالأنساب فرع مهم من فروع التاريخ . أما السيرة النبوية فإن الاهتمام بها قد ظهر في وقت مبكر .

وقد روى ابن سعد أن عروة بن الزبير بن العوام قد جمع أخبار السيرة النبوية عن أبيه وأمه أسماء بنت أبي بكر وعن خالته عائشة رضي الله عنهم ، وعن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم ، وقد اهتم بعض الصحابة بالسيرة النبوية . وقد ذكر ابن حجر أن بعض الصحابة اهتموا بجمع المعلومات التاريخية مثل سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي ، وغالبًا ما كانت عملية جمع المعلومات تتم عن طريق الرواية ولقاء الرواة شخصيًا[1]. كذلك حظيت المدن الإسلامية باهتمام كبير ، وقد تصدى بعض المؤرخين لكتابة تواريخ تلك المدن ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ إربل لابن المستوفي ، واستأثرت مكة المكرمة باهتمام عدد من المؤرخين ومن أشهر الذين اهتموا بالكتابة عن تاريخ مكة الأزرقي في كتابه " أخبار مكة "[2]،

---

(١) الصقار : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) مطبوع في جزءين ، تحقيق رشدي الصالح ملحس وقد نشر من قبل دار الأندلس .

الذي يعد أول كتاب صنف في تاريخها ، ومثله تاريخ الفاكهي . ثم وقع انقطاع طويل - كما أسلفنا - حتى جاء الفاسي في القرن الثامن الهجري فألّف كتابه " شفاء الغرام "[1]. ثم صنف موسوعته التاريخية بعنوان "العقد الثمين" الذي يعد من كتب التراجم المهمة . وقد سبق وصفه في الباب الأول من هذه الدراسة ، وسار على منواله الديار بكري الذي جاور بمكة وألف كتابه " الخميس في أحوال أنفس نفيس " ويهتم هذا الكتاب بالسيرة النبوية ، إلا أنه خصص جزءاً منه لتاريخ الكعبة المشرفة ، وقد عاصره قطب الدين النهروالي المكي الذي كان يدرس علوم الحديث ، وقد صنف كتابه " الإعلام بأعلام بيت الله الحرام"[2]عن تاريخ مكة وحكامها . وممن لهم دور في كتابة تاريخ مكة المكرمة أو تاريخ رجالها آل فهد وهم التقي بن فهد وولده النجم عمر بن فهد وولده عبدالعزيز بن عمر بن فهد وولده جارالله محمد بن عبدالعزيز بن فهد ومحمد بن محمد بن عبدالله وعمر بن عبدالعزيز بن النجم وعبدالرحمن بن أبي بكر أحمد بن محمد بن فهد[3].

وهذا يدل ولا شك على اهتمام المكيين بالتاريخ .

ولقد كنت أود أن أتناول تطور الكتابة التاريخية في مكة في فترة الدراسة إلا أن هذا الموضوع خارج نطاقها ، وهو يخص علم التاريخ عند المسلمين ، إلا أنني أستطيع القول بأن الكتابة التاريخية في مكة تمثل استمراراً للكتابة التاريخية بمختلف أشكالها وأصنافها ومنها تواريخ المدن ويتمثل هذا الصنف

---

(١) مطبوع في جزءين ، وقد نشر من قبل مكتبة النهضة الحديثة بمكة ، ١٩٥٦ .
(٢) مطبوع في بيروت ، لبنان .
(٣) الضوء ، ج ٩ ، ص ٢٣١ و ج ٦ ، ص ٩٤ و ج ٤ ، ص ٧٠ - ٧١ - ٢٢٤ .
ابن فهد : معجم الشيوخ ، ص ١٣ .

في " شفاء الغرام " وكتب التراجم المتمثلة في كتاب " العقد الثمين " وكلاهما للفاسي . وأن الدارس لهما لا يجد أي تطور ملموس بالنسبة للكتابات السابقة.

رابعًا: علوم أخرى :

وفضلاً عما سبق وذكرنا من العلوم التي عرفتها المدينة المقدسة ، فقد كانت هناك علوم عديدة أخرى اهتم بها بعض العلماء في مكة المكرمة كالحساب والهندسة والفلك والطب ، ومن ذلك مثلاً :

١- أحمد بن موسى بن علي شهاب الدين بن الحداد الزبيدي الحنفي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ وكان عارفًا بالفرائض[١] رغم كونها ذات طبيعة دينية إلا أنها تعتمد على الحساب .

٢- حسين بن علي بن محمد بن داود البيضاوي المكي الزمزمي المولود سنة ٧٧٠ هـ بمكة ، فقد كان من المهتمين بالفرائض والحساب وقد صنف فيها بعض المؤلفات وكانت له خبرة بالهندسة والفلك وعمل التقاويم ، توفي سنة ٨٢١ هـ[٢].

ومن استعراضنا لتراجم الأشخاص الذين اهتموا بالعلوم التي ذكرنا يتضح لنا أن الذين اهتموا بالعلوم لم يكونوا من أهل مكة فقط ؛ بل كان بينهم كثير من الوافدين على مكة المكرمة ، الأمر الذي يدل بجلاء على إقبال الناس من مختلف أقطار العالم الإسلامي على القدوم إلى البلد الحرام لا لأداء الفريضة فحسب ؛ بل ولطلب العلم وللتعليم أيضًا .

---

(١) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، المجلد الأول ، ص ٤٨٧ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

الفصل الثاني

حركة التأليف في مكة

خلال القرنين السابع والثامن للهجرة

من الواضح أن الحركة العلمية في مكة - كما سبق وبينّا - قد اتخذت عدة أشكال إذ لم تكن قاصرة على وجود حلقات التدريس ووجود المعلمين والمتعلمين فحسب ، بل شملت مساهمة المكيين والوافدين على مكة في التأليف ، وقد وجد عدد غير قليل منهم ألّفوا في مختلف العلوم . وقد كنت أتمنى تبويب التصانيف حسب العلوم التي صنفت فيها ، ولكنني وجدت أن بعض العلماء قد صنفوا في أكثر من علم ، ثم إن بعض عناوين مؤلفاتهم لا توحي بعائديتها إلى علم معين فتضم إليه ، وربما كان المؤلَّف الواحد يشتمل على معلومات تخص أكثر من علم . وبالنظر إلى هذه الاعتبارات رأيت أن من الأفضل إيراد أسماء أولئك المؤلفين ومؤلفاتهم مسلسلة حسب التسلسل التاريخي لوفياتهم . ومن أشهرهم :

١- محمد بن إبراهيم بن أحمد بن طاهر الفاسي ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، فقد ألّف " مطية النقل وعطية العقل " في علم الكلام[١].

٢- الحسن بن محمد بن الحسن العمري الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ هـ وكان مجاوراً في مكة سنين وأهم مؤلفاته :

(١) بحثت عنه في كشف الظنون لحاجي خليفة ، استانبول سنة (١٩٦٧م/١٣٧٨هـ) وكذلك في كتاب " هدية العارفين " لإسماعيل باشا البغدادي ، فلم أجد فيهما شيئًا عن هذا الكتاب .
والجدير بالذكر أن الفاسي لم يذكر أنه ألف هذا الكتاب في مكة ، بل ذكر أنه جاور بمكة زمانًا مما يسمح لنا بالقول أنه ألفه في مكة المكرمة أو أعدّ مادته فيها .

أ- مجمع البحرين في اثني عشرمجلداً ولم يكمله .

ب- العباب الزاخر واللباب الفاخر ، يزيد على عشرين مجلداً[1] ولم يكمله .

ج- كتاب الشوارد في اللغات[2].

د- كتاب شرح القلادة السمطية في توشيح الدريدية .

هـ- كتاب التراكيب .

و- كتاب فعال على وزن حزام وقطان .

ز- كتاب فعلان على وزن سيّان .

ح- كتاب الأضداد .

ط- كتاب العروض .

ي- كتاب في أسماء الذئب .

ك- كتاب في الفرائض .

ل- كتاب في أسماء الأسد[3].

---

(١) مات المؤلف قبل أن يكمله وبلغ فيه إلى الميم .
خليفة ، حاجي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .

(٣) أسماء الأسد جمعها نفر من الأدباء منهم ابن خالوية وأبو سهل محمد بن علي الهروي المتوفى سنة ٤٢٣ هـ في مجلد ضخم ذكر فيه ٦٠٠ اسم ، والشيخ رضي الدين الصغاني ، ومجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروز أبادي ، والشيخ جلال الدين .
خليفة ، حاجي : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥١ .

وله مؤلفات غيرها في فنون العلم منها في الحديث " مشارق الأنوار النبوية " ، وكتاب " الضعفاء " وكتاب بيّن فيه أماكن وفيات الصحابة رضي الله عنهم[1].

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ما هي الكتب التي صنفها المؤلف في مكة المكرمة ، وتلك التي صنفها خارجها . ولكن يغلب على الظن أن بعضًا منها قد صنفت في مكة ، لأن المجاورة في بيت الله الحرام تمنح صاحبها فرصة كبيرة للتفرغ للتصنيف .

٣- عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم محمد بن تيمية الحراني المتوفى سنة ٦٥٣ هـ وكان فقيهًا مقرئًا محدثًا مفسرًا وأصوليًا نحويًا . وأهم التصانيف التي صنفها :

أ- أطراف أحاديث التفسير ، رتبها على السور .

ب - الأحكام الكبرى في عدة مجلدات .

ج - المنتقى من أحاديث الأحكام الكبرى ، وله مسودة في أصول الفقه[2].

د- منتهى الغاية في شرح الهداية[3].

---

(١) لم يذكر الفاسي أنه كتب هذه الكتب في مكة بل وصفه بأنه " الملتجئ إلى حرم الله " لانقطاعه إلى الحرم ، وربما قصد بأنه كان من المجاورين .
الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، (١٣٧٢ هـ/١٩٥٣م) ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٣ . ولقد كان عبدالسلام هذا مجاوراً في مكة .

(٣) خليفة ، حاجي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٦ .

٤- سليمان بن خليل بن إبراهيم بن يحيى بن سليمان بن فارس الكناني العسقلاني المكي المتوفى سنة ٦٦١ هـ ألف " كتاب المناسك"[١].

٥- محمد بن يوسف بن موسى بن إبراهيم الأزدي المهلبي نزيل مكة والمتوفى بها في سنة ٦٦٣ هـ ، وله مؤلفات كثيرة ، ومنها " الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة "[٢]، وغير ذلك في الحديث ومنسك ذكر فيه خلاف العلماء ، وله نظم ونثر حسن وخطب[٣].

٦- محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري المكي الشافعي ، قاضي مكة المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، وأهم مؤلفاته :

أ- التشويق إلى البيت العتيق[٤].

ب - نظم كفاية المتحفظ في اللغة[٥].

٧- أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم المكي الشافعي المتوفى بمكة في سنة ٦٩٤ هـ ويلقب بشيخ الحجاز وأهم مؤلفاته :

أ - تخريجة في التفسير .

ب - كتاب " القبس الأسنى في كشف الغريب والمعنى " في مجلد كبير.

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، من ص ٦٠٣ حتى ص ٦٠٥ .
(٢) بحثت عن هذا الكتاب في " كشف الظنون " ، و " هدية العارفين " ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان في ترجمته العربية من قبل عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ولكنني لم أجده فيها .
(٣) لم يذكر الفاسي أنه ألف هذه الكتب في مكة .
وبما أنه من نزلاء مكة وقد توفي بها ، فالراجح أنه ألف تلك الكتب فيها .
(٤) خليفة ، حاجي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
(٥) أرجح أنه ألف هذه الكتب في مكة ، إذ ذكر الفاسي بأن محمداً هذا حدث وأفتى ودرس في مكة ثم إنه مكي من آل الطبري ، الفاسي المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

ج - كتاب " الكافي في غريب القرآن الجامع بين العزيزي والبيان " .

د- كتاب يتضمن ترتيب العزيزي على السور .

هـ - كتاب " النخبة المدنية " .

و - كتاب تفسير جامع ، لم يتم .

ز - كتاب " مرسوم المصحف العثماني المدني " .

ح - كتاب " الأحكام الكبرى " مسودة في خمسة أسفار ، وهو في الحديث .

ط - كتاب " الأحكام الوسطى " .

ي - كتاب صنفه للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين سماه "المحرر " .

ك - مختصر الكتاب الآنف الذكر سماه " العمدة " .

ل - كتاب " الرياض النضرة في فضائل العشرة " وهو مجلدان .

م - كتاب " ذخائر العقبى ومناقب ذوي القربى " .

ن - كتاب " السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين " مجلد[١].

س - كتاب " الدر المنثور للملك المنصور " .

ع - كتاب " غريب جامع الأصول " .

ف - كتاب " القرى من ساكن أم القرى " .

---

(١) خليفة ، حاجي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٧٦ .

ص – " غاية بغية الناسك من أحكام المناسك " .

ق – صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم على اختلاف طرقها وجمع ألفاظها .

ر – " الدررالثمينة " في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

ش – السيرة النبوية .

ت – مجموع في الخلاف على طريق المتأخرين ، وهو في الفقه[1].

ث – شرح التنبيه ، عشرة أسفار كبار وغيرها من الكتب .

٨- الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد بن علي القسطلاني المكي الشافعي المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، لقد درس بمدرسة دار زبيدة بالحرم وأفتى في سنة ٦٣٣ هـ ، وله مؤلفات بعضها يتعلق بتاريخ اليمن ، أما الكتب الأخرى فمنها :

أ – مختصر في علم الحديث سماه " المنهج المبهج عند الاستماع لمن رغب في علوم الحديث على الاطلاع " .

ب – مختصر في الأسماء المبهمة في الحديث .

ج – ارتقاء الرتبة في اللباس والصحبة .

د – كتاب في المناسك .

هـ – عقيدة سماها " لسان البيان عن اعتقاد الجنان " .

و – الورد الزائد في بر الوالدين .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٦١ – ٦٤ .
ولقد بحثت عن هذه الكتب في " كشف الظنون " و هدية العارفين و تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان و معجم المؤلفين لكحالة فلم أجدها .

ولقد كان الشيخ قطب الدين القسطلاني يقول الشعر[1].

٩- محمد بن محمد بن علي الكاشغري المتوفى سنة ٧٠٥ هـ ، وقد أقام بمكة ١٤ سنة ، وألف فيها كتابًا سمّاه " مجمع الغرايب ومنبع العجايب " في أربعة مجلدات[2].

١٠- محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وهو من الواردين إلى مكة[3]. والذهبي أشهر من أن يعرف فهو من أبرز علماء التاريخ والحديث في عصره وله المصنفات الكثيرة ولعل ، بعضها قد صنفه أثناء وجوده في مكة المكرمة ، إلا أننا لا نعرفها على وجه التحقيق ، ومن مصنفاته في مختلف الفنون :

أ - " التلويحات في علم القراءات " .

ب - وفي الحديث صنف " الأربعون البلدانية " وغيرها من المؤلفات .

ج - وفي مصطلح الحديث وآدابه له " كتاب الزيادة المضطربة " وغيره .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج١ ، ص ٣٢١ - ٣٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٣) لقد حج الذهبي سنة ٦٩٨ هـ وكان يرافقه في حجه جماعة من أصحابه وشيوخه ، منهم شيخ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية المسند محمد بن عبدالمحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي (٦٣٨ هـ /٧٢٨ هـ) ، وكان ابن الخراط قد قدم دمشق في تلك السنة وجلس للوعظ في شهر رمضان . وقال الذهبي ورافقتنا في الحج فسمعت منه بالعلا ومعان كتاب " الفرج بعد الشدة " . وقد سمع الذهبي بمكة وعرفة ومنى والمدينة من مجموعة من الشيوخ .
الذهبي : سير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ/١٩٨١م ، ج ١ ، ص ٣١.
معروف ، ناجي : تاريخ علماء المستنصرية ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ج ١ ، ص ٣٥٤ - ٣٦٠ .
ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .
السبكي : طبقات الشافعية ، ج ١٠٢/٩ .

د - وفي العقائد " صنف أحاديث الصفات وغيره " .

هـ - أما في أصول الفقه فقد صنف مسألة الاجتهاد .

و - كما ألف في الرقائق مثل الجزء الذي صنفه في محبة الصالحين[1].

وبرز الذهبي في التاريخ والتراجم ، فصنف فيها " تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام "[2]و " تذكرة الحفاظ "[3]، و " سير أعلام النبلاء "[4]و " ميزان الاعتدال في نقد الرجال "[5]، و " ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار "[6]. و " المشتبه في الرجال اسماؤهم وأنسابهم "[7]و " ترجمة أبي حنيفة "[8].

وقد صنف الذهبي في موضوعات أخرى منوعة مثل " بيان زغل العلم والطلب "[9]وغيره وله أيضًا عدد من المختصرات والمنتقيات مثل " تجريد أسماء الصحابة "[10]وقد اختصره من كتاب " أسد الغابة " لابن الأثير . وغيره من المختصرات . وفضلاً عن ذلك فقد كان للذهبي عدد من التخاريج مثل تخريجه لعدد كبير من معجمات الشيوخ

(١) الذهبي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٥ - ٧٧ .

(٢) مطبوع في ٢١ مجلداً ، في القاهرة من قبل مكتبة القدسي (١٣٦٧ هـ) .

(٣) مطبوع في حيدر أباد (١٩٥٥م - ١٩٥٨م) .

(٤) وهو في ١٥ مجلداً ، نشرته مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، (١٤٠١ هـ/١٩٨١م) .

(٥) مطبوع في القاهرة ، ١٩٦٣م .

(٦) لقد ورد في كتاب كشف الظنون لحاجي خليفة ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ ، أنه في مجلدين وهو مطبوع في مجلدين بتحقيق سيد جاد الحق . - القاهرة : دار الكتب الحديثة - ١٩٦٩م .

(٧) مطبوع في القاهرة ١٩٦٢م .

(٨) مطبوع بالقاهرة ، بدون تاريخ .

(٩) مطبوع ، دمشق ١٣٤٧ هـ .

(١٠) مطبوع ، حيدر أباد ، ١٣١٥ هـ وهو مطبوع أيضًا في . - بيروت : دار المعرفة ، في جزءين وكذلك في . - مكة دار الباز للنشر .

والأربعينات والأجزاء الحديثية الكبيرة والصغيرة[1]، وما إلى ذلك من المصنفات ، إلا أننا في الحقيقة لا نعرف - كما سبق وبينا - على وجه التحقيق ما هي المصنفات التي كتبها الذهبي أثناء وجوده في مكة المكرمة ، إلا أننا نرجح أن وجوده في البلد الأمين قد أوحى له بتصنيف العديد من تلك المؤلفات . ولقد كنت أود أن أحدد مدة إقامة الذهبي في مكة إلا أنني بالرجوع إلى كتب التراجم وكتب الذهبي نفسه والتي تيسر لي الرجوع إليها لم أحصل على هذه المعلومات وكل الذي نعرفه عنه أنه حج في سنة ٦٩٨ هـ .

١١- ابن هشام جمال الدين عبدالله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ هـ قام برحلتين إلى مكة ، أولاهما عام ٧٤٩ هـ ومكث فيها وقتًا طويلاً فاستطاع أن يؤلف كتابًا في الإعراب ، إلا أنه ضاع منه ، وفي الرحلة الثانية عام ٧٥٦ هـ عاود الكرة وألّف فيها كتابه الجامع الكبير المسمى " مغني اللبيب "[2]، الذي كان علامة واضحة على تفوقه في النحو ويقع في ثلاثة أجزاء ، وقد صرّح في مقدمة الكتاب بأنه ألفه خلال وجوده في مكة المكرمة .

١٢- عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم الكناني الشافعي (٦٩٤هـ/٧٦٧هـ) المتوفى بمكة ، لقد حج وجاور وله مصنفات مثل المناسك الكبرى والصغرى[3] .

---

(١) الذهبي . المصدر السابق ، ج١ ، ص ٨٨ .
(٢) ابن هشام ، مغني اللبيب ، طبعة الحلبي بالقاهرة ، ج ١ ، ص ٣ .
ابن حجر : الدرر، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .
السيوطي : بغية الوعاة ، طبعة الحلبي ، ج ٢ ، ص ٦٨ - ٦٩ .
الشوكاني ، محمد بن علي : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، بيروت ، الطبعة الأولى (١٣٤٨ هـ) ج ١ ، ص ٤٠٠ - ٤٠١ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

١٣- عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، نزيل مكة وشيخ الحرم والصوفية بها ، وأهم مؤلفاته :

أ - " مرهم العلل المعضلة في أصول الدين "[١].

ب - " مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان "[٢]. ويعد من كتب التاريخ المهمة .

ج - كتاب " أخبار الصالحين " ويسمى " روض الرياحين "[٣].

د - " الإرشاد والتطريز "[٤].

هـ - " الدرة المستحسنة في تكرار العمرة في السنة "[٥].

١٤- تمام بن علي بن عبدالكافي الخزرجي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ . وكان من المجاورين في مكة ، وأهم مؤلفاته كتاب " عروس الأفراح في شرح المفتاح " والمفتاح من تأليف القاضي جلال الدين القزويني[٦].

١٥- شهاب الدين أحمد بن موسى بن علي المكي المتوفى سنة ٧٩١ هـ ، له مؤلفات أهمها : مختصر المبهمات للأسنوي ، واختصر الملحة للحريري نظمًا وشرحها ، وله نظم جيد ، وقد سبق ذكره ضمن الأساتذة[٧].

---

(١) طبع في كلكتا بالهند سنة ١٩١٠م .
(٢) طبع في الهند في أربعة مجلدات .
(٣) طبع عدة طبعات ، ذكره حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .
ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ١١ ، ص ٩٣ .
(٤) عنوانه الكامل هو : " الإرشاد والتطريز في فضل ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز " منه نسخ كثيرة في مكتبات العالم (بروكلمان ملحق ج ٢ ، ص ٢٢٧) .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ١٠٥ .
(٥) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ١٠٦ .
(٦) السخاوي : التحفة ، ج ١ ، ص ٣٨٩ . الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .
(٧) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

١٦- العباس بن علي بن داود بن رسول ، المتوفى سنة ٨٠٣ هـ ، وهو من الأسرة الحاكمة في اليمن وأشهر مؤلفاته :

أ - كتاب " العطايا السنية[١] في ذكر أعيان اليمن " .

ب - كتاب " نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون " .

ج - مختصر تاريخ ابن خلكان .

د - كتاب " بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم " .

هـ - كتاب " في الألغاز الفقهية "[٢].

١٧- محمد بن موسى بن عيسى بن علي المعروف بالدميري المصري الشافعي المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، وكان نزيل مكة ، وقد وصف بأنه مفسر ومحدث وفقيه وأصولي وأديب ونحوي وناظم ، أما أشهر مؤلفاته فهي :

أ - " الديباجة في شرح سنن ابن ماجه " وهو في نحو خمسة مجلدات.

ب - شرح " المنهاج " للنواوي وسماه " النجم الوهاج " .

ج - شرح المعلقات السبع[٣].

---

(١) خليفة ، حاجي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٦ .

وقد بحثت عن هذه الكتب في " كشف الظنون " و " هدية العارفين " و " تاريخ الأدب العربي لبروكلمان فلم أجدها .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

السخاوي : الضوء ، ج ١٠ ، ص ٥٩ حتى ص ٦٢ .

الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

كحالة : المرجع السابق ، ج ١٢ ، ص ٦٦

د - كتاب " حياة الحيوان "[1]، وهذا الكتاب من الكتب المهمة المشهورة ، بل هو سبب شهرة الدميري الواسعة .

١٨ - محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز أبادي الشيرازي الشافعي (٧٢٩هـ/٨١٧ هـ)[2].

لقد كان الفيروزأبادي يحب الانتساب إلى مكة إذ كان يكتب بخطه الملتجئ إلى حرم الله[3].

كان للفيروزأبادي اهتمام بالحديث والفقه ، ولكن صلته بهما ليست قوية ، وله تحصيل في فنون من العلم ولاسيما اللغة فإن له اليد الطولى وألف فيها مؤلفات أهمها " القاموس المحيط " الذي يعد من أبرز معاجم اللغة ، لكثرة ما حواه من الزيادات على الكتب المعتمدة كالصحاح ، وهو سبب شهرته*. وللفيروزأبادي[4]مؤلفات كثيرة سوف نذكر بعضًا منها :

أ - " المغانم المطابة في معالم طابة " . وهو عن المدينة المنورة[5].

ب - شرح الفاتحة .

---

(١) مطبوع ، لقد ذكر هذا الكتاب في كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، وكان قصد الدميري من هذا الكتاب تصحيح الألفاظ وتفسير الأسماء المبهمة ، وذكر هذا الكتاب أيضًا " بروكلمان " . المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ و ٢١٤ . وعلى كل حال ، فكتاب " حياة الحيوان " معروف ومتداول بين الناس وقد طبع عدة مرات .

(٢) ولقد قدم مكة وجاور بها ، فسمع بمكة من اليافعي .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .
السخاوي : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٧٩ .
الشوكاني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٤) العقد ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ .

(٥) تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة للنشر والتوزيع الرياض ، ١٩٦٩م .

* وهو مطبوع في أربعة أجزاء من قبل المؤسسة العربية للطباعة في بيروت (بدون تاريخ) .

ج - كتاب شوارق الأسرار العلنية .

د - كتاب منح الباري بالسيح الفسيح الجاري ، في شرح صحيح البخاري .

هـ - " أحاسن اللطائف في محاسن الطائف " .

و - فصل الدرة من الخرزة في فضل السلامة على الخبزة " .

(السلامة والخبزة قريتان في الطائف) .

ز - " إثارة الشجون لزيارة الحجون " .

ح - " تعين الغرفات للمعين على عرفات " .

ط - " مهيج الغرام إلى البلد الحرام " .

ي - " الوصل والمنى في فضائل منى " .

وهذه الكتب الأربعة الأخيرة لها علاقة بمكة ، فضلاً عن مصنفاته عن الطائف والمدينة .

١٩- محمد بن أحمد بن علي الحسني ، الفاسي المكي المالكي ، قاضي المالكية بمكة المتوفى سنة ٨٣٢ هـ وهو أشهر من أن يعرّف ، فهو مؤرخ مكة ، بدون منازع وقد اعتنى بتاريخ مكة عناية فائقة فترك عدة مؤلفات (سبق التعريف ببعضها) وهي :-

أ - " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " في مجلدين[١] .

---

(١) مطبوع ، حقق أصوله وعلق على حواشيه لجنة من كبار العلماء والأدباء نشرته مكتبة النهضة الحديثة بمكة ، وطبع بمصر سنة ١٩٥٦م .

ب - " العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين " في ٨ أجزاء[١].

ج - " الملوك والخلفاء وولاة مكة الشرفاء "[٢].

د - " تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام " .

هـ - " هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام " .

و - تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام " .

ز - " الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة " .

هذا وللفاسي[٣]علاوة على ما تقدم مؤلفات أخرى في غير تاريخ مكة منها :

ح - أربعون حديثًا متباينة الإسنادوالمتون بالسماع المتصل من حديث العشرة المشهود لهم بالجنة والصحابة الذين انتهى إليهم العلم والصحابة المكثرين .

ط - والعبادلة الأربعة .

ي - الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب .

ك - فهرست تشتمل على ذكر أشياء من مروياته بالسماع والإجازة .

٢٠- محمد بن أحمد بن محمد العمري الصاغاني الأصل المكي الحنفي ، ويعرف بابن الضياء المولود بمكة (٧٨٩ هـ - ٨٥٤ هـ) ، وقد ذكرناه

---

(١) جميع الأجزاء مطبوعة بين سنة ١٣٧٨ هـ - ١٣٨٨ هـ .

(٢) طبع في سنة (١٨٢٢م) .

الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٣) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

بين المؤلفين لأنه عاش شطراً من حياته في القرن الثامن الهجري الذي تشمله دراستنا ، وقد نشأ في مكة وكان فقيهًا أصوليًا ، مفسراً مشاركًا في العلوم ناب في القضاء بمكة عن أبيه ، ثم اشتغل به بعده، وقد صنف عدة مؤلفات منها :

أ - " المشرع في شرح المجمع " في أربعة مجلدات .

ب - " البحر العميق في مناسك حج البيت العتيق "[١].

ج - " تنزيه المسجد الحرام عن بدع جهلة العوام " في مجلد[٢].

د - شرح الوافي في مطول ومختصر ومقدمة[٣].

ويبدو أن العلماء اعتادوا أن ينتهزوا فرصة مجاورتهم في مكة فيصنفوا فيها بعض كتبهم ، واستمرت هذه العادة بعد الفترة التي تغطيها هذه الدراسة ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك المؤرخ المصري الشهير المقريزي - السابق ذكره - الذي صنف كثيراً من كتبه أثناء مجاورته في مكة فقد حج في سنة ٨٣٤ هـ وجاور هناك نحو خمس سنوات[٤]. إذ كان كما يقول السخاوي[٥]يحب أن يكتب بمكة ، ولقد ألف عدة مؤلفات أهمها[٦]:

---

(١) خليفة ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٤ . وقد ذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب اسمه : البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق .

(٢) خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .
الشوكاني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ١٢٠ .

(٣) السخاوي : الضوء ، ج ٧ ، ص ٨٤ - ٨٥ .
ابن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٢١٣ - ٢١٥ .

(٤) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي : اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧م ، ص ١١ .
زيادة ، محمد مصطفى وآخرون : دراسات عن المقريزي ، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م)، ص ١٢٨ .

(٥) السخاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

(٦) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر. - بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة (١٩٨٠م)، ص٢٠) .

١- الإلمام فيمن تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام .

٢- الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة .

وقد ألف هذين الكتابين أثناء مجاورته في مكة سنة ٨٣٩ هـ ، سنة ٨٤١ هـ .

٣- المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية .

٤- الأوزان والأكيال المعدنية .

٥- البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب .

٦- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك .

وغيرها من المؤلفات التي من أهمها كتاب الخطط .

وباستعراض هذه القائمة الطويلة من الكتب التي لا يشك أن أكثرها إن لم يكن كلها ، قد صنفت في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا ، يتبين لنا مدى النشاط الذي شهدته المدينة المقدسة في ميدان التأليف في تلك الحقبة التي يظنها البعض توهمًا بأنها من الفترة المظلمة في التاريخ الإسلامي ، ويكفينا دليلاً على أنها كانت ساطعة بالنور ما أوردناه من مصنفات جليلة تناولت مختلف العلوم . هذا وإننا على يقين بأننا لم نستقص في هذا الفصل جميع ما ألف في مكة ، بسبب عدم كفاية المصادر التي بين أيدينا . ولا شك أن هناك مؤلفين غير من ذكرنا وقد فاتنا ذكرهم .

ويتضح مما ذكرنا عن المقريزي ، أن حركة التأليف قد استمرت في مكة المكرمة في الفترة التي أعقبت فترة دراستنا .

الفصل الثالث

المجاورون بمكة والرحالون
ودورهم في الحركة العلمية

لا حاجة بنا إلى إبراز الأهمية التي كانت لمكة المكرمة والمكانة الخاصة التي كانت تتمتع بها لدى المسلمين ، فهي محجهم ومهوى أفئدتهم ولذلك اتجهت إليها أعداد كبيرة من المسلمين حجاجًا وطلاب علم ، وغير قليل منهم فضل الإقامة بها لقضاء فترة صفاء روحي في جوار بيت الله وعلى أرضها المقدسة ، ومن هنا نشأ ما عرف في التاريخ الإسلامي باسم " المجاورة "[1] ، ومنهم من قصدها لأداء الفريضة والمكث فيها مدة قصيرة ولكنها حافلة بلقاء العلماء[2] ، وقد تميزت رحلات هؤلاء أنهم دونوا أخبارهم ومشاهداتهم خلال إقامتهم في الحرمين . ولهؤلاء الرحالين دورهم في الحياة العلمية في المدينة المقدسة ، إلا أنه دور صغير مما جعلنا نلحقهم بهذا الفصل المخصص للمجاورين دون الحاجة إلى إفرادهم بفصل خاص .

أولاً : المجاورون :

يرجع أصل المجاورة إلى ما جاء في الأثر من فضل مكة والإقامة بها ، فقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله وهو يخطب بمكة : " والله إنك لخير

---

(١) الزيلعي ، أحمد عمر : " مكة وعلاقاتها الخارجية " . - الرياض : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الملك سعود ، (١٤٠١ هـ/١٩٨١م) ، ص ١٣٧ .

(٢) ذكر البسوي (أو الفسوي) في كتابه " المعرفة والتاريخ " تحقيق أكرم ضياء العمري ، بيروت (١٩٨١م) ، ج ١ ، ص ٨ ، ٩ - أنه قدم إلى مكة عدة مرات أولاها في رمضان سنة ٢١٦ هـ ومكث فيها أربعة أشهر ، وقال إنه حج ١٦ مرة بين سنة ٢١٦ - ٢٤١ هـ وقد تعرف في مكة على عدد من العلماء الذين أفاد منهم كثيراً في تحمل الحديث ، وروى عنهم في كتابه " المعرفة والتاريخ " .

أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت "[1] وقوله صلى الله عليه وسلم لمكة : " ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك "[2].

والمجاورة بمكة مستحبة عند أكثر العلماء ، وقد جاور بها عدد كبير من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته . والمجاورون في مكة ليسوا من بلدة واحدة ، بل جاءها المجاورون من مختلف أقطار العالم الإسلامي ، مثل الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق ، واليمن وغيرها . والملاحظ أن الكثير ممن جاور بمكة كانوا من الصوفية الزهاد . أما مدة المجاورة بالحرم المكي فلم تكن محددة ، ولكنها تطول وتقصر تبعًا لراحة المجاور والظروف المحيطة به ، فبعضهم يمكث أربع سنوات[3] ، وبعضهم الآخر امتدت إقامته إلى خمس سنوات[4]. بل إن كثيرين منهم فضلوا البقاء بمكة حتى يدركهم الموت، وقد مارس بعض العلماء من المجاورين العديد من الأعمال وتولوا الكثير من الوظائف الدينية، مثل إمامة الحرم المكي، والأذان، والقضاء والتدريس والفتوى وبعضهم كانوا طلاب علم . وقد انعكس وجود هؤلاء المجاورين على التكوين الاجتماعي للمجتمع المكي، هذا وقد حفظت لنا المصادر أسماء عدد غير قليل من هؤلاء الرجال الذين تولوا مختلف المهام التي يمكن إجمالها بما هو آت :

أ - الإمامة والقضاء :

هناك العديد من المجاورين ممن تولى الإمامة والقضاء في مكة المكرمة ،

---

(١) الترمذي ، محمد بن عيسى (٢٩٧ هـ) : الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي ، باب فضل مكة ، تحقيق إبراهيم عطوة . - القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٣٨٠ هـ/١٩٦٥م ، ج ٥ ، ص ٧٢٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٢٣ .
(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٩ .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٥٠٧ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٤ .

ولكنني سأختار نموذجًا واحداً لهؤلاء وهو شخص توافرت فيه صفات المجاورة بشكل واضح ، ذلك هو طاهر (أو طه) بن بشير الإربلي الذي كان معاصراً لمؤرخ إربل بن المستوفي المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، كان طاهر هذا من طلاب المدرسة النظامية ببغداد ، هاجر إلى مكة المكرمة وجاور بها مدة ست عشرة سنة ، وتولى الإمامة والقضاء في الحرم المكي . وقد أم بالموسم مدة سبع سنين وقد استنابه قاضي مكة ، فلما مات القاضي صار الإربلي حاكمًا موضعه ، والطريف أن هذا الإربلي المجاور لقي رجلاً من الأشراف وصل من الهند إلى الحجاز ومعه مركب موسق من الفضة ، فتصدق بها على أهل مكة ، واستخدم طه المذكور كاتبًا له ثم سفيراً إلى الخليفة العباسي ببغداد ، مما أدى إلى تحسن أحواله (أي أحوال طه) ، وعندما عاد طه إلى إربل بعد المجاورة ابتنى بيتًا فيها على هيئة دور مكة[1]. ومما تقدم يتضح لنا كيف أن المجاورين كان بوسعهم أن يؤثروا في مكة ويتأثروا بها ، يؤثرون بها بممارستهم للعمل فيها كأئمة وقضاة وما إلى ذلك ، ويتأثرون بها بما قد ينقلونه عنها عند عودتهم إلى بلادهم الأصلية .

ب - التدريس :

كان بين المجاورين عدد كبير من أهل العلم والفضل . وكان لهم دور في بث العلم في مكة المكرمة سواء أتولوا التدريس أم لا ؟ .

وسنذكر على سبيل المثال عدداً منهم :-

---

(١) ابن المستوفي : المبارك بن أحمد الإربلي : تاريخ إربل ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .
وقد سماه ابن المستوفي (طه) بينما سماه الفاسي (طاهر) وهما شخص واحد .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٥٩ .
الصقار : أهمية التواريخ المحلية ، بحث في كتاب الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة - الرياض ، سنة ١٩٧٧م ، الجزء الأول ، ص ٢٢٣ .

١- الخضر بن عبدالواحد بن الخضر المعروف بابن السابق الشافعي المتوفى سنة ٦٣١ هـ ، استوطن مكة ، وجاور بها حتى وفاته ، وكان قاضيًا بمكة ، ومدرسًا بالحرم الشريف ومفتيًا[١].

٢- جعفر بن عبدالرحمن بن جعفر السلمي الصقلي ، البجائي المولد المكي المتوفى سنة ٦٤٤ هـ وكان ممن حدث بالمدرسة المنصورية بمكة[٢].

٣- إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الإربلي القاهري المقرئ (٦٦٢ هـ - ٧٤٥ هـ) المولود بالقاهرة ، وكان شيخ القراء في زمانه وتصدر للإقراء بالحرم الشريف وانتفع الناس به بعد إقامة طويلة[٣].

٤- محمد بن أحمد بن هبة الله محمد الخزرجي المتوفى سنة ٧٨١ هـ ، لقد ترك القضاء في دمنهور وجاور بمكة ، وقد تميز بالثراء فقد كان له مكارم وصدقة وافرة وكان شديد الإحسان للفقراء[٤].

٥- عبدالرحمن بن عبدالله الجبرتي المتوفى سنة ٧٧٣ هـ درس في مكة وجاور فيها فأخذ عنه قاضيها أبو حامد ابن ظهيرة[٥].

٦- إبراهيم بن محمد بن اللخمي المصري ، المعروف بالأميوطي الشافعي (٧١٥ هـ - ٧٩٠ هـ) ، تولى في مكة تدريس الحديث بتكليف من

---

(١) لم يذكر المصدر البلد الذي قدم منه للمجاورة .
الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ .
(٢) ولد سنة ٥٨٨ هـ . الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٢٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ .

الأشرف صاحب مصر والبشير الجمدار[١]، وقد انتفع به الناس في الحرمين[٢].

٧- محمد بن علي بن خليل الشمس القاهري المقرئ اهتم بالقراءات السبع، توفي بمكة سنة ٨٢٧ هـ[٣].

ج - حياة الزهد ومشيخة الأربطة :

سبق وبينّا أن الكثير من المجاورين بمكة كانوا من الزهاد الذين آثروا حياة الزهد والقناعة والاعتكاف في المسجد الحرام . وكانت إقامة هؤلاء في الغالب ، في الأربطة المخصصة لهم، وقد تقدم بعضهم في درجات الزهد حتى أسندت إليهم مشيخة الأربطة ، ولعل من المفيد أن نذكر منهم بضعة نفر على سبيل المثال :

١- خضر بن محمد بن علي الإربلي المتوفي سنة ٦٠٨ هـ ، هاجر من إربل في العراق ، وجاور بمكة وصار شيخًا للزهاد فيها والمتقدم عليهم . وكان ممن تولى توزيع أموال الصدقات التي يبعثها مظفر الدين كوكبوري ملك إربل لفقراء الحرم[٤]، ومظفر الدين هذا حكم إربل في الثلث الأول من القرن السابع .

---

(١) الجمدار (الجمدارية) فئة من مماليك السلطان أو الأمير وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه وأصله " جاما دار " مشتق من لفظين فارسيين أحدهما " جاما " ومعناه الثوب ، والثاني " دار " ومعناه " ممسك " ، هذا وقد سبق التعريف ببشير الجمدار هذا - انظر القلقشندي ، أبا العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء- القاهرة، دار الكتب (١٩٣٧م)، ج ٥، ص٥٩ . المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

(٢) العقد ، ج ٣ ، ص ٢٦٠ .

(٣) الضوء ، ج ٨ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) ابن المستوفي : المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ١٨٦ .
ابن الفوطي ، عبدالرزاق أحمد الشيباني (ت ٧٢٣ هـ) ، تلخيص معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، دمشق (١٩٦٢ - ١٩٦٧ م) ج ٣ ، ص ١٦٧ .
العقد ، ج ٤ ، ص ٣١٧ .

٢- أحمد بن أبي القسم بن محمد الرصافي الأندلسي الغرناطي المتوفى سنة (٨١٢ هـ) ، لقد تولى مشيخة رباط الموفق[١].

د - التأليف :

وهناك من تصدى للتأليف بين المجاورين ، وقد سبق لنا أن ذكرنا العديد منهم في الفصل الذي خصصناه لحركة التأليف في مكة المكرمة ولا داعي لتكراره .

هـ - طلب العلم :

وهناك بين المجاورين بمكة من جاور فيها لأجل طلب العلم لكثرة من جاور بالحرم من أفاضل العلماء فضلاً عن علماء مكة نفسها . ونذكر من هؤلاء :

١- شمس الدين محمد بن المبارك السنجاري المتوفى سنة ٦٥٤ هـ درس كثيراً من كتب الحديث وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين[٢]. وهو مغربي الأصل ، حج سنة ٦٨٠ هـ ، فجاور وأخذ من علماء الحرمين ، ثم رجع إلى بلاده بعلم عظيم[٣].

٣- محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن علي الحسني الإدريسي الفاسي المتوفى سنة ٧١٩ هـ بمصر ، استوطن في مكة فترة واستفاد من شيوخها[٤].

---

(١) لقد كان له إلمام بالفقه : الضوء ، ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي .
تراجم رجال القرنين السادس والسابع " المعروف بالذيل على الروضتين " . - ط٢ . - بيروت ، دار الجيل ، (١٩٧٤م) ، ص ١٩٤ .

(٣) المراغي ، عبدالله مصطفى " الفتح المبين في طبقات الأصوليين " بيروت ، لبنان (١٣٩٤ هـ/١٩٧٤م) ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٤) لقد سمع في مصر أيضًا .
الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

٤- عبدالمؤمن بن عبدالحق بن عبدالله البغدادي الحنبلي الفقيه المولود والمتوفى ببغداد (٦٥٨ هـ - ٧٣٩ هـ) جاور بمكة ، وسمع من الفخر التوزري[١] .

٥- محمود بن عبدالرحمن بن أحمد الأصفهاني الفقيه الشافعي الأصولي النحوي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ[٢] .

٦- عيسى بن أحمد بن عيسى الشرف الهاشمي العجلوني الشافعي (٧٣٠هـ - ٨١٣ هـ)[٣] .

ثانيًا : الرحالون :

لقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين برحلاتهم الطويلة . ويرى كراتشكوفسكي[٤] أن أول من وضع فن وصف الرحلات من المسلمين هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (٤٩٨ هـ - ٥٤٣ هـ) ، وذلك في مصنفه " ترتيب الرحلات " . ومن يتتبع أعظم الرحالة المسلمين ، يجد أن معظمهم من المغاربة ، أمثال ابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد والعبدري والتجاني . وكان أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام هو المحفز على قيامهم برحلاتهم تلك ، كما أن بعضًا منهم سعى إلى الدراسة على أيدي علماء المشرق[٥] ، وقد حرصوا أثناء وجودهم في الحرمين على لقاء العلماء والانتفاع بهم ، وقد ضمّنوا رحلاتهم أخبار تلك

---

(١) سمع ببغداد ودمشق ، وأجاز له كثيرون من مصر والشام والعراق ، وبرع في الفقه والفرائض والأصول والحساب والجبر والهندسة .
المراغي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
(٢) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ١٥٨ .
(٣) السخاوي : الضوء ، ج ٦ ، ص ١٥٠ .
(٤) محمدين ، محمود ، التراث الجغرافي الإسلامي ، الإسكندرية ، ١٤٠١ هـ ، ص ١٢٩ .
(٥) محمدين ، محمود : المرجع السابق ، الإسكندرية ، ١٤٠١ هـ ، ص ١٢٩ .

اللقاءات ، وسنتناول هنا ذكر عدد من الرحالين الذين قصدوا مكة المكرمة خلال فترة دراستنا مع الإشارة بصورة موجزة إلى ما اشتملت عليه رحلاتهم :

١- ابن رشيد : هو محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي (٦٥٧/ ٧٢١هـ)[١]. من أشهر علماء الأندلس وقد قام برحلته إلى بلاد المشرق ، فزار مصر والشام والحجاز ووصل إلى المدينة المنورة بطريق الحج الشامي في ٢٣ ذي القعدة من سنة ٦٨٤ هـ ، وعاد منها (بعد أن حج) في ٢٨ ذي الحجة من تلك السنة ، فسلك طريق الساحل ماراً بالعقبة في ٢٥ المحرم سنة ٦٨٥ هـ . ودوّن كثيراً مما شاهده بكتاب سماه " ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة "[٢]. وتقع هذه الرحلة في ٦ مجلدات[٣].

٢- العبدري : هو محمد بن محمد بن علي العبدري[٤]الحيحي ، نسبة إلى حاحة قبيلة من البربر في المغرب الأقصى وقد حج في سنة ٦٨٩ هـ وقد ورد الحجاز عن طريق مصر سالكًا طريق الحج الساحلي ، فوصف ذلك الطريق منزلة منزلة ، وقد استفاد من رحلة ابن جبير ، إلا أنه أتى بأشياء لم يذكرها ابن جبير في رحلته[٥].

٣- رحلة التجيبي : هو القاسم بن يوسف بن علي التجيبي السبيتي (٦٧٠/ ٧٣٠ هـ) . وقد حج سنة ٦٨٩ هـ قادمًا بطريق البحر من عيذاب إلى مرسى أبحر من موانئ جدة ، فوصلها في «٨» رمضان

---

(١) الشوكاني ، البدر الطالع ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) ابن رشيد : ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة ، مخطوط بقسم المخطوطات ، جامعة الملك سعود ، رقم ١٠٧ م . خ .
الجاسر ، حمد : أشهر رحلات الحج ، ص ١١٦ .

(٣) ابن حجر : الدرر ، ج ٤ ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) العبدري ، محمد بن محمد : رحلة العبدري ، مخطوط بقسم المخطوطات ، جامعة الملك سعود .

(٥) الجاسر : المرجع السابق ، ص ١٩ - ٢٠ .

من تلك السنة بعد أن أمضى في البحر ٢٤ يومًا . ولم تعرف نسخة كاملة من رحلته ، والموجود منها قطعة تبدأ بالحديث عن مدينة القاهرة ، وينتهي الكلام وهو يتحدث عما رآه في مكة المكرمة ، وقد ذكر مكة وأسماءها ووصف حدود الحرم وفضائلها وذكر المسجد الحرام ووصف الكعبة ، وذكر الحجر والميزاب والركن اليماني ، والمقام وذكر زمزم ومنى ، وذكر من التقى به في مكة وأخذ عنه[١] .

٤- ابن بطوطة : هو محمد بن عبدالله اللواتي[٢]الطنجي ، قام برحلة طويلة شاملة بدأها في عام ٧٢٥ هـ ، فقد زار خلالها الأقطار الإسلامية وبلاد الشرق الأقصى ، وقد استغرقت رحلته هذه سبعًا وعشرين سنة وقام بتدوينها نقلاً عنه محمد بن جزي الكلبي في مدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ ، وقد سماها " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " وتعد رحلة ابن بطوطة أشهر الرحلات لشمولها[٣] .

ولقد اهتم ابن بطوطة في مشاهداته بالنواحي البشرية والاجتماعية والفردية . أما الطريقة التي اتبعها في التدوين والإملاء، فمن الصعب أن ترتفع بالأسلوب إلى النمط العالي والتنسيق المدروس، ومع هذا فستظل رحلة ابن بطوطة مصدراً غنيًا من مصادر علمي التاريخ

---

(١) التجيبي ، القاسم بن يوسف التجيبي ، السبيتي .
مستفاد الرحلة والاغتراب ، ليبيا ، تونس . (١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م) ، ص «ج» من المقدمة .
الجاسر : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٢) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ص ١٥ .

(٣) الجاسر : المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢١ .

والجغرافية في القرون الوسطى ، ولاسيما في الناحيتين السياسية والاجتماعية[1] ، أما بالنسبة لوصف مكة ، فقد وصفها ابن بطوطة وصفًا مفصلاً ، فوصف الحرم الشريف وذكر عادات أهل مكة وأحوالهم، وأوصاف ابن بطوطة توافق إلى حد ما أوصاف ابن جبير ، ويبدو أن مكة لم تتغير خلال الفترة المنقضية بين الرحلتين وهي تزيد على ١٥٠ عامًا .

٥- البلوي : هو خالد بن عيسى بن أحمد البلوي الأندلسي من أهل القرن الثامن . فقد قصد الحج مارًا بمصر ثم بالشام[2]. وقد أكمل الرحلة في أول شهر ذي الحجة من سنة ٧٤٠ هـ . وقد وصف فيها البلاد التي نزل بها وألف رحلته التي أطلق عليها اسم " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق " ، وهي رحلة كبيرة كثيرة الفوائد . فهي ذات قيمة كبرى سواء من الوجهة التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية أو العلمية ، فقد كان البلوي يسجل مذكراته بضبط تام وبدقة ، ولا يعتمد على ذاكرته. وقد استطاع أن يتصل بالأعلام ورجال الفكر . فاتصل خلال رحلته بالأمراء والرؤساء الذين كانوا يعملون على توحيد العالم الإسلامي لمواجهة الخطر المسيحي . وأهم مصدر لرحلة البلوي هي تجربته الشخصية ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار، والاتصال بالعلماء مباشرة للرواية عنهم، ولم يعتمد البلوي في ذكر المدن التي زارها على ماهو مكتوب عنها في الكتب ، بل اعتمد على ما شاهده بنفسه ، إلا

---

(١) جورج غريب : الموسوع في الأدب العربي ، أدب الرحلات ، تاريخه وأعلامه ، دار الثقافة ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) الجاسر : المرجع السابق ، ص ٢١ .

أنه قد انتفع في بعض ما كتبه في تلك الرحلة بما كتبه ابن جبير عن المشرق[1].

ويتفق البلوي مع ابن بطوطة في وصف الأماكن المقدسة ومكة المكرمة ويهتم كل منهما بملاقاة الرجال ، ولكن البلوي تميز بالاهتمام بالبحث عن كبار علماء الحديث والأدب ليأخذ عنهم ويستفيد منهم ومن كتبهم، ليتسنى له الرواية عنهم ، ولكن اهتمام ابن بطوطة انصب على معرفة أسمائهم ، وأحيانًا يزورهم في منازلهم لمجرد التبرك بهم ، خصوصًا إذا كانوا من الزهاد ولم يكن مهتمًا بالعلم[2].

٦- الصفدي : هو خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، واسم رحلته " حقيقة المجاز إلى الحجاز "[3].

لم أجد أية معلومات عن هذه الرحلة . أما صاحبها فهو من كبار المؤلفين ويكفيه فخراً كتابه الضخم " الوافي بالوفيات " الذي يعد أكبر معجم للرجال ، وقد أنجز طباعة عشرة أجزاء منه حتى الآن ، كذلك له كتاب آخر مطبوع هو " نكت الهميان في نكت العميان " ولعل الصفدي - بما عرف عنه من كفاءة علمية عالية - قد ضمن رحلته فوائد كثيرة عن الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة مما أهمله غيره من الرحالين .

---

(١) البلوي ، خالد عيسى : تاج المفرق في تحلية علماء الشرق ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٣) الجاسر : المرجع السابق ، ص ٢١ .

الفصل الرابع

دور المرأة في الحركة العلمية

أولاً : كلمة تمهيدية عن مكانة المرأة في الإسلام :

لقد كرم الإسلام المرأة ورفع من شأنها ، حتى وضعها في المكانة الرفيعة اللائقة بكرامتها الإنسانية وبيّن حقوقها وواجباتها .

ولقد كان للمرأة دور بارز في الحياة العلمية ، فقد جعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ولقد نبغ عدد كبير من النساء في علوم القرآن والفقه والحديث وغدون معلمات من الطراز الأول ، حتى أن كبار الصحابة والتابعين كانوا يلجأون إليهن في كثير من أمور الدين . كما نبغ منهن عدد غير قليل في مجالات الأدب والشعر ، وكانت أغزر النساء علمًا وفقهًا في صدر الإسلام أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) . وقد ذكر البلاذري أن حفصة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تكتب ، وأما عائشة وأم سملة فكانتا تقرآن ولا تكتبان[1] .

أما أبرز العلوم التي اشتهر كثير من النساء المسلمات بإجادتها فهو الحديث الشريف ، وقد نبغ فيه عدد من المحدثات في صدر الإسلام . وعن أبي

---

(١) البلاذري ، أحمد يحيى : فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، القاهرة (١٩٣٢م) ، ص ٤٥٨ .

سلمة بن عبدالرحمن قال : " ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أفقه في رأي إن احتيج إلى رأيه ، ولا أعلم بآية فيم نزلت ، من عائشة"(١)، ولقد برزت بعض النساء في الخطابة .

ثانيًا : دور المرأة في الحركة العلمية في مكة :

بعد هذه التوطئة التي أردت منها إعطاء فكرة عامة عن مكانة المرأة في الإسلام ودورها في الحياة العلمية ، كي أمهد السبيل للحديث عن المرأة المكية، إذ ليس بالإمكان فهم وضعها بدون تلك المقدمة لأن وضعها المكي ما هو - في الحقيقة - إلا امتداد لما كانت عليه من بداية ظهور الإسلام حتى العصر الذي نحن بصدده . أما الآن فنعود إلى مكة المكرمة ، فنتناول أحوال المرأة فيها ، وهي بلا شك لم تختلف عن أحوال أخواتها في البلاد الإسلامية الأخرى ، إذ كانت النساء يرتدن المساجد ويستمعن لما يلقى فيها من خطب ومواعظ ، فقد كان يسمح لهن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عهد الخلفاء الراشدين بحضور الصلوات في المسجد ، فيجلسن في نهاية الصفوف ويستمعن لما يلقى فيه من الحديث والمواعظ .

أما أحوال المرأة في القرنين السابع والثامن للهجرة ، فلم تختلف كثيراً عمّا كانت عليه الحال في القرون السابقة ، ولذلك فلا داعي لإعادة الحديث عن حقوق المرأة المكية ، إذ هي الحقوق نفسها التي تتمتع بها كل امرأة مسلمة ، ولهذا السبب سوف نركز على وصف أوضاعها من الناحية العلمية ، فنتناول

---

(١) ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، (١٩٧٠م) ، ج ٧ ، ص ٢٩١ .
العاملي : زينب بنت علي بن حسين بن فواز : الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، مصر ، بولاق ، (١٣١٢هـ)، ص ٢٨٣ .

نساء مكة اللاتي اشتغلن بالعلم ، وليس أمامنا من وسيلة لتحقيق هذا الغرض سوى ذكر أبرز النساء والمجال الذي برزن فيه ، ومن استعراض المصادر التاريخية التي تناولت المرأة المكية ، يتضح لنا اهتمام نساء مكة بالعلم خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة ، فقد اقتصر على علم الحديث وهو اهتمام مشابه تمامًا لما كان عليه حال المرأة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . أما أبرز النساء اللاتي عرف عنهن الاهتمام بالعلم من أهل مكة فهن :

١- أمة الله بنت أحمد بن عبدالله الأبنوسي التي روت الكثير عن والدها سنة ٦٢٦ هـ[١] .

٢- زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحرازي المتوفاة في سنة ٦٨٨ هـ ، كانت محدثة قضت عمرها في طلب الحديث والرواية والعبادة وتلاوة القرآن ، وسمعت الحديث من كثيرين وأجاز لها الكثيرون[٢] .

٣- عائشة بنت محمد بن أحمد بن علي القيسي المكية ، بنت الشيخ قطب الدين القسطلاني ، المولودة بمكة والمتوفاة بها (٦٤٣ هـ - ٧١٦ هـ) ، لقد سمعت " سداسيات " الرازي من محمد بن عبدالله المتيجي وحدثت بها ، وسمعت من كثيرين . كما سمع منها بعض طلبة الحديث ونالت الإجازة من بعض المشائخ[٣] .

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١١٩ .

(٢) ولدت زينب في عام ٥٩٤ هـ ، ولقد ازدحم عليها الطلبة .
ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٢٧٠ .

٤- فاطمة بنت الشيخ قطب الدين أبي بكر محمد القسطلاني المتوفاة سنة ٧٢١ هـ . سمعت فاطمة من كثيرين وحدثت ، وأجاز لها ابن الخير وابن السيدي ، وسمع منها جماعة من الأعيان وأجازت للشهاب أحمد ابن علي الحنفي(١) .

٥- صفية بنت إبراهيم بن أحمد بن يحيى الزبيدي المتوفاة بمكة سنة ٧٤٣هـ وقد حدثت بمكة سنة ٧٤٢ هـ(٢).

٦- فاطمة بنت أحمد بن قاسم الحرازي المكية المتوفاة بمكة سنة ٧٨٣ هـ(٣) .

٧- أم الحسين سعادة ابنة عبدالملك بن محمد البكري التونسي المكي ، وقد سمعت في سنة ٧٨٩ هـ من كثير من المشايخ الكبار ، كالجمال الأسيوطي ونالت الإجازة منهم ومن غيرهم(٤).

٨- أم أحمد علما ابنة الشهاب أبي العباس أحمد ابن ظهيرة القرشية المخزومية المكية ، المتوفاة سنة ٨١٨ هـ ، حدثت وسمع منها التقي ابن فهد وأخوه ، وقد أجاز لها في سنة ٧٥٥ هـ العلائي والعز بن جماعة وناصر الدين الفارقي(٥) .

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ٣ ، ص ٢٢١ .

كحالة : المرأة في عالمي العرب والإسلام . - ط٢ . - بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ١٤٠ .

(٥) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٨٣ .

٩- أم الفضل خديجة (أو سعادة) ابنة عبدالرحمن من آل فهد الهاشمي العلوي المكي (٧٨٧ - ٨٦٠ هـ) ، لقد حدّثت فسمع منها الفضلاء، وكان لها مشاركة علمية ، أجاز لها التقي بن حاتم والصروي، والشهاب ابن ظهيرة وابن فرحون والهيثمي والعراقي والمجد اللغوي ، ولقد كانت خيرة محسنة للفقراء والأرامل(١).

١٠- عائشة بنت أبي بكر بن الحسين المراغي محدثة ، سمع منها الفضلاء ، وأخذ عنها التقي بن فهد(٢).

هذا ولقد كان لبعض المكيات مكاتبات ومحاورات مع علماء العصر (وفقًا لما ذكره الفاسي) من أمثال :

١١- خديجة بنت شهاب الدين أحمد العقيلي النويري المتوفاة سنة ٧٧٧ هـ بمكة ، وكانت ذات عفة ومكانة رفيعة من العلم والدين والصلاح(٣).

١٢- ومثلها أم الحسين بنت قاضي مكة شهاب الدين أحمد الطبري المكي المتوفاة سنة ٧٨٦ هـ ، التي كان لها مشاركة في العلم . سمعت من كثير من الشيوخ وحازت على إجازاتهم وكانت تنظم الشعر(٤). ولقد

---

(١) المصدر السابق ، الجزء السابق ، ص ٢٨ .
ابن فهد ، نجم الدين عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي : الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (مخطوطة) لا يوجد أرقام صفحات .
(٢) لقد سمعت في سنة ٧٦٧ هـ من العز بن جماعة .
السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ٧٤ .
كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، (الطبعة الثالثة ، بيروت، مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ج ٣ ، ص ٧ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٢٠٦ حتى ص ٢٠٨ .
(٤) الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٣٣١ حتى ص ٣٣٢ .

بحثت عن تلك المكاتبات والمحاورات التي أشار إليها الفاسي فلم أوفق في العثور عليها في أي من المصادر المتيسرة .

ثالثًا : اشهر النساء اللاتي تولين التدريس في مكة :

سبق ولاحظنا عند حديثنا عن النساء اللاتي كان لهن اهتمام بعلم الحديث ، أن عددًا منهن - فضلاً عن روايتهن للحديث النبوي - أجزن لغيرهن من الرجال والنساء ، وإتمامًا للفائدة ، رأينا أن نفرد فقرة نتناول فيها ذكر النساء اللاتي تصدين للتدريس والرواية وفيما يأتي بعض الأمثلة لمجرد التذكير :

١- فاطمة بنت طنطاشي بن كمشتكين البغدادية المقرئة المتوفاة سنة ٦٥٠هـ، وقد حدثت وسمع منها الحافظان قطب الدين القسطلاني وشرف الدين الدمياطي ببغداد، وسكنت مكة[١] .

٢- زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحراني . سمعت من حنبل في سنة ٦٨٨ هـ ، وقد تولت التدريس وازدحم عليها الطلبة[٢] .

٣- عائشة بنت إبراهيم بن أحمد الطائي المتوفاة سنة ٧١٨ هـ ، سمع منها البرزالي ، والبرزالي هذا من أكابر المحدثين ، فإن سماعه منها يدل على علو شأنها ، وأجازت لعدد من المحدثين مثل البرهان بن أحمد البعلي الشامي ، وقد جاورت بمكة سنين[٣] .

---

(١) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٠٠ .

(٢) ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

(٣) ولدت عائشة سنة ٦٤٥ هـ وقد أجاز لها كثيرون مثل ابن مسلمة ، ومكي بن علان وبهاء الدين زهير.
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

وهذا يدل على أن الرحلة لم تقتصر على الرجال وإنما النساء كن يرحلن أيضًا مثل عائشة هذه ، وقبلها فاطمة البغدادية . والجدير بالذكر أن القسطلاني والدمياطي اللذين سمعا من عائشة ، يعدان من المحدثين البارزين في زمانهما .

٤- وهناك بين نساء مكة من أجزن بالاستدعاءات أي - أن المستجيزين - كتبوا إليهن " استدعاءات " يطلبون فيها إجازتهم ، ومن هذه النسوة ست الأهل القرشية (من آل ظهيرة الآتي ذكرها في فقرة تالية) .

رابعًا : المجازات من النساء :

مثلما حرص طلبة العلم من الرجال على الفوز بإجازات الشيوخ ، فإن المرأة المسلمة هي الأخرى كانت تحرص أيضًا للحصول على مثل تلك الإجازات ، وقد شهدت مكة خلال الفترة التي تغطيها دراستنا عدداً من النساء المكيات اللاتي تلقين إجازات الشيوخ . وسوف نذكر هنا بعضهن على سبيل المثال :

١- أم ريم بنت علي بن ثاقب، القرشية السهمية المكية التي أجاز لها في سنة ٧١٣هـ الدشتي والقاضي سليمان بن حمزة والمطعم وجماعة من أولاد القاضي جمال الدين بن فهد، وقد توفيت بالمدينة سنة ٧٦٨هـ[١].

٢- أم كلثوم بنت القاضي محمد بن عبدالله من آل فهد القرشية المتوفاة سنة ٧٧٧ هـ بمكة ، أجاز لها الرضي الطبري وأبو العباس الحجار ،

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٣٤٢ .

وأحمد بن كتغدي والقطب الحلبي والدمياطي وغيرهم[1].

٣- أم الحسن بنت أبي الخير محمد بن محمد من آل فهد ، الهاشمية المكية المتوفاة في مكة سنة ٨٢٧ هـ . أجاز لها في سنة ٧٥٩ هـ ابن القاري، وابن عقيل والبهاء بن خليل ، والبهاء بن التقي السبكي ، وابن رافع والبياني ، والكمال بن حبيب ، والصلاح بن أبي عمرو ابن أميلة ، وقد حدثت ، سمع منها قريبها النجم بن فهد[2].

٤- صفية بنت محمد بن محمد المدني " نزيل مكة المتوفاة سنة ٨٤٥ هـ ، أجاز لها البرهان الشامي وابن أبي المجد عبدالله الحرستاني ، وأحمد ابن علي بن عبدالحق ، وأبو هريرة بن الذهبي وإبراهيم بن أحمد ابن عبدالهادي ، وأخوه أبو بكر، وأبو بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي، وقد أوردنا ذكرها هنا لأنها عاشت شطراً من حياتها خلال القرن الثامن الهجري .

٥- خديجة بنت محمد بن حسن بن الزين القسطلاني المكي المتوفاة سنة ٨٤٦ هـ ، أجاز لها في سنة ٧٨٨ هـ وما بعدها العفيف النشاوري وعزيز الدين المليحي ، وعبدالواحد بن ذي النون الصردي ، والتقي بن حاتم ، وابن الشيخة[3].

٦- ست الأهل بنت عبدالكريم بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشية المكية المتوفاة سنة ٨٤٩ هـ ، أجاز لها في سنة ٧٨٨ هـ النشاوري والصردي

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢) السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ٣٠ .

ابن فهد : الدر الكمين (مخطوطة) لا يوجد أرقام صفحات .

وابن حاتم العراقي والهيثمي ، وقد أجازت الآخرين في الاستدعاءات[1].

٧- زينب بنت يوسف بن إبراهيم بن أحمد المدني المتوفاة بمكة سنة ٨٤٩هـ، أجاز لها البرهان الشامي وإبراهيم بن أحمد بن عبدالهادي وأخوه أبوبكر، وأبو هريرة بن الذهبي وعبدالله بن خليل الحرستاني ، ومريم بنت أحمد الأذرعي وفاطمة بنت عبدالهادي ، وفاطمة بنت المخبأ[2].

ولقد أوردنا ذكرها هنا لأنها عاشت قسطًا من حياتها في القرن الثامن الهجري .

٨- كمالية بنت علي بن أحمد الهاشمي العقيلي النويري (٧٨٢ هـ - ٨٦٧ هـ) أجاز لها العفيف النشاوري ، والتقي بن حاتم وغيرهما[3]، وقد أوردنا ذكرها لأنها عاشت شطرًا من حياتها في القرن الثامن الهجري .

خامسًا : الإجازة بالمراسلة :

وإتمامًا للفائدة ، لا بد لنا من التنويه بأن النساء مثل الرجال حرصن على الحصول على إجازات بالمراسلة ، ولهذا أفردنا هذه الفقرة الصغيرة لهذا الموضوع، إذ حصلت بعض نساء مكة على إجازات من علماء الأقطار الأخرى ، وسوف نذكر منهن على سبيل المثال :

---

(١) السخاوي : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٥٣ .

(٢) لقد سمعت من والدها سنة ٧٨٦ هـ بالمدينة مشيخة ابن شاذان الصقري ، وكان جدها من نزلاء مكة ، السخاوي : التبر المسبوك ، القاهرة ، لا يوجد تاريخ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ١٢٠ .

١- عائشة بنت محمد القيسي المتوفاة سنة ٧١٦ هـ ، وقد أجاز لها جماعة من شيوخ أبيها البغداديين والشاميين والمكيين[١].

٢- فاطمة بنت الشيخ قطب الدين القسطلاني المتوفاة سنة ٧٢١هـ، وقد أجاز لها ابن الخير وابن السيدي وابن العليق ، وجماعة من بغداد والشام ومكة[٢] .

٣- ست الكل بنت أحمد بن محمد القيسي القسطلاني المكية المتوفاة سنة ٨٠٣ هـ ، أجاز لها من مصر يحيى بن يوسف المصري ومحمد بن غالي الدمياطي وغيرهما ، ومن دمشق أبو بكر بن الرضي وزينب بنت الكمال وغيرهما[٣].

وهكذا نرى ونحن نأتي على نهاية هذا الفصل ، أن المرأة المكية قد كان لها دور مهم في الحياة العلمية خلال القرنين السابع و الثامن ، إذ شاركت أخاها الرجل في إنعاش الحياة العلمية في المدينة المقدسة .

أما بالنسبة للمجالس العلمية واللقاءات التي كانت تتم بين العلماء ، فقد وردت في المصادر إشارات عن لقاء العلماء ببعضهم البعض ، وما يدور في تلك اللقاءات ، وكنت أود أن أجمع بعض المعلومات عنها ولكنني لم أهتد إلى شيء من ذلك في المصادر التي تيسر لي الرجوع إليها ، ومن الطبيعي أن تلك المجالس لا بد وأنها تركت بعض الآثار في الحياة العلمية .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

الباب الرابع

الحياة الاجتماعية

العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية
في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

كلمة تمهيدية عن العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية

الفصل الأول : الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الحياة الاجتماعية :

أولاً : مصادر التموين الغذائي لمكة المكرمة .

ثانيا : فترات الرخاء والشدة في مكة .

ثالثًا : أحوال الطرق .

الفصل الثاني : أهمية الحج في الحياة الاجتماعية

الفصل الثالث : الصدقات وأوقاف الحرمين وأثرها في إنعاش الأحوال الاجتماعية في مكة ..

أولاً : الصدقات

ثانيًا : أوقاف الحرمين

الفصل الرابع : المؤسسات الخيرية والمبرات ودورها في خدمة المجتمع المكي :

أولاً : الأربطة

ثانيًا : المؤسسات الخيرية (غير الأربطة)

ثالثًا : مشاركة المرأة في الأعمال الخيرية

الفصل الخامس : المجاورون وأثرهم في الحياة الاجتماعية في مكة ..

الباب الرابع

العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة

كلمة تمهيدية :

يقصد – عادة – بالحياة الاجتماعية في بلد من البلاد، ذكر عناصر السكان من حيث الجنس والدين وطبقات المجتمع، ثم وصف العادات والتقاليد الشعبية والاحتفالات والمواكب والأعياد والمواسم ، ووسائل التسلية والألبسة والأطعمة ، والمنشآت الاجتماعية وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع . وسأحاول في هذا الباب والذي يليه – إن شاء الله – أن ألقي الضوء على هذه النواحي ، فيما يتعلق بالمجتمع المكي خلال القرنين السابع والثامن للهجرة . أما هذا الباب فهو يتضمن إلقاء نظرة فاحصة على العوامل التي كان لها أثرها في تكوين الحياة الاجتماعية في مكة خلال فترة دراستنا ، فيشمل أهمية الحج في الحياة الاجتماعية ، والأوضاع الاقتصادية وأثرها في الحياة الاجتماعية التي تشمل مصادر التموين الغذائي لمكة ، وفترات الرخاء والأزمات وأحوال الطرق ، وسنخصص لهذه كلها فصلاً واحداً ، كما سنخصص فصلاً آخر للصدقات والأوقاف وأثرها في الحياة الاجتماعية ، وفصلاً ثالثًا للمؤسسات الخيرية والمبرات التي كان لها دورها في رسم معالم الحياة الاجتماعية في المدينة المقدسة . وحيث إن المجاورين الذين سبق وتعرضنا لدورهم في الحياة العلمية، كان لهم أثرهم في الحياة الاجتماعية فقد خصصناهم بفصل مستقل .

الفصل الأول

الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الحياة الاجتماعية
في مكـــة خـــلال القرنين السابع والثامن للهجرة

على الرغم من التدهور الاقتصادي الذي عانته مكة بسبب تحول اهتمام الخلافة العباسية عنها بسبب تقلص اهتمام الخلافة العباسية أولاً كنتيجة لانشغالها بمشاكلها الخاصة ثم سقوطها في منتصف القرن السابع الهجري فإن الحياة اليومية في مكة المكرمة ظلت تسير سيراً حسنًا فالمتاجر الموسمية كانت تنتشر خلال موسم الحج وتكثر فيها الأغذية على اختلاف أنواعها كالفواكه مثل التين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ، والموز والمقل والبطيخ والخيار وجميع البقول والخضروات مثل الباذنجان واليقطين والكرنب والجزر والسلجم ، فضلاً عن الحلوى التي اشتهرت مكة بصناعتها ، أما بالنسبة للحوم فقد أعجب ابن جبير بلحوم الضأن ويوجد في البلد الحرام أيام موسم الحج سوق عظيمة تباع فيها من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر - على حد قوله - وكان الدقيق يباع بدار الندوة(١).

هذا في عهد ابن جبير، ومن المتوقع أن يصح ما قاله ابن جبير عما شاهده في أيامه، نقول أنه يصح بالنسبة للقرنين السابع والثامن، إذ كانت زيارته لمكة في النصف الثاني من القرن السادس ومن غير المحتمل أن تتغير أحوال المدينة بسرعة .

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

ووصف ابن جبير لما كان يعرض في أسواق مكة من الأغذية ، يجرنا إلى الحديث عن مصادر التموين الغذائي للمدينة المقدسة ، وهذا ما سنتناوله في الفقرة الآتية :

أ - مصادر التموين الغذائي لمكة :

لقد كانت مكة تعتمد في تموينها الغذائي على مصادر محلية وأخرى خارجية، وكانت أغلب الفواكه والخضر تأتي من المزارع والبساتين القريبة ، في حين يأتيها القمح وغيره من الحبوب من أماكن أخرى ، بل إن معظمها من خارج الجزيرة . وسنتناول هذا الموضوع على هذا الأساس .

اولاً : مصادر التموين المحلية :

وهي تعتمد على مراكز النشاط الزراعي القريبة من مكة ، ويمكن تلخيصها في الآتي :

١) الطائف :

وتقع في السفوح الشرقية لجبال السراة على بعد ٩٩ كيلو متراً بمقياس العصر الحديث ، وهي إلى جهة الشرق من مكة مع ميل يسير نحو الجنوب[١] .

٢) وادي مـــر :

يقع على مسافة ٢٤ كيلو متراً شمال مكة ، على الجادة المؤدية إلى المدينة المنورة ، ومر هذا هو مر الظهران ويسمى حاليًا " وادي فاطمة "[٢].

٣) وادي نخلة :

من المرجح أن المقصود بهذا الوادي هو النخلة الشامية والشامية واد ينصب في الغمير[٣].

---

(١) البلادي ، عاتق بن غيث - معجم معالم الحجاز . - ط١ . - دار مكة للطباعة والنشر ، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ، ج ٥ ، ص ٢١٩ .
(٢) المرجع نفسه ، الطبعة الأولى (١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م) ، ج ٨ ، ص ١٠٢ .
(٣) المرجع نفسه ، الطبعة الأولى (١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م) ، ج ٩ ، ص ٤٢ .

ومن هذه البقاع ترد الفاكهة إلى أسواق مكة ومنها ، التين ، العنب والسفرجل ، الرمان ، التفاح ، الليمون ، والأترج ، والجوز والمقل والرطب والبطيخ[1] ، وبالنظر لاعتدال الجو في تلك المناطق ، فقد كانت الفاكهة متوفرة بمكة طول الشتاء[2] ، ومن أنواع الخضر والبقول التي كانت تجلب إلى مكة من وادي مر ، ووادي نخلة ، الباذنجان والكراث والقثاء ، والخيار والفجل ، واليقطين ، والسلجم ، والثوم ، والبصل ، والريحان ، والمشموم . وكانت بعض الفواكه والخضر مثل الباذنجان والبطيخ والقثاء ، تصل إلى مكة طوال السنة[3]. ولقد ذكر القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى " أن مكة ينزرع فيها بعض الحبوب مثل البر والشعير والسلت وجميعها يزرع على المطر[4]. إلا أن الميرة التي تأتي إلى مكة من المناطق التي ذكرناها لا تكفي لسد احتياجات أهل مكة ، نتيجة ذلك اعتمدت مكة على المواد الغذائية التي كانت ترد إليها من جبال السراة وتهامة واليمن ، وبلاد السودان والحبشة ومصر ، وكانت مصر أهم مصادر الميرة لإمارة مكة . وهذا ما سنتناوله في الفقرة التالية :

ثانيًا : مصادر التموين الخارجية عن منطقة مكة :

ويدخل في هذه الفقرة مناطق تقع داخل الجزيرة العربية وأخرى خارجها ، وقد كان عليها المعول في جلب الحبوب بالدرجة الأولى . ومن هذه المناطق :

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامة ، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري نقلها إلى العربية د. يحيى الخشاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) ، ص١٢٤ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٤) ج ٤ ، ص ٢٤٧ .

١) جبال السراة[١] :

تعد منطقة جبال السراة من أهم مصادر الميرة لأهل مكة ، فلقد كان لقبائل السرو دور مهم في توفير المواد الغذائية لأهل مكة ، والسرو هم قبائل وبطون من العرب يحكم عليهم مشايخ منهم وفيهم ، وهم فروع متفرقة[٢] من قبائل اليمن منهم قبائل جبال السراة ، مثل بجيلة وزهران وغامد . وقد اعتاد هؤلاء على قصد مكة في أول شهر رجب من كل عام لأجل العمرة وجلب الميرة إلى المدينة المقدسة ، إذ كانوا يجلبون معهم الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والذرة والدخن ، واللوز والزبيب واللوبياء ، فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة[٣].

وكان قدومهم إلى مكة يؤدي إلى رخص الأسعار . وقبائل السرو لا يبيعون الميرة بدينار ولا بدرهم ، وإنما يبيعونها بالخرق والعباءات والشمل . فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان ، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ، ويبايعونهم به ويشارونهم[٤]. وليس في المصادر مايدل على أن تلك العباءات والشمل كانت تصنع في مكة لهذا الغرض أو أنها مما كانت تستورده مكة من أماكن أخرى .

٢) تهامة اليمن :

تعد تهامة اليمن من مصادر المواد الغذائية لأهل مكة ، فقد كانت الميرة تحمل منها لأهل البلد الحرام ففي سنة ٦٧٦ هـ ، ذكر الفاسي أن الغلاء في

---

(١) هي سلسلة الجبال التي تفصل بين تهامة ونجد ، ياقوت : شهاب الدين بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي . معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر، ١٩٧٧م . المجلد الثالث ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٢) ابن المجاور : المصدر السابق ، ص ٢٦ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
(٣) ابن المجاور : المصدر السابق ، ص ٢٧ .
ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

أسعار الأطعمة بمكة لم ينخفض " مع اتصال الجلاب من سواحل اليمن[١]". وكانت نتيجة قطع الميرة عن مكة لها آثار في حياة أهلها ، ودليلنا على ذلك ما حدث في سنة ٧٠٧ هـ من غلاء بعض الأسعار مثل الحنطة والذرة بمكة ، نتيجة لقيام الملك المؤيد داود ، سلطان الدولة الرسولية باليمن بمنع إرسال القوت إليها ، لتدهور العلاقات بينه وبين أميري مكة حميضة ورميثة ابني أبي نمي ، ولم ترخص أسعار الحبوب بأسواق مكة حتى رفع المؤيد داود حظره هذا خلال السنة نفسها[٢].

وفي سنة ٧٤٤ هـ اشتد الغلاء بمكة ، لأن الشريف عجلان بن رميثة أخذ جلاب اليمن ، لأن سلطان المماليك رفض الاعتراف بنزول أبيه عن إمرة مكة له ولأخيه ثقبة ، ولأنه كذلك حبس أخاه ثقبة[٣]. هذه نماذج لما كان يقع بالنسبة للميرة التي ترد إلى مكة من تهامة اليمن وليس هدفنا هنا استقصاء كل ما وقع من أحداث في هذا الشأن خلال مدة الدراسة .

٣) سواكن (من بلاد الحبشة) :

لم تقتصر مكة في حصولها على المواد الغذائية من مصادر تقع خارج الحجاز على اليمن فحسب ، بل هناك مصادر أخرى تقع خارج الجزيرة العربية ، فقد ذكر ابن بطوطة أن الألبان والسمن وحبوب الجرجور (وهو نوع من الذرة كبير الحب) تجلب إلى مكة من سواكن[٤]، وكان سلطان سواكن حين وصول ابن بطوطة إليها الشريف أبا نمي الذي كان أبوه أمير مكة ، وأخواه عطيفة ورميثة[٥]، وقد سماه الفاسي بأنه زيد بن أبي نمي محمد الحسني المكي[٦].

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
(٣) العصامي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ .
(٤) سواكن بلد مشهور على ساحل البحر الجار قرب عيذاب ترفأ إليه سفن الذين يقدمون من جدة ، وأهله بجاة سود نصارى .
ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، ص ٢٧٦ .
(٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .
(٦) العقد ، ج ٤ ، ص ٤٨٣ .

وقرب سواكن من السواحل الحجازية جعل لها أهمية خاصة في مكافحة الغلاء ، من ذلك الغلاء الذي حدث في أسعار الحنطة والذرة بمكة في سنة ٨٠٥هـ ، لم ينته إلا بوصول الجلاب من سواكن .

فعدم وصول الذرة من سواكن كالمعتاد يعد من أهم الأسباب للغلاء في مكة[١].

هذا وإن عيذاب[٢] على الساحل الغربي للبحر الأحمر كانت أيضًا مصدراً من مصادر التموين كما يتضح من أخبار سنة ٦٧٦ هـ[٣].

٤) مصر :

لقد اعتمدت مكة على مساعدة الحكومات التي قامت بمصر منذ صدر الإسلام لتزويدها بالغلال، وقد كانت الحبوب تحمل إلى الحجاز من مصر كصدقات وصلات وجرايات رسمية مقررة للأشراف خاصة، ولأهالي الحرمين الشريفين عامة، بالإضافة إلى ريع أوقاف الحرمين الشريفين في مصر التي تعد من المواد المهمة للاقتصاد الحجازي التي سوف نتناولها إن شاء الله عند حديثنا عن أوقاف الحرمين .

وقد استمر الأيوبيون والمماليك على إرسال الميرة إلى مكة ، وقد اعتاد سلاطين المماليك والأمراء على تجهيز الأقوات إلى مكة ، وخصوصًا إذا أصاب الحجاز قحط أو ندرة في الطعام ، وسنتناول ذلك - إن شاء الله - عند حديثنا عن الهبات والصدقات .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٢) عيذاب بليدة على ضفة بحر القلزم (أي الأحمر) وهي مرسى المراكب التي تقوم من عدن إلى الصعيد.
ياقوت المصدر السابق، ج ٤، ص ١٧١ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

ب - فترات الرخاء والشدة في مكة :

ولأجل التعرف على مستوى الحياة التي كان أهل مكة يحيونها ، لا بد لنا من معرفة التقلبات التي مرت بمكة عن أعوام الرخاء إلى سني الجدب والأزمات الاقتصادية التي قاست منها المدينة المقدسة . وسنبدأ بفترات الرخاء ، ثم نتبعها بسني الشدة :

أولاً : فترات الرخاء :

لقد سجل بعض المؤرخين أخبار الرخاء في حولياتهم ، وقد قمنا باستعراض كتب التاريخ المكي من أجل الحصول على بعض المعلومات المتعلقة بفترات الرخاء ، نوجزها فيما يأتي :

١) في سنة ٦٢١ هـ كان الحج سهلاً بسبب رخص الأسعار واستقرار الأمن في الطريق الشامية وبالحرمين[١].

٢) في سنة ٧٢٨ هـ كانت مكة تنعم بالأمن والرخاء فقد بيع إردب القمح بأربعين درهمًا ، والدقيق بثمانية[٢]واللحم كل مَنّ * بأربعة دراهم مسعودية ، والعسل الهاجري المليح كل مَنّ بدرهمين والسمن الوقية[٣] بثلاثة دراهم ، والجبن كل مَنّ بدرهمين .

وقد كان بمكة كثير من الخيرات[٤]. ولعل ذلك كان بسبب هطول الأمطار بغزارة في تلك السنة .

---

(١) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) كذا بالأصل ولم يبين المؤرخ ماهو الوزن أو الكيل من الدقيق الذي بيع بثمانية ، ولعل المقصود "الويبة " وهي التي بيعت في سنة ٧٣٨ هـ بتسعة دراهم كما يأتي معنا .

(٣) الوقية : الأوقية بضم الهمزة وتشديد الياء زنة سبعة مثاقيل وقيل زنة أربعين درهمًا .
ابن منظور : لسان العرب ، إعداد يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، المجلد الثاني ، ص ١٢ .
ومن المستغرب أن يباع السمن بالأوقية وهي وزن خفيف - كما يتضح من هامشنا هذا - لا سيما وأن السمن كان يباع بالرطل وفقًا لما ورد في أخبار سنة ٧٣٨ هـ !!

* المَنّ هو وزن يساوي رطلين ، والرطل أربعمائة غرام (انظر مقال السامر ، فيصل : ملاحظات في الأوزان والمكاييل الإسلامية وأهميتها ، مجلة كلية الأداب، بغداد - ١٩٧٠/١٩٧١م، العدد ١٤، ج٢ ، ص ٧٠٧ - ٧٠٩ .

(٤) الجزيري ، عبدالقادر محمد بن عبدالقادر بن إبراهيم الأنصاري الحنبلي : الدرر الفرائد المنظمة في ==

٣) وفي سنتي ٧٣٨ هـ ، ٧٣٩ هـ كانت مكة رخية حتى بيعت الويبة* من الدقيق بتسعة دراهم ، والسمن خمسة أرطال بدرهم، والعسل أربعة أرطال بدرهم والتمر اثنا عشر رطلاً بدرهم(١). وكان ذلك بسبب الرخاء وغزارة الأمطار .

٤) وفي سنة ٧٦٠ هـ أسقط المكس المأخوذ عن المأكولات بمكة من الحب والتمر والسمن والغنم ، وارتفع من مكة الجور والظلم وانتشر العدل والإحسان ، وذلك بسبب أن الملك الناصر حسن صاحب مصر جهز إلى مكة عسكراً لإصلاح أمرها ، وللإقامة بها مع من ولاه إمرة مكة ، وهما الشريفان محمد بن عطيفة بن أبي نمي وسند بن رميثة بن أبي نمي ، ودام هذا مدة مقام هذا العسكر بمكة وذلك حتى آخر سنة ٧٦١هـ(٢).

٥) في سنة ٧٩٦ هـ حصل بمكة رخاء إذ بيعت فيه** الغرارة من الحنطة بسبعين درهمًا كاملية في زمن الموسم(٣)، ولم تذكر المصادر سبب الرخاء .

٦) ولقد كان للسلطان الملك المظفر (ملك اليمن) متاجر في الطعام إلى مكة يتصدى السفر بها المجد بن أبي القاسم . ولقد كان لها من النفع موقع عظيم ، وبلغ الطعام بالمتجر إلى ستة أمداد بدينار(٤).

== أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، ج ١ ، ص ٦٣١ .

* الويبة مكيال ذكره ابن منظور في لسان العرب مج ٣ ، ص ٩٩٦ ، ولكنه لم يبين مقداره .

(١) ابن فهد : اتحاف الورى بأخبار أم القرى (مخطوطة) ، ص ٢٩٢ .
الجزيري : المصدر السابق ، ص ٦٤٢ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٣) الجزيري : المصدر السابق ، ص ٦٨٠ .
الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٤) ابن حاتم اليامي ، بدر الدين محمد : كتاب السمط الغالي الثمن في أخبار من الغز باليمن ، تحقيق الدكتور/ ركس سميث ، لندن ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

** الغرارة مكيال معين كان أهل مكة يتعاملون به ، ذكره ابن منظور في لسان العرب مج ٢ ، ص٩٧٢ لكنه لم يبين مقداره .

ثانيًا : الأزمات الاقتصادية والمجاعات التي حدثت في مكة :

لقد سبق وذكرنا أن حياة مكة اليومية كانت تتسم بالبهجة والسرور إلا أن غمامات من الحزن والخوف كانت تعكر صفو هذه المدينة المقدسة أحيانًا ، وذلك عندما يقع القحط أو تنتشر الأوبئة أو يشح الماء ، مما يؤدي إلى غلاء الأسعار ووقوع المجاعات وتخريب المباني وتفشي الموت بين السكان . وعلى الرغم من أن مصر كانت تحاول أن تسعف أهل الحرمين وتخفف عنهم آثار كوارث القحط والسيول ، بإمدادات المؤن وبتجديد ما تهدم ، فلم يكن باستطاعتها أن تفعل شيئًا أمام الأوبئة التي كانت تنتشر، غالبًا بسبب قلة الماء .

وقد استعرضنا كتب التاريخ ، فوجدنا في حولياتها ذكراً لبعض هذه الأحداث المؤلمة والتي تبين كيفية تأثير قطع الميرة على الغلاء ، وسوف نورد أمثلة* على ذلك :

١) ما حدث في سنة ٤٤٧هـ من غلاء شديد في مكة ، وسببه عدم زيادة النيل بمصر فلم يحصل منها الطعام إلى مكة[١].

٢) في سنة ٤٤٨ هـ حدث بمكة غلاء ولم يحج أحد من العراق[٢].

٣) في سنة ٤٥٨ هـ قطع المستنصر** الميرة عن مكة ، فقطع الأمير محمد بن أبي هاشم خطبة القائم العباسي[٣].

---

(١) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٥٤٧ .
ابن فهد : إتحاف الورى ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ .

(٢) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤٧ .
إتحاف الورى ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ .

(٣) العقد ، ج ١ ، ص ٤٤١ .
إتحاف الورى ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

* إن بعض هذه الأمثلة ترجع إلى الفترة السابقة لفترة دراستنا ، وغرضنا من إيرادها للتدليل على تشابه آثار الأزمات على حياة مكة في مختلف العصور .

** هو الخليفة الفاطمي أبو تميم معد الملقب بالمستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) (انظر : زامباور إدوارد فون : المصدر السابق ص ١٤٥) ، أما الأمير محمد بن هاشم فهو محمد بن جعفر الذي تولى إمارة مكة لمدة ٣٣ سنة وتوفي سنة ٤٨٧ هـ ، ج ١ (انظر : الفاسي : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٣ .

٤) وفي سنة ٤٦٢ هـ قطع أمير مكة محمد بن جعفر المعروف بابن أبي هاشم الحسني خطبة المستنصر العبيدي صاحب مصر ، بسبب عدم وصول شيء من جهة العبيدي لاشتغاله عنه بما حدث في مصر من القحط المفرط والوباء[١].

٥) وفي سنة ٥١٤ هـ غلت الأسعار في مكة بسبب منع الأفضل بن أمير الجيوش وزير الديار المصرية الناس أن يحجوا ، وقطع الميرة عن الحجاز[٢].

٦) في سنة ٥٦٢ هـ لم يبع التجار في مكة شيئًا بسبب انقطاع حاج مصر[٣].

٧) في سنة ٥٦٧ هـ حدث بمكة غلاء ، ثم فرّج الله على الناس بجلبتين مشحونتين بالحب ، صدقة من السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب[٤].

٨) وفي سنة ٥٦٩ هـ حدث بمكة غلاء كثير أكل الناس فيه الدم والجلود والعظام ومات أكثر الناس ، ولكن الله فرّج عليهم بصدقات الخليفة العباسي المستضيئ بالله (٥٦٦ هـ - ٥٧٥ هـ)[٥].

٩) في سنة ٥٧٩ هـ أصاب أهل مكة قحط شديد أضر بهم ، وقد فرّج الله لهم بجلب السرو الميرة إليهم[٦].

---

(١) إتحاف الورى ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٩٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٢٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣٣ .
(٥) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٥٧٠ . والسيوطي : الخلفاء ، ص ٤٤٤ - ٤٤٨ .
إتحاف الورى : ج ٢ ، ص ٥٣٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٤٩ .

١٠) في سنة ٦١٤ هـ غلت الأسعار في مكة ، فغلا سعر الحب مدة شهرين، فبيع كل مُدّ[١] بدينار ذهب ، وتعرف هذه السنة بسنة أم لحم[٢].

١١) وفي سنة ٦٥١ هـ حصل للناس في أيام الموسم عطش شديد * ومات في الوقفة عدد كبير من جمال الحجاج وانتشر الغلاء بمكة حتى بيعت الشربة من الماء بدرهم ، والشاة بأربعين درهمًا ، وبيع بالطائف الشعير والدخن كل مدّ وربع بدينار ، ثم جاء مكة سيل عظيم فحصل به الفرج لأهلها[٣].

١٢) في سنة ٦٦٤ هـ بلغ سعر الشعير بمكة ربع مدّ ثلثه بدينار[٤].

١٣) في سنة ٦٧١ هـ انتشر بمكة وباء غريب لم يعرف الناس كنهه راح ضحيته حوالي ألف شخص[٥].

١٤) وفي سنة ٦٧٥ هـ كان الغلاء بمكة كثيراً بسبب الفتنة التي وقعت بين صاحب مكة وصاحب المدينة ** ، مع اتصال ورود الجلاب (أي السفن) من سواحل اليمن وعيذاب وسواكن[٦].

---

(١) المد : ضرب من المكاييل وهو ربع صاع ، وهو قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم والصاع خمسة أرطال والجمع أمداد .
ابن منظور : لسان العرب ، المجلد الثالث ، ص ٤٥٤ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، مخطوطة ، ص ٣٥٣ .

(٣) ابن فهد : المصدر السابق (مخطوط) ص ٢٧٠ ، ابن فهد : اتحاف الورى ، ج٣ ص ٩٠ .
الجزيري : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٩٨ .

(٤) ابن فهد : المصدر السابق (مخطوط) ٢٧٢ لعل سبب الغلاء قلة الأمطار ولم يذكر المؤرخ المادة التي غلا سعرها ولعلها الحنطة وجاءت صيغة الخبر بالشكل المذكور .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٦) الجزيري : المصدر السابق ، ص ٦٠٥ .

* لا يخفى أن مكة تعتمد في شربها على العيون التي جلب ما بها بعض أهل الخير كزبيدة وبعض الحكام ، كما تستقي من الآبار ، راجع فصل السقايات والبرك المسبلة والآبار والعيون في العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

** صاحب مكة هو الشريف محمد أبو نمي ، وصاحب المدينة جماز بن شيحة الجزيري (انظر : العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٦٠٥) .

١٥) وفي سنة ٦٨٣ هـ كان عدد الحجاج كبيراً فوقع الغلاء بمكة ، وفضلاً عن ذلك وقعت فتنة بين الشريف أبي نمي صاحب مكة ، وبين أمير الحجاج المصري علم الدين الباشقردي ، وذلك أن الشريف أبا نمي كان يأخذ من حاج اليمن على كل جمل مبلغ ثلاثين درهمًا ، بينما يأخذ من حاج مصر على كل جمل خمسين درهمًا ، مع كثرة النهب والعسف في جبايته ، ولكن المنصور قلاوون تمكن من إزالته وصار يؤخذ من حجاج مصر على كل جمل ثلاثين درهمًا[١].

١٦) وفي سنة ٦٩٥ هـ اشتد الغلاء بالحجاز حتى بيعت الغرارة[٢]من القمح في مكة بألف ومائتي درهم[٣]. ولم يذكر المؤرخون سبب الغلاء .

١٧) وفي منتصف سنة ٧٠٧هـ حدث بمكة غلاء شديد فقد بيعت الحنطة بألف وخمسمائة درهم والذرة بأكثر من تسعمائة درهم[٤]، وكان سبب الغلاء أن صاحب اليمن الملك المؤيد قطع الميرة عن مكة لما بينه وبين صاحبي مكة الشريف حميضة والشريف رميثة ابني أبي نمي من خلاف. ولم يزل الحال شديداً إلى أن وصل الركب * الرجبي فنزل السعر. ثم ورد

---

(١) الجزيري : المصدر السابق ، ص ٦٠٨ .
الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢) الغرارة من الغر ، والغرة ومن التغرير والغرة : بياض في الجبهة وفي الصحاح جبهة الفرس . ولكن المقصود هنا مكيال معين كان أهل مكة يتعاملون به . ابن منظور : المصدر السابق ، ص ٩٧٢ .

(٣) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٤) لعل المقصود هو قيمة الغرارة من القمح .

* اعتاد المسلمون ولا يزالون على قصد الحرمين في شهر رجب لأداء العمرة وزيارة المسجد النبوي وكانوا يأتون بشكل ركب كركب الحجاج يسمى بالركب الرجبي .

من اليمن السبلات* بعد منعها فعاش الناس ، وكان وصول الركب الرجبي إلى مكة في رمضان من تلك السنة .

١٨) وفي سنة ٧٢١ هـ اشتد الغلاء بمكة ، فقد بلغ القمح[١] بالإردب المصري مائتين وأربعين درهمًا . أما التمر فانعدم بالكلية ، والأسمان تلاشت حتى قيل أن السمن بلغت منه كل أوقية خمسة دراهم ، واللحم كذلك المنّ بخمسة دراهم[٢].

١٩) وفي سنة ٧٣٠ هـ حدث سيل عظيم ، خرب البساتين وملأ الحرم وأقام فيه يومين واستمر العمل فيه (أي إزالة آثاره) مدة طويلة[٣].

٢٠) وفي سنة ٧٣٨ هـ تدفقت السيول من كل جهة ، ودخل الماء من جميع الأبواب ، وقلع من أبواب الحرم أماكن وطاف بالمنابر كل واحد إلى جهة ، ووصل الماء إلى قناديل المطاف ، وعبر في بعضها من فوقها فأطفأها ، وغرق بعض المجاورات من النساء اللواتي في المساطب . وخرب الماء بيوتًا كثيرة وغرق بعض أهلها بينما مات البعض الآخر تحت الردم[٤].

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٣) المصدرنفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٣٤ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ .

* وهي الأموال التي يتصدق بها ، ولقد ذكر ابن منظور ، أن السبل : السبيل وسبيل الله : طريق الهدى الذي دعا إليه ، وسبيل الله عام يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله (انظر لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٩١ - ٩٢) .

٢١) وفي سنة ٧٤٤ هـ حصل في مكة أيام الحج غلاء عظيم ، بحيث بيعت الويبة[١] من الدقيق بخمسين درهمًا ، والرطل[٢] من البقسماط بثلاثة دراهم ، والإردب من القمح بمئتي درهم ، والحِمل* إلى أربعمائة وخمسين درهمًا ، لمنع السيد عجلان سفن اليمن من الوصول إلى مكة، ولم يصل منها إلا القليل[٣].

٢٢) وفي سنة ٧٤٧ هـ حصل في مكة غلاء أيام موسم الحج وابتيعت الغرارة من الذرة بمائة وأربعين درهمًا والحنطة بمائة وسبعين درهمًا والتمر بثلاثة دراهم المنّ ، والملح بدرهم** كاملي[٤].

٢٣) وكذلك وقع الغلاء في سنة ٧٤٨ هـ في الموسم[٥].

٢٤) وفي سنة ٧٤٩ هـ ، وسنة ٧٥٩ هـ وقع وباء بمكة[٦].

٢٥) وفي سنة ٧٦٠ هـ كان الغلاء منتشراً وتفرق الناس في سائر الأقطار لأجل الغلاء وجور الحكام كما يقول الفاسي[٧].

---

(١) هي مكيال سبق التعريف به .

(٢) الرطل هو الذي يوزن به ويكال رواه ابن السكيت بكسر الراء ، وقال ابن الأعرابي الرطل : اثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب ، والأوقية أربعون درهمًا .
ابن منظور : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ١١٨ .

(٣) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى (مخطوطة) ، ص ٢٩٣ . لم يذكر المؤرخون سبب الغلاء .

(٥) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ . لم يذكر المؤرخون سبب الغلاء .

(٦) الموضع نفسه . لم يذكر المؤرخون سبب الغلاء .

(٧) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

* المقصود بالحمل هو حمل الدابة من القمح (انظر عن معاني الكلمة : ابن منظور ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢١ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ .

** هو الدرهم المنسوب إلى الملك الأيوبي الكامل (٦١٥ - ٦٣٥هـ) .

٢٦) وفي سنة ٧٧٤ هـ كان الغلاء شديداً بمكة ، فقد بيعت الغرارة للقمح وهي مئة قدح مصري بأربعمائة وثمانين درهمًا ، وصعب وجود الأقوات بها ، فهلك جماعة كثيرة من الجوع فأرسل الأمير يلبغا الأتابك* إلى مكة ألفي إردب قمحًا ، وواصل الإرسال إليها حتى حمل من مصر إليها اثني عشر ألف إردب ، فُرقت على الناس(١).

٢٧) وفي سنة ٧٨٣ هـ غلت الأسعار في مكة ، فلما قدمت الرجبية بيعت الويبة من الدقيق بعشرين درهمًا ، والويبة من الشعير من ثلاثين إلى عشرين درهمًا . فلما قدم الحجاج في الموسم ارتفعت الأسعار وبلغت الويبة من الدقيق خمسين درهمًا والويبة من الشعير أربعين درهمًا ، وحصل بالحرمين وغيرهما من بلاد الحجاز في آخر هذه السنة قحط عظيم ، ومات كثير من الأشراف وغيرهم جوعًا وأكلت الجلود(٢).

٢٨) وفي سنة ٧٩٣ هـ حدث غلاء شديد فقد بيعت فيها الحنطة بخمسمائة درهم كاملية وأربعين درهمًا (أي الغرارة) ، وأكل الناس سائر الحبوب واختبزوها ، ثم فرج الله على الناس بصدقة قمح أنفذها الملك الظاهر برقوق (٧٨٤ هـ - ٨٠١ هـ) . وحصل أيضًا في هذه السنة بمكة وباء بلغ الموتى فيه في بعض الأيام أربعين شخصًا .

٢٩) وفي سنة ٧٩٧ هـ حدث غلاء في مكة بعد الحج ، وقد بلغت فيه الغرارة من الحنطة ثلاثمائة درهم وثلاثين درهمًا(٣).

ولا شك أن للقحط والأزمات الاقتصادية تأثيراً على الأحوال

---

(١) الجزيري : المصدر السابق ، ص ٦٦٦ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى (مخطوط) ص ٣٠٥ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

* هو يلبغا الناصري نسبة للسلطان المملوكي الناصر الذي قدمه وولاه الحجوبية الكبرى ثم جعله نائبًا عنه في القاهرة أثناء غيابه ، وكان دينًا متواضعًا يحب الخير والمعروف (انظر : السخاوي ، ج١٠، ص ٢٩٠ - ٢٩١) .

الاجتماعية إذ جرت العادة أن يجتمع الناس ويتشاورون فيما يدفع عنهم تلك المصائب ، ويحاولون أن يجدوا منها مخرجًا وكثيراً ما يفزعون إلى الله بصلاة الاستسقاء ، من ذلك ما حدث في سنة ٧٦٦هـ عندما وقع غلاء عظيم حصل للناس منه مشقة ، بحيث أكل الناس الميتة فلقد وجد بمكة حمار ميت وفيه أثر السكاكين ، وأصيبت المواشي بالجرب، وتعرف هذه السنة بسنة أم الجرب . وقد استسقى الناس بالمسجد الحرام فلم يسقوا ، وأحضرت المواشي إلى المسجد للاستسقاء وأدخلت فيه ووقفت فيه جهة باب العمرة إلى مقام المالكية . ثم فرّج الله هذه الشدّة ، فقد أرسل يلبغا الخاصكي أحد رجال دولة المماليك بمصر القمح ، فرقه على المجاورين بمكة ، كما أرسل بعض خواصه لعمارة المسجد الحرام ، وأرسل كذلك ألف إردب قمحًا فرقت على الناس في مكة(١).

ولقد كان المكيون في مثل تلك الظروف يعزون ما حل بهم إلى غضب الله عليهم ، بسبب معاصيهم ، فيسرعون إلى الحرم الشريف ويخرجون بالمصاحف ويفتحون باب الكعبة ، ويجتمع الناس كاشفين رؤوسهم داعين متوسلين بالمصحف الشريف وبالمقام ، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته .

أما بالنسبة للسلاطين فإنهم يحاولون تلافي ما يقع بمعالجة أسبابه كتوفير الغذاء وتعمير الخراب ، وإزالة أسباب الوباء بالحفاظ على

---

(١) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، القاهرة ، ج ٣ ، القسم الثاني (٧٨٣ هـ - ٨٠١ هـ) ، ص ٩٧ .

نظافة مكة بإصدار الأوامر في هذا الشأن ، علاوة على جلب المياه إلى مكة لتتوفر للناس وسائل النظافة . وقد أصدر السلاطين بالفعل عدة مراسيم حول نظافة البيت الحرام[1].

ج - أحوال الطرق :

لا شك أن للطرق علاقة وثيقة بالعوامل الاقتصادية ، إذ يتوقف على حالة تلك الطرق ورود الميرة ووصول الحجاج ، لذلك وجب علينا أن نتناول أحوال الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة ، إذ تعتمد مكة في حياتها على الحجاج بالدرجة الأولى ، ثم على الميرة التي تأتيها من الخارج . وكذلك فإن أمن الطرق يعد من أهم العوامل في استقرار الحياة فيها أو تذبذبها بين الرخاء والشدة ، ولهذا السبب صار من الضروري إلقاء نظرة على أحوال تلك الطرق وإيراد بعض الأمثلة مما كان يقع فيها :

فقد حدث في سنة ٧٨٩ هـ أن جماعة من السرو وصلوا بقافلة شعير وغيره ، وقطع الشريف عنان عليهم الطريق ومنعهم من الوصول إلى مكة ، حتى يدفعوا إليه نصف ما معهم ، ولكنهم عرضوا عليه أن يدفعوا له ربع ما معهم فرفض . ثم عرضوا عليه الثلث فرفض ، فتحايلوا عليه إلى أن صاروا وما معهم في مكان حصين بين تلك الجبال ، فحاربوه ومن معه . ولما وصل الخبر إلى مكة أرسل الأمير قرقماش أمير المحمل المصري جماعة من الترك مع الشريف على ابن عجلان ، ومعهم الطبول إلى الجهة التي بها السرو والشريف عنان ، ولما وصلوا إلى ذلك المكان دقوا الطبول بين تلك الجبال فصار لها دوي عظيم ، فلما سمع الشريف عنان ذلك هرب هو وأصحابه وخلص السرو ومن معهم من الشدة

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

التي حصلت لهم ، ودخلوا مكة بصحبة الترك والشريف علي ، وباعوا ما معهم، ورخصت الأسعار إلى أن بيع كل ويبة من الشعير بعشرة دراهم[١].

وفي سنة ٧٥٧ هـ نهب السيد ثقبة قافلة الفقيه البركاتي وأخذ ما مع القافلة من البضائع والقماش وكان مالاً كثيراً[٢].

هذه مجرد أمثلة لما يمكن أن يقع في الطرق ويؤدي إلى انقطاع الميرة .

أما أسباب قيام بعض الأشراف بمثل تلك الأعمال ، فراجعة في أغلبها إلى خلافات عائلية حول تولي إمرة مكة ، واعتقاد البعض أنهم أحق بها ممن تولاها فعلاً ، وقد أدت تلك الخلافات إلى انفراط حبل الأمن ووقوع اصطدامات مسلحة بين أبناء البطون الهاشمية ، مما هو مبسوط في كتب التاريخ .

وكان أمراء الحج وسلاطين المماليك كثيراً ما يتدخلون لحسم الموقف . وعلاوة على ما ذكرنا هناك الخلاف بين أمراء الحج وأشراف مكة ، وعزل بعض الأشراف وقيام أمراء الحج بتنفيذ أمر العزل ، كانت هذه وأمثالها من أسباب اضطراب الأمن ، ذلك الاضطراب الذي تنعكس آثاره في الحياة الاجتماعية إلا أنه لاداعي للتوسع في ذلك إذ هو خارج عن نطاق الدراسة، ومكانه الصحيح يقع ضمن الدراسات المتعلقة بالتاريخ السياسي .

وكنت أتمنى أن تتاح لي الفرصة للحديث عن موقف القبائل التي تقع منازلها على طريق الحج ، لما لتلك المواقف من تأثير على الأوضاع في مكة ولاسيما بالنسبة لتوارد الميرة إلا أن ذلك يطول حديثه ويخرج عن خطة هذه الدراسة، ولعل موضعه في الدراسات المتعلقة بالأحوال السياسية والاقتصادية .

---

(١) ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم : تاريخ ابن الفرات ، بيروت (١٩٣٦ م) ، المجلد التاسع ، ج ١ ، ص ٢١ – ٢٢ .

(٢) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥٦ – ٦٥٧ .

الفصل الثاني

أهمية الحج في الحياة الاجتماعية

لقد كان للحج دائمًا أهمية كبيرة في حياة مكة سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية ، بدءًا بالجاهلية وانتهاءً بمختلف العصور الإسلامية ، أما في فترة دراستنا ، فالملاحظ أن هناك ثلاثة مصادر أساسية للدخل ترتبط جميعها بالحج وتعتمد عليها الحياة الاقتصادية في مكة ، ولا يخفى ما للحياة الاقتصادية من أثر كبير على الحياة الاجتماعية وهذه المصادر[1] هي :

١ - الضرائب والرسوم التي تجبى من الحجاج والتجار وما ينفقه الحجاج في مواسم الحج .

٢ - التجارة وخاصة ما ينفق منها في مواسم الحج والعمرة .

٣ - الهبات والصدقات .

١) الضرائب والرسوم ونفقات الحجاج :

لقد لجأ أمراء مكة إلى فرض الضرائب والرسوم على الحجاج والتجار منذ أن استقلت مكة عن الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين في مصر ، وكان المكس يؤخذ من الحجاج بعيذاب ، ومن لم تجب منه في عيذاب جبيت منه في جدة ومقدارها سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان .

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

أما من لم يؤد المكس يعذب بأنواع شتى من العذاب[1] ويبدو أن المكس التي تجبى في عيذاب هي لصالح أمير مكة والدليل على ذلك أن من لم يدفعها في عيذاب جبيت منه في جدة وفقًا لما ذكره ابن جبير . فأسقط ذلك السلطان صلاح الدين وعوض أمير مكة ثمانية آلاف أردب قمحًا تحمل سنويًا إلى ساحل جدة ووقف على ذلك أوقافًا بصعيد مصر، وأرسل الأقوات للمجاورين والفقراء بالحرمين[2]. وهذا دليل آخر على أن شريف مكة هو الذي ينفرد بتحصيل المكس لوحده . ولقد ذكر ابن جبير أن من محاسن صلاح الدين " إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين[3] ودفع عن الضرائب ما يقوم مقامها من أطعمة وسواها "[4].

وقد ذكر ابن المجاور أن صلاح الدين قال لمكثر " خذ هذا القدر واترك عن المغاربة الزكاة "[5]. ولقد ورد هنا ذكر المغاربة بالذات دون غيرهم وليس هناك سبب واضح لإفرادهم بالذكر .

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٣٠ .
الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٢) أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي : الروضتين في أخبار الدولتين ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٣ .
الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .
ابن فهد ، عمر : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت . الطبعة الأولى، مكة (١٤٠٤ هـ/١٩٨٣م) ، ج ٢ ، ص ٥٣٩ .

(٣) المقصود بدولة العبيديين هي الدولة الفاطمية نسبة إلى مؤسسها عبيدالله المهدي ، كما هو معروف (انظر معجم الأسر الإسلامية الحاكمة لزامباور) .

(٤) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٥) ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي ، صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة تاريخ المستبصر صححها وضبطها أوسكر لوفقرين ، مطبعة بريل ، ليدن (١٩٥١م) ج ١ ، ص ٤٩ .

على أن إسقاط المكس لم يستمر طويلاً ، إذ أهمل خلفاء صلاح الدين إرسال ما التزم به صلاح الدين إلى البيت الحرام ، فعاد الشريف يأخذ المكوس من الحجاج والتجار ، إلى أن كانت سنة ٦٦٧ هـ عندما أمر السلطان الظاهر بيبرس بعدم أخذ المكس في مكة ، ولا يمنع أحد من زيارة البيت الحرام ، ولا يتعرض لتاجر ولا حاج بظلم[١]. وفي سنة ٧٢٢ هـ أسقط الناصر محمد بن قلاوون المكس المتعلق بالمأكولات فقط ، وعوض أميرها عطيفة بن أبي نمي بثلثي قرية (دماميل[٢]) بصعيد مصر[٣]، ومنذ ذلك الحين صار المكس على التجارة مقرراً.

ولقد ذكر التجيبي الذي زار مكة في أواخر القرن السابع الهجري في عهد حفيد قتادة الشريف أبي نمي الحسني ، في كتابه " مستفاد الرحلة والاغتراب " الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج في ذلك الوقت ، فذكر أن في جدة عامل الشريف نجم الدين أبي نمي الحسني أمير مكة ، يستلم له مكوسها وضرائبها التي تؤخذ من الحجاج ، أخذ من غرائر الطعام نحو ربع كل غرارة * وألزم من كان له متاع أن يؤدي ضريبة أخرى على المتاع ، وضريبة أخرى على الجمال التي يستأجرها الحجاج لركوبهم ، وحمل متاعهم وزادهم ، ويرفع جميع ذلك للشريف أبي نمي[٤].

---

(١) العقد ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) دماميل : قرية كبيرة بصعيد مصر ، شرق النيل على شاطئه فوق قوص ، وعليها بساتين ونخل كثير.

ياقوت ، معجم البلدان ، دار صادر بيروت (بدون تاريخ) ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٤) التجيبي : المصدر السابق ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

* والظاهر أن ما كان يجبى هو ربع غرارة عن كل واحدة ، أي ٢٥٪ وفقًا لما ذكره التجيبي .

أما بالنسبة لما ينفقه الحجاج في مواسم الحج ، فإن عشرات الألوف من الحجاج يزورون مكة فيقيمون بها حوالي شهر من الزمن . وإذا انتهى موسم الحج ظلوا فيها حوالي عشرة أيام ينتظرون إذن أمير مكة لهم بالرحيل ، فلا يأذن لهم إلا بعد انقضاء هذه المدة لينفق الحجاج ما معهم ، ويشترون ما يريدون من أسواق مكة ، وإذا كان الحجاج ينفقون ما معهم ويشترون من أسواقها ، فإنهم أيضًا يحتاجون إلى مطوف وإلى مأكل ومسكن وغير ذلك ، وكل هذه يوفرها لهم سكان البيت الحرام بمقابل مادي[1] .

٢) التجارة :

أما بالنسبة للتجارة فتعد المصدر الثاني من مصادر الدخل لأهل مكة وموردًا أساسيًا في حياتهم الاقتصادية ، وقد تحدث ابن جبير في رحلته عما شاهده في مكة من حركة تجارية ونشاط اقتصادي مزدهر . فذكر أن مكة هي أكثر البلاد نعمًا وفواكه ومرافق ومتاجر ، ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه الكفاية ، إذ يقع في الموسم مجتمع أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد من مختلف البضائع والأغذية والألبسة ما لا يباع في غيرها على مدى أشهر وفضلاً عن ذلك هناك الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت ، وسائر الأحجار ، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعقود والعقاقير الهندية ، إلى غير ذلك من بضائع الهند والحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية ، كل ذلك يباع في ثمانية أيام بعد الموسم[2] .

ولا شك أن أهل مكة يجنون من وراء هذه التجارة أرباحًا طائلة تكفيهم لسد نفقات معيشتهم خلال السنة، حتى يحين الموسم الثاني .

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٩٦ - ٩٧ .

٣) الهبات والصدقات :

أما المصدر الثالث من مصادر الدخل بالنسبة لأهالي مكة وأمرائها ، فهو الهبات والصدقات التي تحمل إلى مكة بمناسبة موسم الحج في كل عام ، سواء من الخلفاء أو ملوك العالم الإسلامي وما يتصدق به الأغنياء ، وريع أوقاف الحرمين ، وما إلى ذلك مما سوف نتحدث عنه بالتفصيل في الفصل الثاني من هذا الباب - إن شاء الله - . ومما سبق نستنتج أن الحج كان عاملاً مهمًا في إنعاش الحياة الاقتصادية بمكة ، بل هو المحور الذي تدور حوله اقتصاديات البلد الحرام ، فقد روى ابن المجاور[1]أن أهل مكة يقولون " حاج العراق أبونا نكسب منه الذهب والسرو أمنا نكسب منهم القوت " ولا شك أن الانتعاش الاقتصادي الناتج عن الحج له آثار بعيدة في الحياة الاجتماعية . ومن الحجات التي اشتهر أمرها في التاريخ حجة ملك التكرور الأفريقي منسا موسى الذي حج سنة ٧٢٤ هـ ، وقد حمل معه مئة حمل جمل من الذهب فوزعه خلال حجته تلك ، سواء أثناء الطريق أو في البلاد المقدسة ، حتى اضطر في طريق عودته إلى الاستدانة من تجار مصر ، ولا بد أن بعض هذا الذهب قد أنفقه ذلك الملك الأفريقي في الحرمين ولا سيما في مكة المكرمة ، وانتفع به أهلها . وقد أفاض المؤرخون في ذكر هذه الحجة[2].

---

(١) ابن المجاور : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢) المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، حققه وعلق حواشيه د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ، (١٩٥٥م) ، ص ١١١ حتى ١١٣ .

ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، مخطوطة ، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٥٩ معارف ، ج ١١ ، ورقة ٣ .

إلا أن تأثير الحج على حياة مكة لم يقتصر على الجوانب الاقتصادية التي تؤثر بدورها ولا شك في الحياة الاجتماعية ، وإنما يتيح الحج لأهل مكة أن يطلعوا على أحوال الشعوب التي يأتي أبناؤها لأداء الفريضة ، فيرونهم في ملبسهم ومأكلهم ، وفي عاداتهم وتقاليدهم ، خصوصًا وأنهم يقيمون مدة شهر تقريبًا ، فيعايشونهم ليل نهار ويتباسطون معهم في الحديث والسمر ، ويشهدون عن كثب ما يمارسه هؤلاء الحجاج من نشاط . وليس بوسع أهل مكة إلا أن يتأثروا بما يرون ، ولا يزال المجتمع المكي في عصرنا الحاضر يعكس آثار ذلك بشكل ملحوظ . ولذا فإنه من المؤكد أن الحج قد فعل فعله بالنسبة لأوضاع مكة الاجتماعية خلال الفترة التي تغطيها هذه الدراسة ، غير أننا لانستطيع أن نحدد بالذات ما هي الأمور التي أثرت في أهل مكة ، وكان الحج وسيلتها . لأن المصادر التاريخية لم تعر هذه الناحية أي اهتمام ، وأن ما قلناه ما هو إلا مجرّد استنتاج ، اللهم ما كان من تأثير الحج في الأوضاع الاقتصادية الأمر الذي لحظه المؤرخون والرحالون ، وسيأتي الكلام عنه في موضعه بإذن الله .

ولا شك أن هناك حرفًا كثيرة مرتبطة بالحج كالطوافة والسقاية وما إلى ذلك، إلا أن المصادر التي رجعت إليها لم تورد أية معلومات عن تلك الحرف . كما أن المصادر لم توضح مدى تأثير الصدقات والهبات التي كانت ترد إلى مكة على تكوين شخصية الفرد المكي . ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن تلك الصدقات لا بد وأنها أثرت في شخصية فئة غير قليلة من المكيين فجعلتهم يعتمدون على الصدقات في حياتهم فتكاسلوا عن الكسب وامتهان الحرف ، هذا مجرد تخمين وليس لديّ في المصادر ما يدعّمه .

الفصل الثالث

الصدقات وأوقاف الحرمين وأثرها في إنعاش الأحوال الاجتماعية بمكة

حرص المسلمون حكامًا وأفراداً على تقديم الأموال لأهل الحرمين الشريفين ، منذ صدر الإسلام حتى القرون الأخيرة ، فكانت ترد إلى مكة المكرمة في زمن الحج حصيلة الأوقاف التي وقفها المسلمون على أهل الحرمين . كما أن الموسرين من الحجاج كانوا يوزعون أثناء حجهم الأموال الوفيرة على الفقراء والمجاورين ، ولا سيما في مكة المكرمة وأخبار هذه الصدقات تزخر بها الكتب . ولذا فليس هناك من داع إلى الإفاضة فيها . وسوف أكتفي هنا باقتباسات قليلة على سبيل المثال ، من ذلك ما ذكره ابن المستوفي نقلاً عن أحد المجاورين المعاصرين (وهو من أهل القرن السابع الهجري) من أن شريفًا من الهند وصل الحجاز ومعه مركب موسق بالفضة ، فتصدق بها على أهل مكة ، وما إلى ذلك مما ذكرنا في موضع آخر[1]، بل إن ذلك الشريف استخدم المجاور المشار إليه ليكون كاتبًا له وسفيراً بعثه إلى الخليفة فحسنت حاله ، ولا بد أن هذا الشريف احتاج أثناء إقامته - التي أرجح أنها طالت في مكة - إلى استخدام آخرين وبذلك أتاح فرصة العمل لعدد من العاملين ، مما لا تخفى آثاره في الحياة الاجتماعية . هذا مجرد نموذج لما كان يقع في مكة المكرمة .

وهناك أيضًا الأموال التي كان يبعثها مظفر الدين كوكبوري[2]ملك إربل كل عام صحبة عمر بن إبراهيم الخلكاني[3]المتوفى سنة ٦٠٩ هـ ، إلى مكة المكرمة

---

(١) ابن المستوفي : تاريخ إربل ، القسم الأول ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) حكم كوكبوري بين سنة ٥٨٦هـ و ٦٣٠ هـ (انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣، ص٢٧٠) .

(٣) هو عم المؤرخ ابن خلكان ، وكان يدرس في بعض مدارس إربل ، كان كوكبوري يوفده إلى مكة =

ليتصدق بها هناك وينفق منها على أبواب البر ، ومنها قنوات الماء في عرفات، وقد أيد هذه الأخبار المؤرخ ابن خلكان وسبط بن الجوزي ، إلا أنه (أي مظفر الدين) كان يشرك مع عمر المذكور العلماء في توزيع المال على المحتاجين وأرباب الرواتب[1]. بل كان مظفر الدين يصل بعض العلماء بصلات سنية ولو لم يأتوا إلى إربل ، ومن ذلك صلته إلى الخضر بن محمد الإربلي الزاهد نزيل مكة المتوفى سنة ٦٠٨ هـ بمكة ، فقد كانت صلته تصله وهو فيها ، وكان الخضر هذا يشارك في توزيع الصدقات التي يرسلها الملك المذكور لتوزع بمكة[2]، ولا بد أن هذه الأموال وغيرها كانت عند توزيعها تنعش من أحوال الفقراء ، وتساعدهم على اقتناء ما هم بحاجة إليه من غذاء وكساء ، الأمر الذي يترك أثره في الأسواق ، وبالتالي يؤدي إلى رفع مستوى المعيشة بين الناس . وقد كان بين المجاورين من ينفق الأموال على الضعفاء والمساكين ويحملها إلى بيوتهم بنفسه[3].

وبعد هذه اللمحة السريعة العامة نتناول بشيء من التفصيل فقرات هذا الفصل :

أولاً : الصدقات والمساعدات :

إن الصدقات يمكن أن نعدها من العوامل الاقتصادية باعتبارها أنها تُقوَّم بالمال ، إلا أنها بحسب دوافعها لا يستحسن إدراجها ضمن تلك العوامل إذ هي

= لتوزيع الصدقات ، وفيها حدث وسمع الحديث (انظر : ابن المستوفي : تاريخ إربل ، ج ١، ص ٢٨٣ ، والفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ .

(١) ابن المستوفى : المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٦٨٣ .

(٢) ابن المستوفي : المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ١٨٦ .
ابن الفوطي : معجم الألقاب ، القسم الثالث ، ص ١٦٧ .
الفاسي : العقد الثمين ، ج ٤ ، ص ٣١٧ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٣ -

عمل ديني يبتغى منه وجه الله سبحانه وتعالى . ولكنها بصرف النظر عن تلك الدوافع فهي تؤثر على أوضاع أهل مكة المعيشية ، ولقد اعتاد بعض الحكام على تخصيص بعض الأموال - كما أسلفنا - لتوزيعها بين أهل الحرمين وهي من الصدقات التي كانت تسد بعض احتياجاتهم . ولذا فإن ورودها أو انقطاعها كان له تأثير غير قليل على أحوال سكان المدينة المقدسة ولهذا السبب أصبح من الواجب تناولها في هذه الدراسة ، ولقد سبق أن أشرنا إلى المساعدات المادية التي كان قد أرسلها بعض الأمراء لمكافحة المجاعة من أمثال الأمير يلبغا ، إلا أننا لا ندري عمّا إذا كانت قد أرسلت على سبيل الصدقة أم أنها من بيت المال ، ومهما يكن الحال فإن مكة المكرمة كانت تتلقى في كثير من الأحيان الصدقات التي تردها من الحكام المسلمين ، فتتقوى بها في سد حاجات أهلها ، وقد أشرنا إلى المساعدات التي كان يرسلها مظفر الدين كوكبوري مع عمر بن إبراهيم الخلكاني إلى مكة ليتصدق بها ، وينفق بعضها على قنوات الماء لسقاية الحجاج ، وقد ذكرنا أن هذا الملك العراقي كان يخص أهل الحرمين ببره في كل عام[1]. وفيما يأتي بعض الأمثلة للصدقات التي تذكرها كتب التاريخ . وإننا نذكرها هنا كنماذج لما كان يرد إلى مكة من أموال :

١ - حج الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي في عام ٦١١هـ، وتصدق في الحرمين بمال عظيم وحمل المنقطعين وزودهم وأحسن إليهم وجدد البرك[2].

٢ - وفي سنة ٦٣٥ هـ قدم الملك المنصور نور الدين (ملك اليمن ، إلى

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

مكة معتمراً وتصدق بأموال كثيرة في محاولة لكسب الأشراف والمجاورين وعامة أهل مكة[١].

٣ - وفي سنة ٦٤١ هـ أرسل الخليفة المستعصم الحاج ، وعين عليهم أميراً فكسا الكعبة ، ونشر عليها الذهب والفضة ، وتصدق بصدقات طائلة . وفي تلك السنة حجت أم الخليفة ومعها الدويدار مقدم الحاج، وكانت سنة عظيمة ، كثيرة الخير والأرزاق . كما أن الأمير فخر الدين الشلاح الذي أمَّره الخليفة بخدمة والدته والحجاج أقام سبع سنين في مكة ، وقد كسب خلالها أهل مكة الخير فكسبوا الأموال وبنوا الدور ، وحلوا الحريم بالذهب والفضة ، وكانت أيامهم في هذه السنين مواسم وأعياداً بسبب هذه الصدقات المتواصلة التي كانت تصل على يد الأمير شمس الدين علي بن خليجان[٢].

٤ - وفي سنة ٦٥٩ هـ حج الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن ، وتصدق بصدقة عمت الناس، وغسل الكعبة بنفسه ونثر عليها الذهب والفضة . وكسا البيت وأقام ما يطلب من مصالح الحرم وأهله ، وهو أول من كسا البيت بعد الخلفاء العباسيين وقام بمصالح الحرم[٣] .

٥ - وفي سنة ٦٦٥ هـ حج من مصر الأمير الحلي من قبل الظاهر بيبرس وتصدق على أهل مكة وكان بمكة غلاء[٤].

---

(١) المقريزي ، تقي الدين بن أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٢) اليامي الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ . الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٨٨ - ٤٨٩ .
ابن فهد : إتحاف الورى ، ج٣، ص ٧٠ .
العصامي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ .

(٤) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٦٠١ .

٦ - وفي سنة ٦٧٦ هـ حج السلطان الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر والشام في ثلاثمائة مملوك وجماعة من أعيان الخليفة ، وتصدق في الحرمين بمال عظيم[١].

٧ - في سنة ٦٩٢ هـ أعطى أمير الحاج المصري ططخ إلى الشريف أبي نمي أمير مكة ألف دينار عينًا[٢] ويظهر أنه أراد منه أن يساعد بها من يحتاج .

٨ - وقد ورد في أخبار سنة ٦٧٥ هـ أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري كانت له صدقات كثيرة - إذ أرسل في كل سنة إلى مكة عشرة آلاف إردب قمحًا للفقراء والمساكين ، وأرباب الزوايا ، وقد أجرى على أهل الحرمين وطريق الحجاز ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك ، وله أنواع من المعروف وأوقاف البر[٣].

٩ - وفي سنة ٦٩٤ هـ حج الملك المجاهد أنس ابن السلطان الملك كتبغا المنصوري صاحب الديار المصرية والشامية ، وحج في خدمته جماعة من الأمراء وحصل لأهل الحرمين منه خير كثير ، وحمدت سيرته وبذل المال لصاحب مكة وأتباعه ، وقد نال صاحب مكة منه نحو سبعين ألف درهم ، وفي هذه السنة حجت عمة صاحب ماردين مع الركب الشامي ، وكان لها محمل كبير وسبيل كثير وتصدقت بمال كثير ، وانتفع بها الحجاج وأهل الحرمين وأمراء مكة والمدينة[٤].

---

(١) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

(٢) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٦١١ .

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

١٠- وفي سنة ٦٩٧ هـ حج بالناس من مصر الخليفة الحاكم بأمر الله العباسي[١]، وحج مع عياله ، وأمير العرب مهنا بن عيسى بن مهنا. وشكرت سيرته ، فإنه تصدق بشيء كثير وأطعم العيش للناس كافة وساعد المنقطعين ، وقد تصدق الأمير حسام الدين مهنا بأشياء كثيرة ، وحمل المنقطعين وأطعم الناس وأحسن إلى أهل مكة والمدينة والمجاورين بهما[٢].

١١- وفي سنة ٧٠٠ هـ حج الأمير بكتمر (الجوكندار) أميراً على الحاج المصري وأنعم على أمير مكة الشريف محمد أبي نمي وعلى أولاده بمال كثير ووزع صدقات كبيرة على أشراف مكة والمجاورين بها[٣]. ولقد أنفق في هذه الحجة خمسة وثمانين ألف دينار[٤].

١٢- وفي سنة ٧٠٣ هـ حج من مصر نائب السلطنة الأمير سيف الدين سلار ، وحج معه خمسة وعشرون أميراً ، وتصدق سلار بصدقات كثيرة انتفع بها أهل الحاجات والمجاورون بمكة وأهلها الأشراف[٥].

١٣- وفي سنة ٧١٦ هـ حج الأمير سيف الدين أرغون الدوادار الناصري نائب السلطان بالقاهرة ، وتصدق بصدقات كثيرة بمكة والمدينة[٦].

١٤- في سنة ٧١٩ هـ حج الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وحج معه عدد من الأمراء ورجال الدولة والأعيان ، وقد تصدق على أهل الحرمين وأحسن وعمل معروفًا كثيراً ، وغسل الكعبة بيده وأفاض

---

(١) وهذا بعد انتقال الخلافة العباسية إلى مصر .
(٢) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦١٣ .
(٣) ابن حجر العسقلاني : الدرر ، ج ١ ، ص ٤٨٥ .
(٤) الجزيري : الدرر ، ج ١ ، ص ٦١٤ .
(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .
الخزرجي ، علي بن الحسن : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، ج ١ ، ص ٣٤٩ .
(٦) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

التشاريف على أمراء مكة وأرباب وظائفها[1]، ثم حج هذا السلطان مرة أخرى في سنة ٧٣٢ هـ ومعه نحو سبعين أميراً وجماعة من أعيان الفقهاء وغيرهم ، وتصدق على أهل الحرم والمجاورين والفقهاء[2].

١٥- وفي سنة ٧٣٩ هـ حج الأمير يشبك الناصري ، وتصدق على الحجاج والمشاة من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر ، بالماء والكعك وفعل خيراً كثيراً[3].

١٦- وفي سنة ٧٤٢ هـ حج صاحب اليمن الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن المظفر ، وعم بصدقته أهل مكة[4].

١٧- وفي سنة ٧٥٧ هـ حج العراقيون في غاية الكثرة وحج بعض العجم ، وتصدقوا بذهب كثير على أهل الحرمين[5].

١٨ - وفي سنة ٧٨٧هـ أرسل الأمير جركس الخليلي إلى مكه خمسمائة إردب قمحًا وأمر أن يعمل منها في كل يوم ألف رغيف ، خمسمائة بالمدينة تفرق على الفقراء والضعفاء والمحاويج [6] .

وعلاوة على ما تقدم فإن السلطان برقوق سلطان المماليك كان كثير الصدقات والمعروف ، فكان يبعث في كل سنة إلى بلاد الحجاز ثلاثة آلاف إردب قمحًا ، تفرق في الحرمين ، وتفرق في مدة الغلاء كل يوم أربعون إردبًا ، يصنع منها ثمانية آلاف رغيف خبز ، فلم يمت أحد من الجوع ، وكان يبعث بالذهب حيث يفرق على الفقهاء ، فقد تصدق مرة بخمسين ألف دينار مصري[7]. ولا شك أن الصدقات التي كان سلاطين المماليك في مصر

---

(١) الفاسي ، العقد ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .
المصدر نفسه : ج ٣ ، ص ٢٤٦ .
(٢) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٣٨ .
(٣) الجزيري : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٤٣ .
(٤) الفاسي : شفاء ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .
(٥) الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٥٦ - ٦٥٧ .
(٦) الصيرفي ، علي بن داود ، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، تحقيق الدكتور/ حسن حبشي ، (مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠م ، ج١ ص ١٢٢ .
(٧) ابن تغري بردى جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

يرسلونها لسكان الحرمين ، جعلت هؤلاء يخلصون لهم الود ويدعون لهم بالنصر والتوفيق ، كما أن تلك المساعدات كانت من ناحية أخرى تساعد سلاطين المماليك على تثبيت نفوذهم بالحرمين والظهور في مظهر الورع والتقوى أمام العالم الإسلامي[١].

ثانيًا : أوقاف الحرمين :

مثلما كان المسلمون يخصصون الصدقات لأهل الحرمين ، كانوا يحبسون الأوقاف للاستفادة من ريعها في تأمين الدعم المادي لسكان مكة والمدينة ، فقد كان ينفق منها على مصالح المسجد الحرام نفسه ، علاوة على المؤسسات الدينية والخيرية وخاصة المدارس والأربطة التي أنشئت بمكة في عهد المماليك ، وكان جزء من ريع بعض الأوقاف يصرف على أشراف البلد الحرام وفقرائه والمجاورين به[٢]. وقد وجدت مثل هذه الأوقاف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت تحمل حصيلتها إلى الحجاز في كل عام لتتصرف في وجوهها . وقد كان لهذه الأوقاف تأثير غير قليل على أحوال أهل الحرمين المعيشية وسنقصر حديثنا هنا على ذكر ما كان من أوقاف في العصر المملوكي حيث حبست مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية والمباني كالدور والقصور والمدارس ومكاتب الأيتام والخوانق والربط ، والوكالات والفنادق والخانات والسبل والحمامات[٣].

ومن الملاحظ أن سبب كثرة الأوقاف على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة وعلى فقرائهما في العصر المملوكي ، يرجع إلى حرص السلاطين المماليك على القيام بكل ما يؤكد زعامتهم للعالم الإسلامي ، وبسط سيادتهم على الحجاز ، والقيام بخدمة الحرمين الشريفين وحمايتهما[٤]، فلما قام السلطان الظاهر

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .
(٢) عبداللطيف، إبراهيم : وثائق الوقف على الأماكن المقدسة ، في " دراسات تاريخ الجزيرة العربية " مطبوعات جامعة الرياض (١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م ، ج٢ ، ص ٢٥٣ .
(٣) أمين ، محمد محمد : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) القاهرة ، (١٩٨٠م) ، ص ١٠١ .
(٤) المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .

بيبرس بتوثيق نفوذه بمكة في سنة ٦٦٧ هـ ، سلم ريع أوقاف الحرم المكي بمصر والشام إلى نواب أمير مكة[١]. وعلاوة على ذلك فقد اهتم الخلفاء والملوك بكسوة الكعبة المشرفة وأوقفوا الأوقاف عليها . ولقد أسهمت الأوقاف المختلفة بريعها في مساعدة العاجزين على أداء فريضة الحج ، فقد اشترط كثير من الواقفين أن يصرف ريع أوقافهم أو جزء منه في مساعدة هؤلاء الناس غير القادرين على الحج[٢]، ودليلنا على ذلك أنه في سنة ٧٩٢ هـ أوقف السلطان برقوق ناحية بهتيت[٣] على سحابة[٤]تسير مع الحج إلى مكة في كل سنة ، ومعها جمال حمل المشاة من الحاج وتصرف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهابًا وإيابًا[٥].

ويرجح أن ما يتحصل من هذه الأوقاف جميعها كان يصرف في الحرمين لاسيما في مكة المكرمة ، فيسد عوز المحتاجين ويدعم موارد أهلها مما يؤدي في النتيجة إلى إنعاش الأحوال الاجتماعية في المدينة المقدسة ، ولقد أورد لنا الفاسي وغيره من المؤرخين ذكر عدد ممن لهم اهتمام بالأوقاف بمكة مثل :

١- إسماعيل بن محمد بن قلاوون الصالحي المتوفى سنة ٧٤٦ هـ ، صاحب مصر وغيرها من البلاد الشامية ، والحجازية ، فقد أوقف

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٩ .
أمين ، محمد محمد : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) أمين ، محمد محمد : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٣) بهتيت ، أصلها من المدن المصرية القديمة وهي الآن قرية من ضواحي القاهرة في شمالها على بعد سبعة كيلومترات .
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٠٨ .

(٤) المقصود بالسحابة هنا طائفة ممن يرافقون الحاج للمحافظة عليه .
ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٠٨ .

(٥) ابن تغري بردي : المصدر نفسه ، ج ١٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

قرية بطرف القليوبية من ديار مصر على كسوة الكعبة كل سنة[1]، وهي قرية (بيسوس) من ضواحي القاهرة ، وقد اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ، ثم وقفها على كسوة الكعبة ووقف الثلث الثالث للحجرة والمنبر[2].

٢- أما السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون المتوفى سنة ٧٦٨هـ[3] فقد خصص جزءاً من ريع بعض أوقافه على مصالح الحرم وأهله .

٣- أحمد بن محمد القيسي القسطلاني المكي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، لقد أوقف وقفًا على مسجد بشرا بنخلة الشامية[4]، وقدرت تركته بخمسمائة ألف درهم .

٤- الأمير جركس الخليلي أمير آخور المتوفى سنة ٧٩١ هـ ، أوقف خانًا يعرف بخان الخليلي يتحصل منه في كل سنة جملة من الأموال على جهات بر بمكة[5].

٥- عبدالله بن إبراهيم بن حسين الحميري اليمني المتوفى سنة ٨٠٧ هـ ، نزيل مكة لقد أوصى في مرض موته بالتصدق بثلث أمواله على الفقراء والمساكين ، وعين من ذلك أشياء لجماعة من أقاربه ومواليه

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
باسلامة ، حسن عبدالله : تاريخ الكعبة المعظمة ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، (١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م) ، ص ٢٥٨ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٤) نخلة الشامية : واديان لهذيل على ليلتين من مكة .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٥) الصيرفي ، علي بن داود : نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، ج ٣ ، ص ٢٧٦ .

الذين أعتقهم ، ووقف دارين بمكة على أولاده ، ووقف عماراً له بالضيعة المسماة " سروعة " وهي من أعمال مكة ، على الفقراء من أقاربه بمكة ، ووقف بهذه الضيعة موضعًا يعرف بحفرة المسجد في تلك القرية لأجل سقاية الفقراء[1].

٦- عيسى بن أحمد بن عمران المتوفى سنة ٨١٠ هـ بمكة ، لقد أوقف وقفًا له في وادي نخلة الشامية، يقال لها العقيرية ، على الفقراء برباط ربيع ، والفقراء برباط الموفق ، وبرباط غزى ورباط العز الأصفهاني، على أن يكون للرباطين الأخيرين ثلث الوقف بالسوية بينهما ، وثلثا الوقف للرباطين الأولين بينهما بالسوية[2].

٧- حسين بن أحمد السراوي العجمي المتوفى سنة ٨١١ هـ بمكة ، لقد جاور بمكة مدة وأوصى لعمارة عين مكة بعشرة آلاف درهم ولعمارة الميضأة الصرغطمشية التي بابها في المسجد الحرام ، بخمسة آلاف درهم[3].

هذه مجرد أمثلة أمكننا العثور عليها في المصادر التي بين أيدينا ، ولا بد أن هناك أوقافًا أخرى مماثلة فاتنا العثور عليها . ولا يخفى أن ريع الأوقاف يساعد على سعة الإنفاق في المدينة المقدسة ، ويؤدي إلى إنعاش الوضع الاقتصادي ، وهذا بدوره له مفعوله في الحياة الاجتماعية لمكة المكرمة ، إذ يرفع مستوى معيشة أهلها ويؤمن أسباب العمل لهم .

---

(١) العقد ، ج ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

الفصل الرابع

المؤسسات الخيرية والمبرات ودورها في خدمة المجتمع المكي

عرف العالم الإسلامي في عصره الذهبي كثيراً من مؤسسات البر التي أنشأها الحكام وأهل الخير لخدمة المسلمين ، وقد لعبت تلك المؤسسات دوراً كبيراً في خدمة المجتمع . وقد كان حظ مكة من هذه المؤسسات كبيراً ، وفيما يأتي عرض موجز لبعضها :

أولاً : الأربطة :

ومما له علاقة بالحياة الاجتماعية في البلاد الإسلامية ، المؤسسات الخيرية المتمثلة بالدرجة الأولى بالأربطة التي سبق وذكرنا دورها في التعليم ، إلا أن أبرز وظائف هذه المؤسسات ، هي إيواء المحتاجين وتأمين الملجأ والمطعم لفئات كثيرة من الناس ، رجالاً ونساء على السواء ، ولذا فإن من الضروري إلقاء نظرة عجلى على الأربطة في مكة المكرمة .

والمعروف أن بناء الأربطة في مكة بدأ منذ مطلع القرن الخامس الهجري ، إذ ليس في المصادر التاريخية مايشير إلى أن هذه المدينة المقدسة قد عرفت الأربطة قبل هذا التاريخ*، وكان الهدف منها إيواء الوافدين إلى مكة من أجل طلب العلم ، وتأمين المأوى لأولئك الذين آثروا البعد عن العواصم الإسلامية ، ولإيجاد المسكن للزهاد . وعلاوة على ذلك فقد بنى بعض الموسرين والتجار

* وقد أيد هذا الرأي مالكي الذي هو بدوره لم يهتد إلى أي مصدر متقدم يشير إلى وجود الأربطة قبل القرن المذكور ولعله استنتج ذلك من المعلومات التي ذكرها الفاسي عن أربطة مكة (انظر : العقد ، ج ١ ، ص ١١٧ - ١٢٣) وليس بينها أي رباط يعود تاريخه إلى ما قبل القرن الخامس .

عدداً من الأربطة أوقفت على سكان الأقاليم التي ينتمون إليها . وخصص بعضها لسكن الحجاج في أيام الحج[١]. وهكذا فإن الأربطة في مكة على أنواع، بعضها للمنقطعين بصورة عامة ، وبعضها لأتباع مذهب معين ، وبعضها لأهل بلد معين ، وبعضها لطلبة العلم وبعضها مخصص للنساء .

وسوف نتناول هنا ذكر الأربطة التي كانت قائمة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، وإن كان تأسيسها سابقًا على هذه الفترة لأنها بقيت مستمرة تؤدي مهمتها خلال تلك الفترة ومنها :

أ - أربطة الفقراء والمنقطعين :

هذا هو النوع الأول من الأربطة ، وسنورد هنا عدداً منها خصص للفقراء والمنقطعين* :

١- رباط دار الخيزران : ويقع هذا الرباط قرب الصفا[٢]واشترط واقفه وهو والي مكة في وقفيته عند إنشائه في سنة ٤٠٢ هـ أن يكون للمنقطعين والغرباء وإقامة الحجاج في فترة الموسم[٣].

٢- رباط البخارية : أوقف هذا الرباط في سنة ٥٧٦ هـ مجموعة من تجار مدينة بخارى ، ويقع في منطقة السوق الصغير** بمكة المكرمة، وجعلوا شرط وقفيته أن يكون سكنًا للحجاج الواردين من بلاد بخارى وأن يسكنه الفقراء المقيمون في مكة طوال السنة ما عدا

(١) مالكي : المرجع السابق ، ص ١١ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٢٣ .
(٣) النهروالي : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٩٨ .

* إن سبب ذكري لهذه الأربطة بالتفصيل أن كل واحد منها له وضعه الخاص ولا سيما تخصيصه لفئة من الناس ، وأن ذكرهم يلقي الضوء على التكوين السكاني لمكة كما يلقي الضوء على فئات الواقفين . وكنت أود التعريف بمؤسسي هذه الأربطة إلا أنني لم أعثر على تراجمهم . ولذلك اكتفيت بذكر أسمائهم .

** لقد أدخلت منطقة سوق الصغير في التوسعة الجديدة للحرم المكي الشريف في عهد خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود .

موسم الحج[1] ولتجار بلاد بخارى عدة أربطة غير هذا تقع أكثرها في أسفل مكة[2] وغالبًا لا يعرف تاريخ وقفيتها ومن الذي أوقفها .

٣- رباط الدمشقية : أنشأه تجار مدينة دمشق ، ولذا سمي برباط الدمشقية ، وأوقف هذا الرباط في سنة ٥٢٩ هـ . وشرط في وقفيته على تخصيصه للفقراء من أهل الشام والعراق ، العرب منهم والعجم[3] .

٤- رباط ربيع : أوقف هذا الرباط السلطان الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي صاحب دمشق ، في ذي الحجة من سنة ٥٩٤ هـ ، واشترط في وقفيته أن يكون وقفًا على الفقراء الغرباء[4] . ومن أشهر شيوخ هذا الرباط محمد بن داود بن ناصر السنبسي الدمشقي المتوفى سنة ٧٦٧ هـ[5] ، وأيوب بن إبراهيم الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٧ هـ[6] ، وأبو بكر بن عمر القرشي المتوفى سنة ٨١٥ هـ الذي جاور بالحرمين ثلاثين سنة أغلبها في مكة ، وتولى فيها مشيخة رباط ربيع ، وأدب الأطفال في الحرمين[7] ، ومن شيوخ هذا الرباط أحمد بن محمد المصري المكي الحنفي الشاذلي المقرئ ، ويعرف بالمسدي المتوفى سنة ٨٦٥ هـ[8] . ومن أشهر الذين أقاموا في هذا الرباط محمد بن أحمد القزويني المصري

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
(٢) يسمى هذا الحي الواقع جنوب مكة باسم حي المسفلة نسبة إلى كونه أسفل مكة .
ياقوت : معجم البلدان ، بيروت (١٩٦٥م) ، ج ٢ ، ص ٨٠ .
(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٥) العقد ، ج ٢ ، ص ١٦ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .
(٧) الضوء ، ج ١١ ، ص ٦٤ .
(٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

الزاهد ، وكان من أهلّ العلم ، وسمع من كثيرين ، وكان يحب الحديث وسمع الكثير منه[1]. توفي سنة ٨١١ هـ .

٥- رباط الموفق : في سنة ٦٠٤ هـ أوقف القاضي الموفق جمال الدين علي بن عبدالوهاب الإسكندري هذا الرباط على فقراء العرب وأهل الحاجات ، وهو يقع في أسفل مكة[2]. ومن أشهر المقيمين في هذا الرباط عبدالواحد التونسي المالكي المعروف بابن الكاتب[3]. وسعادة المغربي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ بمكة[4]، وإسماعيل بن عمر المغربي[5]، وأشهر شيوخ هذا الرباط محمد بن موسى الغماري المتوفى سنة ٨٢٧ هـ[6].

٦- رباط التميمي : في شهر شوال من سنة ٦٢٠ هـ أوقف الشيخ أحمد ابن إبراهيم التميمي هذا الرباط . وكان من شروط وقفيته أن يكون لجميع الفقراء من أهل الخير والفضل والدِّين من العرب والعجم ، المتأهلين وغير المتأهلين ، حسب حاجة كل واحد منهم للسكن في هذا الرباط[7].

٧- رباط البانياسي : في سنة ٦٢٥ هـ أوقف الأمير فخر الدين اياز ابن عبدالله البانياسي هذا الرباط على الفقراء المعروفين بالدين والخير

---

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٠٥ .
(٢) الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
الأسدي ، أحمد بن محمد : أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام (مخطوط) ص ٦٤ .
ابن فهد : إتحاف الورى (مخطوط) ، ص ٦٤ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٥٢٩ .
(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٣٠ ، ص ٥٣١ .
(٥) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .
السخاوي : الضوء ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .
(٦) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .
(٧) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

والصلاح ، ويقع قرب الصفا على يسار الذاهب إليها من المسجد الحرام[1].

٨- رباط أبي القاسم بن كلالة الطيبي : في سنة ٦٤٤ هـ أنشأ هذا الرباط أبو القاسم الطيبي ، وأوقفه على الفقراء . ومن أشهر شيوخ هذا الرباط سعيد الهندي[2].

٩- رباط الجمال محمد بن فرج المعروف بابن بعلجد : وقد أوقف سنة ٧٨٧ هـ على الفقراء والمنقطعين بمكة[3].

١٠ - الرباط الذي تجاه باب الصفا، لم تذكر المصادر له اسمًا ، أوقفه شاه شجاع بن محمد المظفر اليزدي سلطان بلاد فارس ، على عشرة من الفقراء ، وله أوقاف محبوسة عليه بمكة ، وكان المتولي لعمارته ، وشراء أوقافه الشيخ غياث الدين الأبرقوهي[4].

١١- رباط إبراهيم بن محمد الأصبهاني ، سبط الشيخ قطب الدين القسطلاني ، وقفه في سنة ٧٤٩ هـ على الفقراء والمساكين والمجاورين بمكة من أهل الخير والديانة من أي صنف كان من العرب والعجم[5].

١٢ - رباط أبي رقيبة : ويقال له أيضًا رباط العفيف ، وقد أوقفه القاضي عبدالرحيم بن علي اللخمي العسقلاني ، وهو المعروف بالقاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . وموقع الرباط عند مدرسة الأرسوفي بأسفل مكة بالقرب

---

(١) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .
(٤) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤ .
(٥) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .

من باب العمرة ، وقفه هو وشريكه العفيف عبدالله بن محمد المعروف بالأرسوفي على الفقراء والمساكين من العرب والعجم ، من الرجال دون النساء القادمين إلى مكة والمجاورين بها ، على ألا يزيد سكن المقيم على ثلاث سنوات[١]. وتاريخ وقف الرباط سنة ٥٩١هـ.

١٣- رباط عزى : أسس هذا الرباط سنة ٦٤٢ هـ من قبل علي بن محمد المصري[٢]الذي شرط في وقفيته أن يكون وقفًا على الفقراء والمساكين الرجال المجردين من أي جنس كان من المسلمين[٣]. ومن أشهر شيوخ هذا الرباط محمد بن صبيح بن عبدالله الحسامي المكي المولود سنة ٦٨٣ هـ[٤]بمكة .

١٤- الرباط الذي بقرب باب الحزورة : لقد أوقف محمد بن فرج المكي المتوفى سنة ٧٨٩ هـ هذا الرباط سنة ٧٨٨ هـ على الفقراء المنقطعين بمكة ، وشرط النظر فيه لنفسه مدة حياته ومن بعده لأولاده الذكور ، ومن بعدهم لقاضي مكة الشافعي[٥].

١٥- رباط أبي سماحة : أوقف هذا الرباط في سنة ٥٧٨ هـ الأمير قيماز ابن عبدالله السلطاني ابن سلطان الروم والأرمن قليج أرسلان ابن مسعود بن قليج أرسلان ، على المجاورين والمنقطعين والمقيمين في مكة . ويقع هذا الرباط على يمين الصاعد إلى أعلى مكة قرب المجزرة[٦]. ولعله غير رباط " قايماز " الآتي ذكره فيما بعد .

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ .
(٢) ابن فهد : إتحاف الورى (مخطوطة)، ص ٥٩ . ابن فهد : إتحاف الورى، ج٢، ص٥٦١ - ٥٦٢ .
القاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٦٠ .
(٣) الفاسي : شفاء الغرام، ج ١، ص٣٣٤ . ابن فهد : إتحاف الورى، ج٣، ص ٦١ .
(٤) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٨ . (٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، شفاء الغرام : ج ١ ، ص ٣٣٣ .

ب - أربطة الصوفية والزهاد :

وهناك أربطة كانت مخصصة لأتباع الطرق الصوفية وفقًا لما شرطه الواقفون. وأربطة الصوفية لها في العادة شيوخ يتولون الإشراف عليها ، وسنحاول ذكر بعضهم ، كما سنعرض إلى مايقع في هذه الأربطة من نشاط علمي[1]، وما يمارسه مشايخها من درس وتدريس ، إذ أننا عند تناولنا للأربطة كمؤسسات تعليمية أشرنا إلى تأجيل إيراد هذه المعلومات إلى هذا الموضع من البحث منعًا للتكرار وفيما يأتي ذكر عدد منها :

١- رباط السدرة : ويقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل إلى المسجد من باب بني شيبة . وكان وقفه في سنة ٤٠٠ هـ[2]وشيخ هذا الرباط في أوائل القرن السابع هو خضر بن محمد ابن علي الإربلي الصوفي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ وهو من نزلاء مكة وقد أسلفنا ذكره وكان من أهل العلم وسمع من كثيرين[3].

وأشهر نزلاء هذا الرباط عبدالواحد بن إسماعيل العسقلاني المتوفى سنة ٦٢٤ هـ[4]، وعبدالملك بن سعيد بن الحسن ، وكان مهتمًا بالعبادة وله إلمام بالفقه والطرق الصوفية ، وقد أوقف كتبه في مكة، توفي سنة ٨٢٤ هـ[5]. والصالح برهان الدين إبراهيم المصري وهو مقرئ يقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ، ويعلّم الأيتام كتاب الله ويقوم بمؤنهم ويكسوهم[6].

---

(١) على الرغم من كثرة الأربطة التي عرفتها مكة ونوهت بذكرها المصادر ، فإن تلك المصادر لم تتناول تفاصيل النشاط العلمي والاجتماعي الذي كان يدورفيها ، ولكن هناك إشارات عن نشاط بعض من كان يؤم تلك الأربطة في مجالس التدريس والوعظ مثل عبدالملك بن سعيد بن الحسن والصالح برهان الدين إبراهيم المطري الآتي ذكرهما في رباط السدرة .

(٢) الصباغ : تحصيل المرام (مخطوط) ، ص ٥٦ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٦) ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

٢- رباط المراغي : لقد أوقف قاضي القضاة محمد بن عبدالله ابن عبدالرحيم المراغي في سنة ٥٧٥ هـ رباطًا عند باب الجنائز ، وأوقفه على الزهاد الواصلين إلى مكة المقيمين والمجتازين بها من العرب والعجم[١]. ومن أشهر شيوخ هذا الرباط يعقوب بن محمد الكيلاني المتوفى سنة ٧٥٣ هـ[٢].

٣- رباط الخوزي : أوقف هذا الرباط سنة ٦١٧ هـ قرامز الأفزري الفارسي ، على الزهاد الغرباء والمتجردين[٣]، وقد اشتهر هذا الرباط برباط الخوزي وذلك لأن عمر بن مكي بن علي الخوزي الفقيه الشافعي سكن فيه ، فقد أتى عمر إلى مكة وحج وجاور بها إلى أن توفي في صفر من سنة ٦٢٧ هـ ، ومن أشهر شيوخ هذا الرباط مهنا ابن أبي بكر بن إبراهيم بن يوسف البغدادي الدنيسري المصري الحنفي المولود سنة ٧٣٨هـ والمتوفى سنة ٨٢٠ هـ ، جاور في مكة نحو أربعين سنة وتولى مشيخة هذا الرباط نحو ثلاثين سنة ، وكان فيه خير وإحسان ، وخدم الفقراء الرباط المذكور سنين . وقد سمع في مكة من كثيرين[٤]. ومن أشهر المقيمين في هذا الرباط محمد المعروف بالقدس المتوفى سنة ٨١١ هـ[٥].

٤- رباط رامشت : في سنة ٥٢٩ هـ أوقف الشيخ أبو القاسم إبراهيم ابن الحسين بن شيرويه الفارسي المشهور برامشت ، هذا الرباط على

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ١١٩ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٩٥ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٨ .

جميع الزهاد، الرجال دون النساء من سائر العراق . وقد احترق جانب كبير من هذا الرباط في الليلة التي احترق فيها المسجد الحرام، وهي ليلة ٢٨ شوال سنة ٨٠٢هـ[١]. ومن أشهر شيوخ هذا الرباط ابن حيدر الفاسي[٢]. وأشهر المقيمين فيه يعقوب بن عمر ابن علي العجمي الشافعي الملقب بالشرف[٣]، وعلي بن محمد ابن المناظر العلوي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ[٤]. وقد أشرنا إلى الحريق رغم وقوعه خارج الفترة المخصصة لدراستنا وذلك للتدليل على استمرار وجود هذا الرباط منذ إنشائه في سنة ٥٢٩هـ إلى وقت حريقه في سنة ٨٠٢هـ، ومعنى ذلك أنه كان موجوداً خلال القرنين السابع والثامن للهجرة . فضلاً عن أن بعض من سكنه كان من أهل تلك الفترة .

ج : الأربطة المخصصة لأتباع المذاهب ومنها :

١- رباط قايماز : أوقف هذا الرباط سنة ٥٧٨هـ الأمير قايماز بن عبدالله ابن قليج أرسلان الشامي السلجوقي من أمراء سلاجقة بلاد الروم والأرمن . وكان هذا الرباط يقع قريبًا من شمال المجزرة الكبرى ، على يمين الذاهب

---

(١) أول ما كان الحريق في البيت الذي على باب الرباط المطل على المسجد ، ثم خرجت النار من شباكه حتى تعلقت بسطح المسجد فاحترقت الأروقة ، وأرسل الأمير بيسق سنة ٨٠٣ هـ من عمر المسجد الحرام . وأكملت العمارة في أواخر شعبان سنة ٨٠٤ هـ .
الفاسي : شفاء الغرام ، ص ٣٣٢ .
العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ، ج ٤ ، ص ٣٣ .
النهروالي ، قطب الدين : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ١٩١ .
الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤٧٦ .

(٤) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ .

إلى المعلاة ، واشترط في وقفيته أن يكون سكنًا للمقيمين والمجاورين والمنقطعين في مكة والأحناف في موسم الحج[1]. ولعله غير رباط " أبي سماحة " السابق ذكره .

٢- أربطة الأخلاطي : وهي عبارة عن ثلاثة أربطة ، بعضها وقف على نساء الحنفية . وبعضها على أهل مدينة أخلاط ، وبعضها وقف سنة ٥٩٠ هـ ، وبعضها في السنة التي بعدها[2].

٣- رباط الزنجيلي : بنى عثمان بن علي الزنجيلي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ، نائب أمير عدن للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٩ هـ رباطًا أمام مدرسته في مكة عند باب العمرة ، وأوقفه على الأحناف المعتمرين في مكة[3].

د - الأربطة المخصصة لأهل بلد معين :

١- رباط السلطان شاه شجاع صاحب بلاد فارس ، ويقال له رباط الشيخ غياث الدين الأبرقوهي ، لأن هذا الشيخ تولى أمره وعمارته وتاريخه سنة ٧٧١ هـ ، وقد أوقف على الأعاجم من بلاد فارس المجردين دون الهنود[4].

٢- رباط الزرندي : أوقفه الشيخ نجيب الدين أبو الحسن بن محمد ابن جبريل الزرندي على أهل زرند * القادمين إلى الحج[5].

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
باقاسي : المرجع السابق ، ص ٩١ .
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٣٤ .
(٤) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
* زرند هي بليدة بين أصبهان وساوة ينسب إليها بعض أهل العلم ومنهم محمد بن العباس الزريد الشيرازي النحوي (انظر : ياقوت : معجم البلدان، بيروت ، دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ج٣ ، ص ١٣٨

٣- رباط عثمان بن عفان رضي الله عنه : أوقف هذا الرباط في سنة ٦٠٤ هـ ويقع في السوق الصغير ، ويعرف أيضًا برباط المغاربة[١]، لأنه يقع في زقاق المغاربة*، ونسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه لوقوعه في موقع داره وقد جدد بناؤه ، وقد أوقفه علي ابن عبدالوهاب بن محمد بن أبي الفرج القاضي الموفق ، على فقراء العرب والفقراء المتعبدين وذوي الحاجات المجردين[٢].

ويضاف على هذه الأربطة أحد أربطة الأخلاطي آنفة الذكر ، إذ كان واحد منها لأهل أخلاط .

هـ - أربطة طلبة العلم :

١- رباط المغاربة[٣]: لقد أوقف جماعة من تجار بلاد المغرب رباطًا في مكة ، يقع عند باب العمرة ، بناه تجار المغرب لكي يكون سكنًا للمقيمين في مكة من طلبة العلم، للرجال دون النساء ، وأن يسمح للحجاج بالسكن في هذا الرباط في فترة الموسم[٤].

٢- رباط الحضارمة : أسس هذا الرباط سنة ٥٧٠ هـ ، ويقع في منطقة أجياد ، وقد بناه تجار من حضرموت، وكان شرط وقفيته ينص على

---

(١) وهو غير الرباط المسمى بالاسم نفسه ، وهو الذي أنشأه بعض التجار المغاربة .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) وهو غير الرباط الذي سمي بهذا الاسم ، والذي يعرف أيضًا باسم رباط عثمان بن عفان .

(٤) مالكي ، سليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

* الزقاق : هو طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة، وأهل الحجاز يؤنثونه وبنو تميم يذكرونه . ياقوت : المصدر السابق ج٣، ص١٤٤ .

تخصيصه لطلبة العلم المقيمين في مكة ، وأن يكون سكنًا للحجاج القادمين من حضرموت في فترة الموسم[1].

٣- رباط الشرابي : أوقف هذا الرباط سنة ٦٤١ هـ الأمير شرف الدين إقبال الشرابي* ، ويقع عند باب بني شيبة[2]. وكان شرط وقفيته ينص على تخصيصه لطلبة المدرسة الشرابية ، وكان هذا الرباط مكونًا من طابقين يسكن الطابق الأعلى منه الطلبة ، والطابق الأسفل يسكنه المدرسون والمسئولون عن تنظيف المدرسة[3].

أوقاف الأربطة :

وبعد أن انتهينا من ذكر الأربطة يحسن بنا أن نورد بعض الأمثلة على الأوقاف التي حبست على تلك الأربطة في القرنين السابع والثامن ، ولعل أحسن وسيلة لتحقيق هذا الغرض أن نستعرض أسماء المحسنين الذين كانت لهم أوقاف ذات علاقة بالأربطة الموجودة في مكة ، ومن هؤلاء :

١- الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ، صاحب المدرسة المقامة عند باب العمرة بمكة والرباط المقابل لها ، فقد كان نائبًا بعدن للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وله بعدن أوقاف كثيرة حبسها على مدرسته ورباطه بمكة[4].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .
الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي ، مخطوط بجامعة الملك سعود رقم ٢٠١/٥٠ ص ٤ .
معروف ، ناجي : المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة - ص ١٠٨ .

(٣) مالكي : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

* هو الأمير شرف الدين إقبال مقدم الجيوش العباسية في عهد المستنصر بالله وابنه المستعصم وقد حارب التتر ولم يتجرأ المغول على احتلال بغداد إلا بعد وفاته في سنة ٦٥٣ هـ بنحو ثلاث سنوات وكان يعرف بالشرابي المستنصري العباسي (انظر : الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ . وناجي معروف : المدارس الشرابية ص ٩) .

(٤) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٣٤ .

٢- الأمير إقبال الشرابي المستنصري العباسي، واقف رباط الشرابي آنف الذكر ، وقد أوقف هذا الأمير أوقافًا كثيرة في مكة مثل المياه التي تعرف بالشرابيات في موضع " مر " ووادي نخلة ، واشترط أن تنفق حصيلة هذه الأوقاف على الرباط الذي جعل قسمًا منه مكتبة تضم كتبًا جعلها وقفًا للرباط وذلك في سنة ٦٤١ هـ[(١)].

٣- شرف الدين عبد المعطي بن أحمد الأنصاري الخزرجي المكي، وفد على الخليفة العباسي أحمد المستنصر بالله في القاهرة مع عمه عبدالرحمن بن عبدالمعطي، ففوض إليهما النظر في مصالح المسجد الحرام وأمر المدارس والربط والأوقاف بمكة ، وإظهار شعار خلافته بمكة ، وقد بويع الخليفة المستنصر سنة ٦٥٩ هـ[(٢)]. والهدف من ذكر شرف الدين الأنصاري المكي هذا هو التنويه باهتمام الخلفاء بالأوقاف والأربطة والمدارس بمكة .

٤- محمود بن جمال الدين الهروي الناسخ المتوفى سنة ٧٩٦ هـ ، جاور بمكة مدة ، وسمع من كثيرين ، وقد أوقف كتبًا كثيرة في الحديث والفقه ، وجعل مقرها رباط الخوزي بمكة ، وكان يسكن رباط غزي بأجياد من مكة[(٣)].

٥- أحمد بن سليمان المعروف بالتروجي المصري المالكي المتوفى بمكة سنة ٨١٢ هـ ، وهو من سكان الإسكندرية ، وكان قد تجول في البلاد

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .
الطبري : الأرج المسكي (مخطوط) ، ص ٤ .
معروف ، ناجي : المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

(٢) الخليفة المستنصر هذا بويع بالخلافة بمصر بعد أن استشهد ابن أخيه المستعصم بن المستنصر ، وهو أول خليفة عباسي بعد المستعصم ، واستشهد هو أيضًا في السنة التي بويع فيها بناحية العراق الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١٣٧ .

فذهب إلى العراق والهند ، ثم انتقل إلى الحجاز وأقام بالحرمين مدة، وكانت له اهتمامات بالعلم وقد أوقف عدة كتب وجعل مقرها برباط الخوزي الذي كان يسكن فيه[1].

ثانيًا : المؤسسات الخيرية (غير الأربطة) :

ولم تقتصر المؤسسات الخيرية في مكة المكرمة على الأربطة ، وإنما عمد أعيان المسلمين على تيسير الماء لأهل مكة المكرمة والوافدين عليها ، بالنظر لقلة المصادر المائية في المدينة المقدسة ، والحاجة الماسة للماء لاسيما في بلد حار مثلها ، وتتمثل هذه المنشآت في حفر الآبار وإجراء العيون وإقامة السبل وإنشاء البرك والمطاهر . وكذلك أنشأوا بعض المستشفيات (البيمارستانات).

وبالنظر لأهمية هذه المنشآت بالنسبة للأحوال المعيشية لأهل مكة ، رأينا من المفيد إيراد بعض الأمثلة ، منها :

أ : الآبار :

١- بئر طوى : تشتهر بعذوبة مائها وخصصت لسقاية الحجاج وسكان مكة، وهي تقع في مدخلها . وقد حفرها في الأصل عبد شمس ابن عبدمناف في العصر الجاهلي ، وقد استمرت العناية بها في العصور الإسلامية وبقيت موجودة حتى الفترة التي تغطيها دراستنا هذه . وكان يقصدها الحجاج ويتوضأون بمائها من أجل التبرك بها ، وهي ضمن أوقاف عائلة تنتمي إلى الحسين بن علي[2]- رضي الله عنهما - .

---

(١) العقد ، ج ٣ ، ص ٤٣ - ٤٤ .
السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، بيروت ، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ، ص ٦١ .
مالكي ، سليمان : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

٢ - بئر الجفر : وهذه البئر أيضًا تعود إلى العصر الجاهلي إذ حفرها أمية ابن عبد شمس[١]لسقاية أهل مكة ، وتقع بطرف أجياد وعندما تعطلت هذه البئر سنة ٦٦٣ هـ ، أمر الخليفة العباسي بإصلاحها .

٣ - هذا وهناك آبار كثيرة أخرى ، معلوماتنا عنها محدودة ، إلا أنها معروفة بأسمائها فقط ، منها :

أ - بئر رباط السدرة .

ب- بئر رباط الشرابي .

ج- بئر بالمدرسة المجاهدية .

د- بئر رباط كلالة بالمسعى[٢].

هـ- بئر بالمدرسة الأفضلية .

و- بئر برباط الموفق .

ز- بئر بالمزدلفة .

ح- بئر بالبستان عند باب المعلاة[٣].

٤ - أشهر الآبار التي بين المعلاة ومنى :

أ- بئر ميمون بن الحضرمي أخو العلاء بن الحضرمي . عمرها الملك مظفر الدين صاحب إربل سنة ٦٠٤ هـ .

ب- بئر النجار : أنشأها في سنة ٧٦١ هـ الأمير جركتمر الماردني صاحب الحجاب بالقاهرة ومقدم العساكر بمكة[٤].

٥- أما الآبار التي بمنى فهي خمس عشرة بئراً أهمها بئر أم الحمام التي عمرتها في سنة ٦٤٥ هـ زوجة الملك المنصور صاحب اليمن[٥].

---

(١) الأزرقي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٣) الصباغ المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٤) شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٥ .

ب - عيون مكة :

١- عين بازان : وأشهر هذه العيون " عين بازان " التي عمرها جماعة من الخلفاء والملوك منهم المستنصر العباسي الذي عمرها أكثر من مرة في سنة ٦٢٥ هـ وسنة ٦٣٤ هـ . ومنهم الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراق من قبل السلطان أبي سعيد بن خربندا ملك العراقين ، وقد عمرها في سنة ٧٢٦ هـ ، وقد وصل ماؤها إلى مكة في جمادى الأولى من تلك السنة وعمّ نفعها وعظم ، وكان جريانها نعمة من الله - على حد قول الفاسي - وجملة ماصرف على عمارة هذه العين في هذه المرة مائة ألف درهم[1]. وفي سنة ٧٨١ هـ بعث بركة بن عبدالله العثماني[2]، أميراً يقال له سودون باشا لعمارة عين بازان .

٢- ومن العيون الأخرى التي أجريت بمكة عين أجراها الملك الناصر محمد ابن قلاوون صاحب مصر في مجرى عين بازان ، وتعرف بعين جبل نقبة وذلك في سنة ٧٢٨ هـ، وعين أجراها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر من منى إلى بركة السلم بطريق منى وذلك في سنة ٧٤٥هـ[3].

ج - السبل :

وبالنظر لضرورة توفر المياه في مكة ، فقد اهتم بعض الخلفاء والأمراء والسلاطين وعامة الناس بإنشاء السبل . والسبل عبارة عن خزانات صغيرة

---

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
(٢) هو الأمير زين الدين ، رأس نوبة النواب بالقاهرة .
الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

تبنى فوق سطح الأرض وتملأ بالمياه لسقيا الناس في غدوهم ورواحهم[1] وأهم هذه السبل :

١- سبيل الزنجيلي : يقع خارج باب الشبيكة في جهة طريق التنعيم، على يمين المار إلى العمرة، وقد عمره الأمير فخر الدين المعروف بالزنجيلي نائب عدن للسلطان صلاح الدين بن أيوب، ولقد مر ذكره أكثر من مرة، وقد عَمّرَ هذا السبيل بعده تاجر حضرمي من أهل عدن، ويعرف بأبي راشد، وعمره بعده الشهاب بركوت المكين[2].

٢- سبيل بنت القاضي عبدالرحمن بن عقبة المكي، وسبيل آخر أنشأته السيدة زينب بنت القاضي شهاب الدين الطبري سنة ٧٦٥ هـ[3].

٣- سبيل ابن عطية ابن ظهيرة، وسبيل أم الحسين بنت القاضي شهاب الدين بالمسعى، وسبيل السيد حسن بن عجلان برباطه[4].

٤- وتوجد سبل في خارج مكة من أعلاها مثل سبيل أم سليمان الزاهدة، وسبيل للسيد حسن بن عجلان (وهو غير السبيل الذي في رباطه) وسبيل الملك المنصور صاحب اليمن[5].

د- البرك :

إن أهمية البرك واضحة معروفة، فقد اقتضت الحاجة ببنائها لاستخدامها في عدة أغراض، منها لتخزين مياه الأمطار في أطراف الأودية، ولسقيا الدواب التي كانت هي الوسيلة الوحيدة للنقل آنذاك . وتبنى البرك أحيانًا داخل

---

(١) مالكي : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٤ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

(٤) الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٥) الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

البساتين لتدريب أبناء أصحابها على السباحة، ويتفرع عادة منها قنوات لري المزارع[1]، وأشهر البرك في مكة :

١- بركتان عند باب المعلاة متلاصقتان، جددتا في عهد الملك الناصر حسن صاحب مصر، وذلك في ولايته الأولى سنة ٧٤٩ هـ ، وعمرتا بعد ذلك غير مرة كانت إحداهما في سنة ٨٢١ هـ[2].

٢- وهناك برك عدة ضمن حرم مكة مما يلي منى وعرفة، منها البركة المعروفة ببركة السلم التي جددها في سنة ٧٤٥ هـ نائب السلطنة بمصر، وعمر القنوات التي تصل إليها من منى .

٣- وتوجد بعرفة عدة برك، وتاريخ عمارتها سنة ٣١٥ هـ، وبعضها عمره مظفر الدين صاحب إربل في سنة ٥٩٤ هـ ، وبعضها عمره إقبال الشرابي المستنصري العباسي في سنة ٦٣٣ هـ[3].

هـ - المطاهر في مكة[4] :

وهي المباني المخصصة لقضاء الحاجة وتجديد الوضوء ، وكان منها في مكة :

١- مطهرة الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر عند باب بني شيبة، وتاريخ عمارتها سنة ٧٢٨ هـ[5]، ولعلها غير المطهرة الواقعة في سوق العطارين .

٢- مطهرة نائب السلطنة بمصر عند باب الحزورة وتاريخ عمارتها في سنة ٧٤٥ هـ .

---

(١) مالكي : المرجع السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٢) الفاسي : شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .
(٤) ابن الضياء ، أبو البقاء محمد بن أحمد القرشي : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة والقبر الشريف ، مخطوط ، ص ٩١ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٥) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

٣- مطهرة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر بالمسعى قبالة باب علي أحد أبواب المسجد الحرام، وكانت عمارتها سنة ٧٧٦ هـ، وقد تولى عمارتها الأمير أبوبكر بن شنقر الجمالي، وقف أشراف عليها وقف بمكة بعض الدكاكين، ووقف بضواحي القاهرة، وتخربت ثم عمرها في سنة ٨١٧ هـ .
٤- مطهرة عمرتها أم سليمان الزاهدة صاحبة الزاوية بسوق الليل، وانتهي من عمارتها في سنة ٧٩٦ هـ .
٥- مطهرة تنسب للأمير طنبغا الطويل أحد الأمراء بالديار المصرية، عمرت في أوائل عشر السبعين والسبعمائة[(١)] عند باب العمرة .
٦- مطهرة باب المسعى بناها الملك الناصر سنة ٧٢٨ هـ، وجعل لها بابين أحدهما في السوق أي قبالة باب النبي صلى الله عليه وسلم والآخر في سوق العطارين[(٢)]، ولعلها غير المطهرة الواردة برقم (١) .
٧- وقد أنشأ الأمير زين الدين ، رأس نوبة النواب بالقاهرة، وهو بركة ابن عبدالله العثماني، المطهرة التي بسوق العطارين بمكة سنة ٧٨١ هـ[(٣)].

و - البيمارستانات* " المستشفيات " :

حيث إن العناية بالصحة لا يمكن فصلها عن الحياة الاجتماعية، لأنها تشير إلى اهتمام الناس والمسئولين بالصحة ولا سيما بالفقراء الذين لا مال لهم

---

(١) ابن الضياء : المصدر السابق ، ص ٩١ .
الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(٢) الصباغ : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٣٦١ .
* كلمة فارسية أصلها «البيمارستان» مركبة من «بيمار» بمعنى مريض و «ستان» بمعنى مكان وهو ما يقابل الآن المستشفى . الفاسي : المصدر السابق، ج٦، ص٤٧٢ .

ينفقون منه على العلاج ، ولذا فقد بادر أهل الخير إلى تأسيس بعض المستشفيات (البيمارستانات)، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ومنها مكة المكرمة ، ولقد ازدادت عمارة المستشفيات في كل مكان حتى صارت المدن الإسلامية الكبرى لاتخلو من واحد منها على الأقل .

أما بالنسبة للبيمارستانات الموجودة في مكة خلال فترة دراستنا فلم أجد إلا معلومات قليلة جداً تشير إلى وجودها، وسوف نورد هذه الإشارات من خلال تراجم بعض الأشخاص .

١- علي بن مسعود بن فيروز البغدادي ، أبو الحسن نزيل مكة، المتوفى سنة ٦٥٥ هـ، لقد كان مجبراً بالبيمارستان بمكة[١]. وهذه إشارة واضحة لوجود بيمارستان فيها، لكننا لا نعرف شيئًا عن مؤسسه .

٢- عيسى بن يحيى الريغي المغربي المالكي المتوفى سنة ٨٢٧ هـ نزيل مكة لقد كان مهتمًا بالعلم مثل النحو، وكان كثير السعي في مصالح الفقراء الطرحى، وجمعهم من الطرقات إلى البيمارستان[٢] المستنصري، بالجانب الشامي من المسجد الحرام[٣]. وهنا أيضًا إشارة إلى بيمارستان يقع في الجانب الشامي من المسجد الحرام، لكننا لانعرف عنه شيئًا إلا ماورد في ترجمة الشريف حسن بن عجلان بن رميثة ابن أبي نمي أمير مكة ونائب السلطنة بالأقطار الحجازية الذي تولى إمارة مكة في سنة ٧٨٩ هـ[٤] إذ قال الفاسي أنه سبّل " البيمارستان

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤٧٢ .

(٣) لقد سمع عيسى هذا الحديث بمكة على جماعة من شيوخها والقادمين عليها العقد ، ج ٦ ، ص ٤٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٨٦ .

المستنصري "[1] بالجانب الشمالي من المسجد الحرام للضعفاء والمجانين، وتصرف غلة القيسارية المعروفة بدار الإمارة عند باب بني شيبة في مصالح المشار إليهم، وذلك لأنه استأجر المكان المذكور مدة مائة سنة هلالية، من القاضي الشافعي بمكة، بأجرة معلومة، على أن يصرفها في عمارة المكان لخرابه فعمره ، وزاد في البيمارستان فأكثر فيه النفع، ووقف ما زاد ومايستحقه من منفعة المكان في باقي المدة المذكورة على الوجه السابق، وقد ثبت ذلك عند حاكم مالكي[2]، وقول الفاسي إنه " زاد في البيمارستان " وكان ذلك عام ٨١٥ هـ يدل على أن البيمارستان المذكور كان موجوداً قبل ذلك .

ثالثًا - مشاركة المرأة في الأعمال الخيرية :

وفي ظني أن هذا الفصل المخصص لمؤسسات البر والخير، سيبقى ناقصًا مالم نتناول مشاركة المرأة في الأعمال الخيرية، ومساهمتها في هذا الحقل الإنساني . فالمعروف أن المرأة المسلمة قد شاركت في كثير من أعمال الخير والبر والإحسان، مما كان له أثر طيب في المجتمع . وسنتناول في هذه الفقرة ذكر بعض النساء اللاتي كانت لهن بعض المآثر الخيرية .

في الحقيقة أن نساء المسلمين أبدين في مختلف العصور اهتمامًا كبيراً بالحرمين، وتركن آثاراً حميدة في البقاع المقدسة، ومن أبرز أولئك النسوة زبيدة

---

(١) البيمارستان المستنصري نسبة إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله بن الظاهر (٦٢٣هـ - ٦٤٠هـ) وقد أوقفه سنة ٦٢٨هـ (أنظر الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
زامباور : المصدر السابق، ج ١ ، ص ٤ .

(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٥ .

بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة هارون الرشيد وأم الأمين، وهي أشهرمن أن تعرف، إذ قامت بكثير من الأعمال الخيرية في طريق الحج المسمى بدرب زبيدة[1]، وفي بعض أنحاء الحجاز مثل إجراء العيون، وبناء الآبار والسبل والبرك في مكة[2]، وقد أنفقت أموالاً كثيرة على هذه الأعمال . أما في الفترة التي تغطيها دراستنا فقد كان هناك عدد من النساء اللاتي كانت لهن مشاركة في أعمال الخير، وسوف نوجز فيما يأتي ذكر البعض منهن، وذكر بعض الأعمال التي قمن بها :

١- رباط الساحة : لقد كان هذا الرباط موجوداً أثناء القرن السابع أوقفه جماعة من النسوة منهن والدة الشيخ قطب الدين القسطلاني على الفقيرات الغريبات المتدينات[3].

٢- رباط الفقاعية : في سنة ٤٩٢ هـ أوقفت قهرمانة المقتدي الخليفة العباسي هذا الرباط على المنقطعات الأرامل[4]. وسبب إيرادي ذكر هذا الرباط لكونه بقي قائمًا حتى العصر الذي يدخل ضمن دراستنا .

٣- رباط السيدة أم الحسين : في سنة ٧٨٤ هـ أوقفت السيدة أم الحسين بنت شهاب الدين الطبري هذا الرباط على الفقراء والمساكين[5].

---

(١) انظر الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور سعد الراشد باللغة الإنجليزية ونال بها درجة الدكتوراه وقامت بطبعها جامعة الملك سعود بعنوان : Darb Zubydah

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .
الفاكهي : المنتقى بأخبار أم القرى ، وهي منتخبات من تاريخ مكة للفاكهي، والفاسي ، وابن ظهيرة، وابن فهد ، مكتبة خياط ،بيروت ، لبنان ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٤) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٢١ .

٤- رباط بنت التاج : أوقف على النساء الزاهدات الأخيار[١]. وليست لدينا معلومات عن السيدة التي أوقفته .

٥- رباط ابن السوداء : أوقف هذا الرباط في سنة ٥٩٠ هـ على النساء الزاهدات المتدينات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب . وقد أوقفته كل من أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتا القائد أبي ثامر المبارك بن عبدالله القاسمي[٢].

٦- رباط عائشة : وهي ابنة علي بن عبدالله بن عطية الرفاعي وتعرف بالظاهرية، فقد أنشأت رباطًا بأسفل مكة ووقفت عليه دارًا بباب الصفا مطلة على المسجد الحرام، وكانت قائمة بالمشيخة على وجهها بين المقيمات في الرباط من تسبيح وقراءة أوراد وذكر كل يوم سبت، وكذلك إطعام الطعام[٣].

٧- رباط أم الخليفة الناصر : أنشأت زمرد خاتون والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، هذا الرباط سنة ٥٧٩ هـ، وأوقفته على عشرة أشراف سنيين، وهذا الرباط بالجانب الشمالي من المسجد الحرام، وعرف فيما بعد بالعطيفية نسبة إلى عطيفة بن أبي نمي أمير مكة، لأنه كان متوليًا عليه[٤].

---

(١) الفاسي شفاء ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٣) السخاوي : الضوء ، ج١٢، ص ٧٧ . وقد توفيت هذه المحسنة في سنة ٨٣٨هـ .

(٤) الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
الفاسي : العقد ، ج٨ ، ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

الفصل الخامس

المجاورون وأثرهم في الحياة الاجتماعية

لم يكن المجاورون عنصراً سلبيًا في المجتمع المكي يتلقى فقط التأثير بالمحيط الجديد الذي يعيش فيه، بل إن المجاورين كانوا يعيشون في صميم المجتمع فيؤثرون فيه ويتأثرون به . ولا بد أنهم حملوا معهم الشيء الكثير من عادات مجتمعاتهم الأصلية وتقاليدها ، ونشروها في مكة دون قصد منهم .. هذا ويلاحظ :

١- بأن أكثر هؤلاء كانوا من المصريين والشاميين(١)، وخصوصًا المصريين . ولقد كان هناك بعض العراقيين(٢)والمغاربة(٣)واليمنيين، وربما يرجع السبب في كثرة الأولين إلى قرب الشام ومصر من الحجاز . وعلى الرغم من قرب العراق من الحجاز،فلا نجد منه مجاورين كثيرين في فترة دراستنا، ولعل ذلك يعود إلى اضطراب الأحوال السياسية في العراق خصوصًا بعد سقوط بغداد على أيدي المغول، مما شغل علماء العراق أو من بقي منهم على قيد الحياة، شغلوا بهموم بلادهم وبالنكبة التي حلت بها . والمعروف أن كثيراً من العلماء لاقوا حتفهم بسبب الغزو المغولي، لذلك لم يبق من العلماء العراقيين من يمكن أن يجاور بمكة، خصوصًا وأن العلاقات بين حكام العراق وحكام الحجاز لم تكن دائمًا على مايرام، إذ كان العراق خاضعًا لحكم المغول والدول التركمانية في حين كانت الحجاز خاضعة لحكم المماليك، وكان حكام القطرين المذكورين في عداء دائم وخصومة مستمرة، ومع ذلك فقد رأينا بعض المجاورين من العراقيين

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٧ ، ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

في أوائل القرن السابع، مثل طه بن بشير الإربلي والخضر بن السراج الإربلي، وقد مر ذكرهما .

هذا ويبرز سبب آخر ساعد على زيادة عدد المجاورين من مصر والشام، هو أن الأيوبيين والمماليك حكام مصر والشام في الفترة التي تغطيها هذه الدراسة، كانوا - كما تقدم - هم المسيطرين على الحجاز، فكان ذلك يحقق للمصريين والشاميين ميزة ظاهرة، ونوعًا من الأمن لا يجده العراقيون واليمنيون والمغاربة[1]. إذ صارت الحجاز ومصر والشام أقاليم تابعة إلى مملكة واحدة .

٢- كما يلاحظ أن أكثر المجاورين كانوا من العلماء والزهاد، أما الباقون فمن الذين نفاهم الحكام، فجاءوا من مصر قسراً، أو من كبار التجار الذين جاءوا يقضون شيخوختهم بجوار البيت الحرام . ولقد كان هؤلاء المجاورون خيراً وبركة على مكة، سواء كانوا علماء أو تجاراً[2]، فقد أفادت المدينة المقدسة بعلمهم وبأموالهم .

٣- ويلاحظ أيضًا أن المجاورة لم تكن قاصرة على قضاء سنوات في أواخر العمر هي سنوات الشيخوخة، بل قد تكون للراحة وطلب الصفاء الروحي، يعود بعدها المجاور وقد تجدد نشاطه إلى حياة العلم و العمل، فابن عساكر أمين الدين أبو اليمن عبدالصمد بن عبدالوهاب بن زين الأمناء الدمشقي[3]المتوفى سنة ٦٨٦ هـ قد جاور (أربعين سنة)، ومحمد بن مطرف الأندلسي جاور ستين سنة[4]، ومحمد بن علي القرطبي الأنصاري المراكشي المتوفى في سنة ٧١٠ هـ، فقد جاور سبع سنوات[5]، وإبراهيم بن عبدالوهاب القاهري جاور حتى تعلم

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .
(٣) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٦ .
(٥) ابن حجر : الدرر ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

وخلا إلى نفسه، ثم عاد إلى القاهرة ودرس واشتغل بالتجارة[1]. كل هذا يدلنا على أن المجاورة كانت نوعًا من الراحة النفسية في ظلال البيت الحرام، فالمجاور ينعم بالطمأنينة ويستفيد مما يأخذه عن العلماء . أما الذين يجاورون في أواخر حياتهم، فقد كانوا قلة، نجد أحيانًا بينهم الموتورين ماليًا أوسياسيًا، أو المعزولين من مناصب الدولة، أو المصابين بحدث من خطوب الأيام[2].

٤- والملاحظ أن المجاورين كانوا قليلين في القرن السابع، ثم بدأوا يكثرون في القرن الثامن، حتى صاروا جزءًا كبيرًا من المجتمع المكي . في الغالب أن هذا يرجع إلى ماقام به سلاطين المماليك من إنشاء المدارس والأربطة والزوايا، وما أنفقوه على المجاورين، وما قاموا به من تنظيم لشئونهم، حيث لم يعد المجاور يخشى ألا يجد المأوى أو الطعام، إذا ضاقت به سبل العيش بجوار البيت . وقد أوقفت أعداد غير قليلة من الأربطة لهذا الغرض - كما رأينا سابقًا - .

ولقد تولى كثير من المجاورين مشيخة الأربطة، مثل علي الأصغر بن محمد ابن أحمد بن الحسن، وكان يتولى إلى جانب مشيخة المجاورين، النظر في شؤون رباط السدرة ورباط كلالة وبعض المياضئ، وقد حضر الدروس واجتمع بالشيوخ[3]، ومنهم أحمد بن أبي طالب الحمامي (توفي سنة ٧٠٩ هـ بمكة)[4] الذي أثر في الحياة العلمية بمكة أثرًا ظاهرًا، وقد درس عليه ابن مسلم القاضي وشمس الدين بن صلاح والإمام الذهبي .

٥- ومن المجاورين من جاور للعبادة مثل فخر الدين التوزري المغربي[5]، ومحمد بن مطرف الأندلسي الذي جاور ستين سنة - كما أسلفنا - وكان يطوف

---

(١) السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٧٣ .

(٢) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٣) السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ٢٨١ .

(٤) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٥) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

في اليوم والليلة خمسين مرة، حتى توفي سنة ٧٠٧ هـ، وشيخ الحرم ظهير الدين محمد بن عبدالله البغدادي الذي جاور بمكة أربعين عامًا[١] وتوفي سنة ٧٠٨هـ .

وقد ذكر ابن بطوطة عدداً من المجاورين مثل العالم الصوفي عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي، فقد كان كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار، وكذلك نجم الدين الأصفوني الذي ترك القضاء في صعيد مصر ليجاور الحرم المكي، فقد كان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم، وعز الدين الواسطي، فقد كان من أصحاب الأموال الطائلة، إذ كان تاجراً كبيراً في بلده فكان يبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويحمل ذلك إلى بيوتهم بنفسه[٢] .

وهكذا فقد شكل المجاورون في الحرم على مر العصور جزءًا من مكونات المجتمع المكي . ولقد كان سلاطين المماليك في مصر دائمًا يعملون على راحة سكان الحرمين (الأصليين والمجاورين) ، ويقدمون لهم المساعدات المالية، ويرسلون لهم الحبوب والصدقات كلما ألمت بهم أزمة اقتصادية .

ويتضح مما ورد في ثنايا هذا الفصل أن المجاورين، وكان بينهم العلماء قد اختلطوا بالمجتمع المكي وأن الكثيرين منهم أمضوا بقية حياتهم في مكة، ولا بد أنهم تصاهروا مع أهلها مما ترك آثاره في تكوين المجتمع المكي سواء كان من حيث الأزياء أو العادات والأطعمة، فضلاً عن التأثير العلمي، إلا أن المؤرخين ـ مع الأسف الشديد ـ لم يعيروا هذه الأمور أي اهتمام، وبالتالي فلم يسجلوا لنا شيئًا عنها يفيدنا في رسم صورة واضحة لتلك الآثار .

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

الباب الخامس

مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة

في القرنين السابع والثامن للهجرة

الفصل الأول : عناصر السكان :

١- الأمراء (الأشراف)
٢- القواد
٣- سكان مكة الأصليون
٤- المجاورون
٥- الرقيق
٦- المرأة المكية

الفصل الثاني : القضاة وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف في مكة :

١- القضاة
٢- أئمة الحرم
٣- أغوات الحرم
٤- السدنة
٥- التجار
٦- المهندسون
٧- الصنّاع

الفصل الثالث : الاحتفالات والأعياد والمواكب في مكة :

١- صلاة الجمعة
٢- الاحتفال بالموالد
٣- الأعياد
٤- الاحتفال بالحج
٥- الاحتفال برؤية الأهلّة
٦- احتفالات رمضان
٧- ختم القرآن
٨- الاحتفال بكسوة الكعبة
٩- الاحتفال بقدوم المحمل

الفصل الرابع : العادات الاجتماعية والأزياء والأطعمة في مكة :

١- أخلاق المكيين وعاداتهم
٢- الأزياء والملابس
٣- الأطعمة والأشربة

الباب الخامس

مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة
في القرنين السابع والثامن للهجرة

تناولنا في الباب الرابع العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا ، ولاسيما الحج والعوامل الاقتصادية والصدقات والمؤسسات الخيرية التي كان لها أثرها في تكييف هذا الجانب من حياة المجتمع المكي، ودور المجاورين في ذلك المجتمع . ولأجل إكمال الصورة سنتناول في هذا الباب طبقات المجتمع المكي وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف ووصف أخلاق المكيين، وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة بينهم، وكذلك المواكب والاحتفالات والأعياد التي كانوا يحتفلون بها ، ثم نعرض لأزياء المكيين وملابسهم وأطعمتهم، وما إلى ذلك مما يعد جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية وقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول :

الفصل الأول

عناصر السكان في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة

لا حاجة بنا إلى أن نعيد إلى الأذهان أن فترة دراستنا تغطي جزءاً من العهد الأيوبي المتأخر، وشطراً كبيراً من العهد المملوكي، كانت مكة خلالها من المناطق التي حكمها أولئك وهؤلاء، وهكذا فإن دراستنا للأحوال الاجتماعية لا بد لها من أن تأخذ في الحسبان حقائق العهدين المذكورين، بالنسبة لعناصر السكان وطبقات المجتمع الذي أصبح خليطًا من عناصر مختلفة . وسنحاول فيما يأتي استعراض أوضاع كل عنصرمن هذه العناصر :

١- **الأمراء (الأشراف)** : كان أمراء مكة - كما سبق وبينّا في الفصل الثاني من الباب الأول - من أسرة الأشراف الحسنيين . وفي سنة ٥٩٧ هـ استطاع قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني الينبعي الذي يتصل نسبه بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) أن ينتزع إمارة مكة من أمرائها الهواشم من بني فليتة[١].

أما السبب الذي شجع الشريف قتادة على الطمع في الحكم، فهو انهماك أمرائها الهواشم من بني فليتة في اللهو والظلم[٢]. ولقد ذكر ذلك الفاسي بصراحة عندما ترجم للشريف قتادة بن إدريس، فقال أن سبب طمعه في إمرة مكة " ما بلغه من انهماك أمرائها الهواشم بني فليتة على اللهو وتبسطهم في

---

(١)الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٠ .
الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٧ .

الفصل الخامس

المجاورون وأثرهم في الحياة الاجتماعية

لم يكن المجاورون عنصراً سلبيًا في المجتمع المكي يتلقى فقط التأثير بالمحيط الجديد الذي يعيش فيه، بل إن المجاورين كانوا يعيشون في صميم المجتمع فيؤثرون فيه ويتأثرون به . ولا بد أنهم حملوا معهم الشيء الكثير من عادات مجتمعاتهم الأصلية وتقاليدها ، ونشروها في مكة دون قصد منهم .. هذا ويلاحظ :

١- بأن أكثر هؤلاء كانوا من المصريين والشاميين[١]، وخصوصًا المصريين . ولقد كان هناك بعض العراقيين[٢]والمغاربة[٣]واليمنيين، وربما يرجع السبب في كثرة الأولين إلى قرب الشام ومصر من الحجاز . وعلى الرغم من قرب العراق من الحجاز،فلا نجد منه مجاورين كثيرين في فترة دراستنا ، ولعل ذلك يعود إلى اضطراب الأحوال السياسية في العراق خصوصًا بعد سقوط بغداد على أيدي المغول، مما شغل علماء العراق أو من بقي منهم على قيد الحياة، شغلوا بهموم بلادهم وبالنكبة التي حلت بها . والمعروف أن كثيراً من العلماء لاقوا حتفهم بسبب الغزو المغولي، لذلك لم يبق من العلماء العراقيين من يمكن أن يجاور بمكة، خصوصًا وأن العلاقات بين حكام العراق وحكام الحجاز لم تكن دائمًا على مايرام، إذ كان العراق خاضعًا لحكم المغول والدول التركمانية في حين كانت الحجاز خاضعة لحكم المماليك، وكان حكام القطرين المذكورين في عداء دائم وخصومة مستمرة، ومع ذلك فقد رأينا بعض المجاورين من العراقيين

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٧ ، ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

في أوائل القرن السابع، مثل طه بن بشير الإربلي والخضر بن السراج الإربلي، وقد مر ذكرهما .

هذا ويبرز سبب آخر ساعد على زيادة عدد المجاورين من مصر والشام، هو أن الأيوبيين والمماليك حكام مصر والشام في الفترة التي تغطيها هذه الدراسة، كانوا - كما تقدم - هم المسيطرين على الحجاز، فكان ذلك يحقق للمصريين والشاميين ميزة ظاهرة، ونوعًا من الأمن لا يجده العراقيون واليمنيون والمغاربة[1]. إذ صارت الحجاز ومصر والشام أقاليم تابعة إلى مملكة واحدة .

٢- كما يلاحظ أن أكثر المجاورين كانوا من العلماء والزهاد، أما الباقون فمن الذين نفاهم الحكام، فجاءوا من مصر قسراً، أو من كبار التجار الذين جاءوا يقضون شيخوختهم بجوار البيت الحرام . ولقد كان هؤلاء المجاورون خيراً وبركة على مكة، سواء كانوا علماء أو تجاراً[2]، فقد أفادت المدينة المقدسة بعلمهم وبأموالهم .

٣- ويلاحظ أيضًا أن المجاورة لم تكن قاصرة على قضاء سنوات في أواخر العمر هي سنوات الشيخوخة، بل قد تكون للراحة وطلب الصفاء الروحي، يعود بعدها المجاور وقد تجدد نشاطه إلى حياة العلم و العمل، فابن عساكر أمين الدين أبو اليمن عبدالصمد بن عبدالوهاب بن زين الأمناء الدمشقي[3]المتوفى سنة ٦٨٦ هـ قد جاور (أربعين سنة)، ومحمد بن مطرف الأندلسي جاور ستين سنة[4]، ومحمد بن علي القرطبي الأنصاري المراكشي المتوفى في سنة ٧١٠ هـ، فقد جاور سبع سنوات[5]، وإبراهيم بن عبدالوهاب القاهري جاور حتى تعلم

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٦ .

(٥) ابن حجر : الدرر ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

وخلا إلى نفسه، ثم عاد إلى القاهرة ودرس واشتغل بالتجارة[1]. كل هذا يدلنا على أن المجاورة كانت نوعًا من الراحة النفسية في ظلال البيت الحرام، فالمجاور ينعم بالطمأنينة ويستفيد مما يأخذه عن العلماء . أما الذين يجاورون في أواخر حياتهم، فقد كانوا قلة، نجد أحيانًا بينهم الموتورين ماليًا أوسياسيًا، أو المعزولين من مناصب الدولة، أو المصابين بحدث من خطوب الأيام[2].

٤- والملاحظ أن المجاورين كانوا قليلين في القرن السابع، ثم بدأوا يكثرون في القرن الثامن، حتى صاروا جزءاً كبيراً من المجتمع المكي . في الغالب أن هذا يرجع إلى ماقام به سلاطين المماليك من إنشاء المدارس والأربطة والزوايا، وما أنفقوه على المجاورين، وما قاموا به من تنظيم لشئونهم، حيث لم يعد المجاور يخشى ألا يجد المأوى أو الطعام، إذا ضاقت به سبل العيش بجوار البيت . وقد أوقفت أعداد غير قليلة من الأربطة لهذا الغرض - كما رأينا سابقًا - .

ولقد تولى كثير من المجاورين مشيخة الأربطة، مثل علي الأصغر بن محمد ابن أحمد بن الحسن، وكان يتولى إلى جانب مشيخة المجاورين، النظر في شؤون رباط السدرة ورباط كلالة وبعض المياضئ، وقد حضر الدروس واجتمع بالشيوخ[3]، ومنهم أحمد بن أبي طالب الحمامي (توفي سنة ٧٠٩ هـ بمكة)[4] الذي أثر في الحياة العلمية بمكة أثراً ظاهراً، وقد درس عليه ابن مسلم القاضي وشمس الدين بن صلاح والإمام الذهبي .

٥- ومن المجاورين من جاور للعبادة مثل فخر الدين التوزري المغربي[5]، ومحمد بن مطرف الأندلسي الذي جاور ستين سنة - كما أسلفنا - وكان يطوف

---

(١) السخاوي : الضوء، ج ١ ، ص ٧٣ .

(٢) السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٣) السخاوي : الضوء، ج ٥ ، ص ٢٨١ .

(٤) ابن العماد : المصدر السابق، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٥) ابن العماد : المصدر السابق، ج ٦ ، ص ٣٢ .

في اليوم والليلة خمسين مرة، حتى توفي سنة ٧٠٧ هـ، وشيخ الحرم ظهير الدين محمد بن عبدالله البغدادي الذي جاور بمكة أربعين عامًا[١] وتوفي سنة ٧٠٨هـ .

وقد ذكر ابن بطوطة عدداً من المجاورين مثل العالم الصوفي عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي، فقد كان كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار، وكذلك نجم الدين الأصفوني الذي ترك القضاء في صعيد مصر ليجاور الحرم المكي، فقد كان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم، وعز الدين الواسطي، فقد كان من أصحاب الأموال الطائلة، إذ كان تاجراً كبيراً في بلده فكان يبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويحمل ذلك إلى بيوتهم بنفسه[٢] .

وهكذا فقد شكل المجاورون في الحرم على مر العصور جزءاً من مكونات المجتمع المكي . ولقد كان سلاطين المماليك في مصر دائمًا يعملون على راحة سكان الحرمين (الأصليين والمجاورين)، ويقدمون لهم المساعدات المالية، ويرسلون لهم الحبوب والصدقات كلما ألمت بهم أزمة اقتصادية .

ويتضح مما ورد في ثنايا هذا الفصل أن المجاورين، وكان بينهم العلماء قد اختلطوا بالمجتمع المكي وأن الكثيرين منهم أمضوا بقية حياتهم في مكة، ولا بد أنهم تصاهروا مع أهلها مما ترك آثاره في تكوين المجتمع المكي سواء كان من حيث الأزياء أو العادات والأطعمة، فضلاً عن التأثير العلمي، إلا أن المؤرخين - مع الأسف الشديد - لم يعيروا هذه الأمور أي اهتمام، وبالتالي فلم يسجلوا لنا شيئًا عنها يفيدنا في رسم صورة واضحة لتلك الآثار .

---

(١) ابن العماد : المصدر السابق، ج ٦ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) ابن بطوطة، ج ١ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

الباب الخامس

مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة
في القرنين السابع والثامن للهجرة

الفصل الأول : عناصر السكان :

١- الأمراء (الأشراف)
٢- القواد
٣- سكان مكة الأصليون
٤- المجاورون
٥- الرقيق
٦- المرأة المكية

الفصل الثاني : القضاة وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف في مكة :

١- القضاة
٢- أئمة الحرم
٣- أغوات الحرم
٤- السدنة
٥- التجار
٦- المهندسون
٧- الصنّاع

الفصل الثالث : الاحتفالات والأعياد والمواكب في مكة :

١- صلاة الجمعة
٢- الاحتفال بالموالد
٣- الأعياد
٤- الاحتفال بالحج
٥- الاحتفال برؤية الأهلّة
٦- احتفالات رمضان
٧- ختم القرآن
٨- الاحتفال بكسوة الكعبة
٩- الاحتفال بقدوم المحمل

الفصل الرابع : العادات الاجتماعية والأزياء والأطعمة في مكة :

١- أخلاق المكيين وعاداتهم
٢- الأزياء والملابس
٣- الأطعمة والأشربة

الباب الخامس

مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة

في القرنين السابع والثامن للهجرة

تناولنا في الباب الرابع العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال فترة دراستنا، ولاسيما الحج والعوامل الاقتصادية والصدقات والمؤسسات الخيرية التي كان لها أثرها في تكييف هذا الجانب من حياة المجتمع المكي، ودور المجاورين في ذلك المجتمع . ولأجل إكمال الصورة سنتناول في هذا الباب طبقات المجتمع المكي وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف ووصف أخلاق المكيين، وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة بينهم، وكذلك المواكب والاحتفالات والأعياد التي كانوا يحتفلون بها، ثم نعرض لأزياء المكيين وملابسهم وأطعمتهم، وما إلى ذلك مما يعد جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية وقد قسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول :

الفصل الأول

عناصر السكان في مكة خلال
القرنين السابع والثامن للهجرة

لا حاجة بنا إلى أن نعيد إلى الأذهان أن فترة دراستنا تغطي جزءاً من العهد الأيوبي المتأخر، وشطراً كبيراً من العهد المملوكي، كانت مكة خلالها من المناطق التي حكمها أولئك وهؤلاء، وهكذا فإن دراستنا للأحوال الاجتماعية لا بد لها من أن تأخذ في الحسبان حقائق العهدين المذكورين، بالنسبة لعناصر السكان وطبقات المجتمع الذي أصبح خليطًا من عناصر مختلفة . وسنحاول فيما يأتي استعراض أوضاع كل عنصرمن هذه العناصر :

١- **الأمراء (الأشراف)** : كان أمراء مكة - كما سبق وبينًا في الفصل الثاني من الباب الأول - من أسرة الأشراف الحسنيين . وفي سنة ٥٩٧ هـ استطاع قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني الينبعي الذي يتصل نسبه بالإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) أن ينتزع إمارة مكة من أمرائها الهواشم من بني فليتة[١].

أما السبب الذي شجع الشريف قتادة على الطمع في الحكم، فهو انهماك أمرائها الهواشم من بني فليتة في اللهو والظلم[٢]. ولقد ذكر ذلك الفاسي بصراحة عندما ترجم للشريف قتادة بن إدريس، فقال أن سبب طمعه في إمرة مكة " ما بلغه من انهماك أمرائها الهواشم بني فليتة على اللهو وتبسطهم في

---

(١)الفاسي : شفاء الغرام ، ج ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٠ .
الجزيري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٧ .

الظلم "[1] إلا أنه لم يضرب أية أمثلة على لهوهم وظلمهم . والمعروف أن الأشراف بصورة عامة قد توالوا على حكم مكة وبعض أنحاء الحجاز حوالي سبعة قرون ونصف القرن إلى أن أجلاهم عنها السعوديون في سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م .

أما بالنسبة لبني فليتة فإن بالإمكان تتبع سيرة البعض منهم وفيها تتجلى بعض المساوئ التي نسبها إليهم الفاسي من ذلك مثلاً ماحدث في سنة ٥٧١هـ من نهب مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم الحسني المكي لكثير من الحجاج بمكة، وأخذ أموال التجار المقيمين بها وإحراق كثيرمن الدور[2] وذلك بسبب عزله عن الإمارة وتولية أخيه داود بدلاً منه على يد أمير الحاج طاشتكين[3] ومثل ذلك ماحدث في سنة ٥٨٧ هـ عندما أخذ داود أخو مكثر (وكان أميراً على مكة) ما في الكعبة من أموال، وطوقًا كان يمسك الحجر الأسود[4].

وعلى أي حال فقد تولى أمر مكة الشريف قتادة آنف الذكر وتوالى بعده أبناؤه وأحفاده[5] إلا أن أمرهم لايهمنا هنا، ويكفي ماسبق ذكره في الفقرة المتعلقة

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٠ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٩ .

(٣) الأمير طاشتكين بن عبدالله المقتفوي ويلقب بمجير الدين، وكان أمير الحاج العراقي الذي حج بالناس ستًا وعشرين حجة، وتوفي سنة ٦٠٢ هـ .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

(٥) وأشهر الأشراف الذين تولوا بعد قتادة :

١) ابنه الحسن الذي تولى الإمارة سنة ٦١٨ هـ (انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت دار صادر ، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ج ١٢ ، ص ٤٠١ .

٢) راجح بن قتادة (٦٢٩ - ٦٣٩هـ) انظر : زامباور : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

٣) الحسن بن علي بن قتادة والذي يكنى بأبي سعد (٦٣٩هـ- ٦٥١هـ) .
الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ١٦٠ .

٤) جماز بن حسن بن قتادة الذي تولى إمارة مكة سنة ٦٥١هـ - انظر الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣، ص ٤٣٥ .

٥) غانم بن راجح بن قتادة الذي تولى إمارة مكة سنة ٦٥٢هـ (انظر : الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٧، ص ٤) .

بالأحوال السياسية في مكة، ولعل من المفيد أن نؤكد أن الأشراف الذين حكموا مكة خلال فترة هذه الدراسة بدءاً بالشريف قتادة كانوا حريصين على حسن معاملة الأسر المقيمة في مكة، فقد كان أبو عزيز قتادة عادلاً منصفًا ناقمًا على عبيد مكة والمفسدين بها . وكان الحجاج في أيامه مطمئنين آمنين على أنفسهم وأموالهم[1]، ولقد حرص بعض الأشراف على اجتناب الأحكام القاسية وكانوا يميلون إلى طرق الصلح في فض المنازعات، وكذلك كانوا يشتهرون بالتواضع للصغير والكبير[2]والذي يهمنا قوله إن الأمراء كانوا يؤلفون الطبقة العليا في المجتمع المكي خلال فترة دراستنا، وينتمي إلى هذه الطبقة أعضاء الأسرة الحاكمة .

٢- **القواد** : ويطلق هذا الاسم على أتباع الأشراف ومواليهم[3]وقد كان لهؤلاء قوة عظيمة ونفوذ كبير، إذ كانوا يستطيعون ترجيح كفة أحد الأطراف المتنازعة

= ٦) محمد بن حسن بن علي بن قتادة المعروف بأبي نمي (٦٥٢هـ - ٧٠١هـ) (انظر الفاسي : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥٦) .

٧) رميثة بن أبي نمي تولى الإمارة في فترات متقطعة (٧٠١هـ - ٧٤٦ (انظر الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٠٣) .

٨) حميضة بن أبي نمي وأخوه رميثة توليا الإمارة في فترات متقطعة .
انظر الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ .

٩) وغيرهم من الأشراف مثل عجلان بن رميثة ، وعنان بن مغامس ومحمد بن عجلان ، وحسن بن عجلان (٧٩٨م - ٨٢٩هـ) .
أنظر الفاسي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٩) .

(١) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع . - ط٢ . - ، بيروت دار الجيل ، ١٩٧٤هـ، ص ١٢٣ .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٥٧ .

(٢) الطبري : الأرج المسكي (مخطوط) ورقة (٨٥) .
السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) ومن هؤلاء القواد القائد سالم (أو سليمان) بن عبدالله الريحاني المكي (ت ٦٤٢هـ) وقد وصفه ابن المستوفي بأنه كان أسود اللون وعنده فصاحة وله اهتمام بسماع الحديث، ابن المستوفي : المصدر السابق قسم (١) ص ١٤١ .

على الإمارة، عندما يقع النزاع عليها بين الإخوان من سلالة قتادة . ويعد الأمراء والقواد هم الطبقة التي تحتل قمة المجتمع المكي، ولهم السيادة على الطبقات الأخرى كلها، وهي سيادة عشائرية تتميز بكثير من مقومات الروح الديمقراطية التي تعتمد على حل المشكلات عن طريق شيوخ الأسرة، ولم يكن للإمارة قوة عسكرية تعتمد عليها في إقرار السلطة وتنفيذ ماتريد تنفيذه إلا أن الشريف حسن بن عجلان عمد في القرن الثامن للهجرة إلى جمع مئات من الترك لتكوين مثل هذه القوة[1]. ومع ذلك فإن الأمراء كانوا دائمًا بحاجة إلى دعم القواد ومساندتهم، إذ كانوا يؤلفون قوة يحسب حسابها، وسوف نورد ذكر عدد من القواد في مكة من أهل الفترة التي ندرسها، كنماذج لأعضاء هذه الطبقة :

١- يحيى بن ملاعب المكي، أحد القواد المعروفين بالملاعبة، ولقد هاجم مكة مع رميثة ابن أبي نميّ . وقد قتله أصحاب عطيفة بن أبي نمي سنة ٧٣٦هـ[2].

٢- واصل بن عيسى المكي المعروف بالزباع، أحد القواد المعروفين بالزبابعة، ولقد كان وزير رميثة بن أبي نمي صاحب مكة، ودخل معه مكة عندما هاجمها سنة ٧٣٦هـ فقتله أصحاب عطيفة[3].

٣- منصور بن عمر بن مسعود المكي، أحد أعيان القواد المعروفين بالعمرة، ولقد كان حيًا في سنة ٧٣٧هـ[4].

الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٤٨٦

(١) ومن هؤلاء القواد القائد سالم (أو سليمان) بن عبدالله الريحاني المكي (ت ٦٤٢هـ) وقد وصفه ابن المستوفي بأنه كان أسود اللون وعنده فصاحة وله اهتمام بسماع الحديث، ابن المستوفي : المصدر السابق قسم (١) ص ١٤١ .

الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٤٨٦ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٤٥٠ .

٤- سنان بن عبدالله بن عمر العمري المكي، أحد أعيان القواد المعروفين بالعمرة، توفي في عشر الثمانين وسبعمائة[١].

٥- راجح بن محمد بن عبدالله العمري المكي، من أعيان القواد المعروفين بالعمرة، وله مكانة عند الشريف أحمد بن عجلان صاحب مكة، توفي سنة ٧٨٦هـ[٢].

٦- لقاح بن منصور، أحد القواد العمرة توفي مقتولاً سنة ٧٨٧هـ[٣].

٧- هبة بن أحمد بن سنان بن عبدالله بن عمر بن مسعود المكي لقد كان من أعيان القواد المعروفين بالعمرة، توفي بعد سنة ٧٩٠هـ بقليل[٤].

٨- وديّ بن أحمد بن سنان العمري المكي، من أعيان القواد العمرة ، توفي مقتولاً سنة ٧٩٧هـ[٥].

٩- علي بن سنان بن عبدالله العمري المكي، أحد القواد العمرة وكان وزيراً لأحمد بن عجلان ، توفي سنة ٨٠٥هـ[٦].

١٠- مبارك بن وهاس بن علي بن يوسف المكي، من أعيان القواد المعروفين باليواسفة، وقد حصل على مكانة عند الشريف عنان بن مغامس في ولايته الثانية على مكة، وفي الأخير أظهر التزهد في خدمة السلطنة والاستغناء عن الحكام، ودام على ذلك حتى توفي سنة ٨١٠هـ[٧].

١١- سنان بن راجح بن محمد العمري، من أعيان القواد المعروفين بالعمرة،

---

(٣) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٣٨٣ .
(٤) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٢٨٥ .
(١) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٦١٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ١١١ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٦٥ .
(٥) المصدر نفسه ، الجزء نفسه ، ص ٣٨٦ .

حضر الحرب التي كانت بين أميري مكة حسن بن عجلان وابن أخيه رميثة بن محمد في سنة ٨١٩هـ بالمعلاة، وقد أصابه جرح في ذلك اليوم من بعض الأشراف تعلل به حتى مات سنة ٨١٩هـ بمكة[١].

١٢- علي بن جسّار بن عبدالله بن عمر العمري المكي، من أعيان القواد العمرة، ولقد كان عالي الرتبة عند أحمد بن عجلان صاحب مكة، لأنه كان أخاه لأمه، ومازال مرعيًا عند ولاة مكة حتى وفاته سنة ٨٢٠هـ[٢].

١٣- عبدالكريم بن علي بن سنان بن عبدالله العمري، من أعيان القواد المعروفين بالعمرة[٣]، توفي بمكة سنة ٨٢٠هـ[٤].

ويؤلف هؤلاء القواد طبقة مهمة من طبقات المجتمع المكي تأتي في الأهمية بعد طبقة الأشراف.

ولقد يتبادر إلى الذهن أن وجود فئة تسمى القواد يستدعي وجود جيش منظم يقودونه إلا أن المصادر لاتشير إلى وجود مثل هذا الجيش ولذلك تعذر عليّ تخصيص فقرة تتناول هذا الموضوع.

٣- سكان مكة الأصليون: لقد كان سكان مكة الأصليون من قبيلة قريش علاوة على بعض القبائل والعشائر البدوية الأخرى التي استقرت في جوار قريش. أما القرشيون الأوائل فقد خرجوا من مكة مع الفتح الإسلامي إلى الشام والعراق واستقروا فيهما. ولم يبق من القرشيين الأصليين في مكة إلا القليل

---

(٦) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٧٥.

(٧) المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٣١.

(١) الفاسي: العقد، ج ٤، ص ٦١٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٦، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٣) ويبدو أن المقصود بالعمرة هم الذين ينتسبون إلى شخص يسمى عمر، وأولهم ذكراً " منصور بن عمر ابن مسعود " سالف الذكر (انظر رقم ٣) ومثله " يحيى بن ملاعب " الذي وصف بأنه أحد القواد المعروفين بالملاعبة (انظر رقم ١) وهكذا.

(٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٧٦.

وهناك أيضًا عدد قليل منهم يشتغلون بالزراعة[1] في ضواحي مكة .

ومن خلال التراجم التي أوردها لنا تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي في كتابه «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» توصلنا إلى معرفة أسماء بعض الأسر التي اشتهرت في مكة وسوف نورد عدداً منها على سبيل المثال :

آل ابن ظهيرة القرشي، آل الفاسي، آل ابن فهدالهاشمي، آل النويري، آل الطبري، آل الشيبي، آل القسطلاني، آل الحسني، آل العقيلي، آل المخزومي، آل الهاشمي، آل الشيباني، آل اليافعي، آل العسقلاني .

ولقد برزت في مكة بعض العائلات في المجالات العلمية والاجتماعية وهذه العوائل ليست في الأصل مكية، بل بدأت في الاستقرار فيها خلال القرنين السادس والسابع . ومن أشهرها عوائل النويريين والظهريين وأمثالهم حتى أصبحوا جزءاً لايتجزأ من المجتمع المكي .

ولاشك أن عدداً من هذه الأسر كان معروفًا في مكة خلال فترة دراستنا كما لايزال عدد منها معروفًا حتى الآن . وهذه الأسر تتمتع بمكانة محترمة في مكة، ولكنها دون مكانة الأسرة الحاكمة والقواد .

٤- **المجاورون** : سبق وأن تناولنا في فصول سابقة هؤلاء المجاورين وذكرنا مساهمتهم في النشاط العلمي ، مما لاداعي لتكراره ، وإنما نريد أن نعيد إلى الأذهان بأن هؤلاء كانوا من الحجاج الذين وفدوا من مختلف بقاع العالم الإسلامي ، على مر العصور واستقروا في مكة ، واختلطوا مع سكانها ، والتحموا بالمجتمع عن طريق المصاهرة، وأصبحوا يشكلون جزءاً أساسيًا من

---

(١) الطبري : الإرج المسكي (مخطوط) ، ص ٩٠ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

هيكلها الاجتماعي، إلا أنهم ليسوا في الأصل من طبقة واحدة فمنهم صغار الأمراء الذين أبعدهم السلطان[1]، ومنهم أعيان الناس والعلماء وطلبة العلم، والزهاد، ومنهم من وفد للاستقرار والموت بجوار الكعبة، ومنهم التجار[2]، الذين قدموا للمتاجرة، ثم فتحوا حوانيت لهم بمكة واستقروا فيها على طوال السنين، وتزوجوا وأنجبوا فيها . وينتمي هؤلاء إلى أجناس مختلفة، فمنهم البخاري والهندي والجاوي والأفغاني والشامي والمغربي والحضرمي واليمني والمصري . وكان لكل فريق منهم حي خاص به حيث يعيش أفراده وفق عاداتهم وتقاليدهم التي جاءوا بها، لكن ذلك لايعني أنهم كانوا معزولين عن بعضهم البعض، أو عن بقية السكان، بل كانوا يخالطون بعضهم بعضًا، ويتصاهرون ويتعايشون حتى انصهروا في بوتقة واحدة، كانت حصيلتها المجتمع المكي، واشتهرت من هؤلاء أسر معروفة بأسمائها، فمن الهنود هناك " الدهليون" و "بنو عبدالحق" و "بنو كمال"، ومن الجاوية "المنكابو" و "الزينيون" و "البنايون"، ومن البخاريين "بنو كشك"، ومن الحضارم "باحارس" و "باحكيم" و "بازرعة"، ومن الشاميين "بنو هاشم" و "الجبري"، ومن الترك "القرملي" و "الداريزنلي" ومن المصريين "النويريون" و "الفيومي" و "الأسيوطي" .

والملاحظ أن تجارة مكة كانت في الغالب بأيدي هؤلاء المجاورين، إذ لم يكن لأهل مكة إلا بعض المتاجر الصغيرة، وربما كان هذا سببًا في حساسية أهل مكة تجاه الغرباء، لأنهم يشعرون أن الوافدين سلبوهم الكثير من مصادر رزقهم .

---

(١) أدرك سلاطين المماليك والعثمانيون من بعدهم، أن غالبية المسلمين إن لم يكن كلهم يتوقون إلى قضاء فترة من حياتهم في مكة المكرمة، ولذا عهدوا إلى إبعاد من يخشونه إلى المدينة المقدسة تحت غطاء من الإكرام، وهم يعلمون أن المعبد لا يملك في هذه الحالة سببًا للتذمر إذ هو مرسل إلى أم القرى. وممن أبعد في القرن الأخير مدحت باشا المصلح العثماني المعروف (وقد توفي في الطائف) إذ خشي السلطان من افتتان الناس بأفكاره .

(٢) الفاسي : شفاء، ج ١، ص ٨٤ - ٨٥ .

ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف، القاهرة ١٩٣٨م، ص ١٨ .

وكان أبناء الجيل الأول من الوافدين لايحسنون العربية ولايستطيعون التفاهم بها مع السكان الأصليين الذين لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، إلا أن الجيل الثاني مايلبث أن يتعلم العربية كأبنائها وكان من نتائج التنوع في أصول أبناء المجتمع المكي وامتزاج هذه الأجناس بعضها ببعض بالزواج والمصاهرة والمعاشرة، أن صار أكثر أهل مكة خليطًا في خلقهم وخلقهم . وهذا التنوع أدى إلى التنوع في الملبس، العمامة الهندية إلى جانب القفطان المصري والجبة الشامية، ولكن يجمع بين هؤلاء جميعًا رباط ديني متين هو انتماؤهم إلى الإسلام . وفضلاً عن ذلك دخلت في كلام المكيين ألفاظ تركية وهندية وفارسية[1]، وكثر فيهم اللحن وتحريف اللغة الفصحى، باستثناء الأشراف الذين حرصوا على التمسك بالفصحى . والملاحظ أن كثيراً من المطوفين يجيدون أكثر هذه اللغات حتى يسهل بها التفاهم بينهم وبين حجاج بيت الله الحرام من مختلف الجنسيات[2]. هذا ما لاحظه بعض الرحالة المتأخرين، وأظنه يصدق إلى حد بعيد على ماكان عليه الحال في الفترة التي تغطيها دراستنا، لأن عوامل تنوع عناصر السكان كانت تفعل فعلها في تلك الفترة مثلما كانت تفعل في مختلف فترات التاريخ المكي .

ولقد مرّ بنا في ثنايا هذه الدراسة، ولاسيما عند حديثنا عن المدرسين والعلماء وأرباب الأوقاف، أن أغلبهم كان ينتمي في الأصل إلى بلاد أخرى غير الحجاز، وغير مكة بالذات . ولذا فليس هناك حاجة بنا إلى إيراد الأمثلة أسوة بما فعلناه في الفقرات الأخرى .

---

(١) كنت أود الإتيان بنماذج للكلمات الأجنبية التي دخلت في كلام أهل مكة، إلا أن المصادر التي بين أيدينا لم تورد شيئًا من ذلك، ولكن الرحالين المتأخرين (من أمثال رفعت والبتنوني) قد لاحظوا وجود شيء منها .

(٢) البتنوني : الرحلة الحجازية الطبعة الثانية ، مصر ، المطبعة الجمالية ، ١٣٢٩هـ ، ص ٤١ - ٤٢ . رفعت : مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ . السليمان : المرجع السابق ص٢٠٩-٢١٠ .

٥- **الرقيق** : أما بالنسبة للرقيق في الحجاز فقد سبق أن تناول موضوعه الدكتور عبدالله محمد السيف في كتابه "الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي"[(١)]، فذكر أن له أثراً في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وأنه كان موجوداً في الحجاز منذ العصر الجاهلي، فقد كانت قريش تتاجر بالرقيق . وقد أشار إلى العوامل التي أدت إلى كثرة الرقيق في الحجاز والمتاجرة به . فلقد راجت هذه التجارة في العصر الأموي، ساعد على ازدهارها تطور المجتمع وارتفاع مستوى المعيشة ووفرة الأموال لدى السكان، فضلاً عن حاجتهم إلى الرقيق للخدمة في البيوت أو للأغراض الاقتصادية، لذلك توجه التجار بالرقيق نحو الحجاز لبيعه فيها . ولقد كثر الرقيق عند الأشراف وأبناء الصحابة، ولكنهم كانوا يعاملونهم بالحسنى ويشاركونهم في حياتهم في السراء والضراء . وللرقيق دور في الحياة الاجتماعية في الحجاز، فهم ليسوا من جنس واحد، فهناك الفرس والروم، والبربر والأتراك والأحباش والنوبة والزنج الذين لم يكن مرغوبًا فيهم لدى الناس كانوا يتهمونهم في عهد الفاسي بأنهم لا يؤمنون بالبعث[(٢)]. وكان كل من هؤلاء الأصناف يعرف ألوانًا من الأطعمة والأشربة والألبسة والعادات، عرفها أهل الحجاز منهم[(٣)]، كما نبغ منهم بعض الجواري في الغناء[(٤)]. هذا في الماضي البعيد، أما بالنسبة لأحوال الرقيق في مكة ودوره في الحياة الاجتماعية في القرن السابع والثامن للهجرة، فقد بحثت عنه في المصادر الأساسية التي تيسر لي الرجوع إليها، فلم أجد أي معلومات تلقي الضوء على تلك الأحوال ولكن هناك ذكراً للموالي، ولعل

---

(١) الكتاب مطبوع في سنة (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٢١٤ .
(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد : المقدمة ، القاهرة، طبعة دار الشعب، بدون تاريخ، ص ١٥٤.
(٤) السيف : المرجع السابق ، ص ٢٥١ حتى ص ٢٥٨ .

المقصود بهؤلاء فريق من الرقيق - إذ ورد ذكر مفتاح بن عبدالله البليني، المعروف بالزفتاوي نائب مكة، وكان من موالي الشريف أحمد بن عجلان، فأعطاه لأخيه السيد حسن بن عجلان وهو صغير، فنشأ في خدمته حتى كبر، فظهرت عليه بوادر النجابة والشهامة والشجاعة فأعجب به مولاه السيد حسن، ولما تولى مولاه إمرة مكة، قدمه في كثير من أموره وحروبه، واستنابه على مكة مرتين، وبعثه إلى الناصر فرج صاحب مصر في سنة ٨١٤هـ . ولقد كانت نيابته الأخيرة على مكة في سنة ٨٢٠هـ، لما توجه مولاه من مكة بسبب الفتنة التي عرضت بينه وبين بني عمه أولاد علي بن مبارك، وأولاد أحمد بن ثقبة، ومن انضم إليهم من القواد العمرة والحميضات، توفي مفتاح مقتولاً سنة ٨٢٠هـ[1].

وقول الفاسي " فصيّره لأخيه الخ ...". تدل على تملك أحمد بن عجلان له ليصبح بإمكانه تحويله إلى أخيه .

وكذلك ورد ذكر بعض الأشخاص الذين سموا بالخدم، والراجح أن المقصود بهم هم الغلمان (وفقًا لما ورد في معجم " الصحاح للجوهري" .

ولقد ذكر عدد من الخدم خلال فترة دراستنا نذكر منهم :

١- علي بن مسعود بن أحمد بن علي المكي، المعروف بالأزرق، لقد كان من خدام السلطنة بمكة، كتب للشريف أحمد بن عجلان في ديوانه ولابنه أيضًا، ولعنان في ولايته الأولى، ثم توزر له في ولايته الثانية، ثم لعلي بن عجلان، ثم لأخيه حسن بن عجلان، وتوفي سنة ٧٩٨هـ[2].

٢- عبدالله بن علي بن موسى المكي المعروف بالمزرق، لقد كان يخدم كثيراً الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة ويقبض له أموالاً من التجار يتوسط بينه وبينهم بخير، توفي سنة ٨٢٠هـ بمكة[3].

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٧ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .
(٢) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ .

ومهما يكن الحال فإن من أطلق عليهم اسم "الموالي" أو "الخدم" قد تولوا مناصب مهمة وبلغوا مراكز عالية لدى حكام مكة، بل إن واحداً منهم نال مرتبة " الوزارة"، أو مايشبه هذه المرتبة، وهذا ليس غريبًا أبداً في المجتمع الإسلامي الذي حظي فيه المماليك برعاية خاصة . ولانستبعد أنه قد وجد إلى جانب هؤلاء، رقيق (من الرجال والنساء) كان مخصصًا للخدمة العادية سواء في البيوت أو في المتاجر والحقول، مما قد عرف في مختلف عصور التاريخ، حتى تم تحريم الرقيق في القرن الأخير . وليس لدينا أي سبب يدعونا إلى الاعتقاد أن فترة دراستنا قد خلت من وجود الرقيق وإن لم يتردد ذكرهم في المصادر صراحة .

٦. **المرأة المكية :** الوضع الاجتماعي للمرأة المكية لم يكن يختلف عن أختها المرأة المسلمة في سائر أقطار العالم الإسلامي، فقد كانت مهمتها الأولى أداء واجبها كأم، التي كرمها الإسلام وجعل الجنة تحت أقدامها، ولكن ذلك لم يمنعها من طلب العلم، كما تقدم، فكان لها مشاركتها في الحقل العلمي . كذلك فإنها ساهمت بإنشاء مؤسسات البر وأعمال الخير، وما إلى ذلك من الوجوه التي لاأرى حاجة لتكرارها . إلا أنني سأكتفي هنا بالإشارة إلى دور آخر كان للمرأة فيه نصيب، كالقيام بوظيفة النظارة على الأوقاف ، أو توليتها لمشيخة بعض الأربطة، وهذه مناصب لا تسند عادة إلا لمن تميز بالكفاءة والصلاح والتقوى، الأمر الذي يدل على علو شأن المرأة المكية في الفترة التي تغطيها دراستنا، وفيما يأتي بعض الأمثلة على ذلك :

١- زينب بنت قاضي مكة وخطيبها محمد بن أحمد بن عبدالعزيز ابن القاسم العقيلي (٧٦٥هـ - ٨٢٣هـ)، فقد كانت لها مشاركة في العلم

إذ أجاز لها ابن أميلة وغيره من أصحاب الفخر بن البخاري، وكانت تشتهر بأنها ذات رياسة ومروءة وعقل، وكانت ناظرة على أوقاف والدتها أم الحسين بنت القاضي شهاب الدين الطبري[1].

تعيين إمرأة ناظرة على الأوقاف يدل على مكانة المرأة وقدرتها على إدارة تلك الأوقاف، كما يعكس الثقة التي تمتعت بها .

٢- زين العرب بنت عبدالرحمن بن عمر بن الحسين، وكانت محدثة جاورت مكة، وتولت مشيخة رباط بنت السقلاطوني، كما تقلدت مشيخة رباط الحرمين، وتوفيت سنة ٧٠٤هـ[2].

٣- عائشة بنت علي بن عبدالله بن عطية الرفاعي، وتعرف بالظاهرية تولت المشيخة[3].

هذه مجرد نماذج عثرنا عليها في المصادر التي راجعناها، ولعل هناك نماذج أخرى غير قليلة من هذا القبيل، فاتنا الاطلاع عليها، وهي على أي حال تدل بوضوح على أن المجتمع المكي كان بريئًا من عقدة التحفظ تجاه المرأة . إذ كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية، فكانت تتولى مشيخة الأربطة والنظارة على الأوقاف وتروي الحديث فيسمعه منها الرجال وتمنحهم الإجازة، وما إلى ذلك مما سبق الكلام عنه في موضعه .

---

(١) توفيت زينب هذه في سنة ٨٢٣ هـ .

الفاسي : العقد ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٢) كحالة : أعلام النساء ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(٣) لقد سبق وأن ذكرنا ترجمتها .

السخاوي : الضوء ، ج ١٢ ، ص ٧٧ .

الفصل الثاني

القضاء وأرباب الوظائف الدينية وأصحاب الحرف

بالنظر لأهمية منصب القضاء في حياة المسلمين، ولاسيما في مكة المكرمة حيث وجد قضاة للمذاهب الأربعة . وكذلك أئمة الحرم الذين تعددوا بتعدد المذاهب، وكانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية رفيعة في المدينة المقدسة لهذه الأسباب، رأينا أن نفرد لهم فصلاً خاصًا ونلحق بهم أغوات الحرم والسدنة . كما نتحدث بإيجاز عن أصحاب الحرف التي عرفت في فترة دراستنا .

١- القضاة :

عرفت مكة عدداً من العوائل التي اشتهرت بالعلم وتولت القضاء، حتى لكأنها شكلت طبقة قائمة بذاتها . ولأهمية هذه الأسر في الحياة المكية ولأهمية القضاء كمرفق حيوي في حياة المسلمين، سنتناول هذه الفقرة في دراستنا . ولقد كان السلطان المملوكي هو الذي يعين القضاة تعيينًا مباشراً ويعزلهم متى شاء، إذ كان القضاء يعد أهم المناصب بعد منصب ولاية مكة[١] .

ولقد حرص المماليك على تعيين قضاة أربعة، إذ كان قصدهم استخدام الفروق بين المذاهب للتسهيل على أنفسهم، مادامت المذاهب الأربعة جميعها معتبرة ومعترفًا بها عند أهل السنة . وقد قدموا القاضي الشافعي، لأن المذهب الشافعي كان أكثر المذاهب انتشاراً بمصر والشام، يتلوه المذاهب المالكي فالحنفي فالحنبلي[٢] . ومهما يكن الحال، فإن قضاة مكة كانوا من البيوتات العريقة .

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) السليمان : المرجع نفسه ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

فقد كان أكثر القضاة من الطبريين والظهيريين والنويريين والفاسيين . وقد حصل الطبريون على النصيب الأكبر لأنهم كانوا فريقين شافعية ومالكية، فربما تولى أحدهم قضاء الشافعية، وتولى الآخر قضاء المالكية أو تولى إمامتها.

وللأهمية التي تمتعت بها تلك الأسر، رأيت من المفيد إلقاء نظرة عليها، خصوصًا وأن للقضاء دوراً مهمًا في الحياة الاجتماعية واتصالاً مباشراً بجمهور الناس، لاسيما وأنهم كانوا يكلفون بأعمال إضافية أخرى غير القضاء، كالإشراف على شئون الحرم والأربطة والأوقاف والحسبة وغيرها، مما له علاقة وثيقة بحياة الناس .

أ - قضاة مكة الظهيريون :

أول من تولى قضاء مكة من هذه الأسرة قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن ظهيرة المكي المتوفى سنة ٧٩٢هـ[(١)]. وبعد سنوات تولى قضاء مكة محمد ابن عبدالله بن ظهيرة المولود سنة ٧٥١هـ، وكان قد درس بالحجاز والقاهرة والشام، وتزعم الشافعية بالبيت الحرام، وجمع له السلطان قضاء مكة والإشراف على الحرم والأوقاف والأربطة والحسبة . وكان من تلاميذه قاضي القضاة الحافظ والعالم الكبير شهاب الدين بن حجر العسقلاني، ولي محمد قضاء مكة مراراً وعزل عنه مراراً، وتوفي سنة ٨١٧هـ[(٢)]. وقد خلفه في القضاء ابنه محب الدين ابن ظهيرة المولود سنة ٧٨٩هـ[(٣)]والمتوفى سنة ٨٢٧هـ .

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ٥٣ .
العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، ص ٤٨٦ .

(٢) السخاوي : الضوء ، ج ٨ ، ص ٩٢ - ٩٥ .
ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة (١٣٥١هـ) ج ٧ ، ص ١٢٥ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٣) لقد درس على والده وعلى فقهاء مكة والمجاورين فيها وقد أفتى في حياة والده وولي القضاء بعد وفاته .
ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

ب - قضاة مكة الطبريون :

ينتسب قضاة هذه الأسرة إلى القاضي محمد بن محمد الطبري الشافعي الذي استمر في ولايته محمود السيرة مرضيًا عنه من الناس والسلاطين حتى توفي سنة ٧٣٠هـ[١]. وقد ذكر ابن بطوطة أنه كان قاضيًا لمكة عند حجته، ووصفه بقوله : "العالم الصالح العابد قاضي مكة نجم الدين محمد بن الإمام محيى الدين الطبري، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة، وخصوصًا في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين . وكان سلطان مصر الملك الناصر يعظمه كثيراً، وجميع صدقاته وصدقات أمرائه تجرى بين يديه . تولى القضاء بعده ابنه شهاب الدين أحمد[٢].

ج - قضاة مكة النويريون :

لقد انقسم الظهيريون والنويريون إلى فريقين : الأول وهو الأكبر من الشافعية، والآخر من المالكية . ولقد اشتهر من الأسرة النويرية القاضي كمال الدين محمد النويري الذي كان يتبادل القضاء مع شهاب الدين أحمد ابن ظهيرة، ودار بينهما صراع سنوات طويلة، انتهى في ٧٨٦هـ بعزل ابن ظهيرة وتولية أبي الفضل النويري . ولقد تولى القضاء بعده ابنه محب الدين الذي نقل بعد قليل قاضيًا إلى المدينة ليحل محل الحافظ زين الدين العراقي أستاذ ابن حجر العسقلاني[٣]. وقد كنت أتمنى أن أجد شيئًا في المصادر المتقدمة عن

---

(١) الفاسي : العقد، ج ٢ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق، ج ١ ، ص ١٦٩ .
الفاسي : المصدر السابق، ج ٣ ، ص ١٦١ .

(٣) ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، المجلد الأول ، ص ٣٨٠ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

موقف السلاطين من الصراع بين القضاة، إلا أنني لم أعثر على أي شيء يلقي الضوء على هذا الموضوع إلا أن السليمان يقول إنهم كانوا يعمدون إلى عزل جميع القضاة المتصارعين ولم يبين مصدره[1].

د – قضاة مكة الفاسيون :

وهم من الأشراف المغاربة من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وكانوا على المذهب المالكي، وأول من ولي القضاء منهم جد الأسرة القاضي أحمد بن علي الفاسي المكي المولود بمكة سنة ٧٥٤هـ[2] إلا أن أشهر رجالها وأعلمهم هو القاضي تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ[3] بمكة، ولقد ولاه السلطان الناصر فرج قضاء المالكية بمكة، فاستمر فيه حتى سنة ٨٢٠هـ، فعزل لمدة يسيرة ثم أعيد حتى توفي بمكة سنة ٨٣٢هـ .

من الواضح أن تقي الدين هذا لايدخل توليه القضاء ضمن فترة دراستنا، لكننا ذكرناه لمكانته الخاصة كمؤرخ للبلد الحرام، وعليه جل اعتماد الدارسين لتاريخ مكة .

هـ – قضاة آخرون :

كانت المنافسات العائلية أحد مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة خلال القرنين السابع والثامن للهجرة، ولاسيما في مناصب القضاء مما قد يجلب نقمة السلطان، وكانت نقمة السلطان على القاضي تعني عزله أو سجنه أو إخراجه من مكة، إذ كان الصراع بين الأسر على القضاء مقلقًا للسلاطين، فكانوا يعمدون في مثل هذه الحالة إلى عزل الجميع وتولية رجل محايد لاينتمي إلى أي

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٢) لقد سمع في القاهرة ومكة، وأخذ عن كثيرين بمصر وولي مشيخة الحرم ثم ذهب إلى المدينة حيث توفي بها .

السخاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ١ ، ص ٣٣١ .

من الأسر العريقة المعروفة*، ولكن سرعان ماتحاك الدسائس والوشايات ضده، فيعزل ليتولى الأمر من جديد أحد أعضاء تلك الأسر التي أسلفنا ذكرها[1].

وفي سنوات ٧٩٠ - ٧٩٧هـ سخط السلطان على الظهيريين والطبريين، فولى أحمد بن محمد القرشي العقيلي قضاء مكة وخطابتها وحسبتها ونظر المسجد والأوقاف والربط فيها، وبعد وفاته خلفه ابنه محمد . وهنا بدأت فترة من فترات العزل والتولية استمرت حتى وفاة القاضي محمد سنة ٨٢٣هـ . فقد عزل سنة ٨٠٣هـ، وتولى مكانه جمال الدين الطبري، ثم أعيد ثم عزل سنة ٨٠٦هـ ثم أعيد إلى أن عزل سنة ٨١٠هـ، ثم عزل بعد إعادته سنة ٨١٣هـ وعزل وأعيد مرات في هذه السنة، ثم تكرر العزل والتولية في سنوات ٨١٦ و ٨١٧، ٨١٩هـ، وفي سنة ٨١٧هـ توفي القاضي جمال الدين[2]. وولي القضاء واحد من آل ظهيرة[3]. ومع علمنا أن هذه الفقرة الأخيرة تقع خارج نطاق بحثنا، إلا أننا اضطررنا لذكرها لعلاقتها الوثيقة بما قبلها، وفيها ما يوضح حقيقة الأوضاع في تلك الفترة .

ومن القضاة الذين لاينتمون إلى الأسر التي تقدم ذكرها، طه بن بشير الإربلي الذي سماه الفاسي قاضيًا للحرم الشريف[4]. وكان قضاة المذهبين الحنبلي والحنفي قلة، ولم يشتهروا كشهرة قضاة الشافعية والمالكية . ويعد أحمد بن محمد بن سعيد الصاغاني الحنفي أول قاض حنفي تولى هذا المنصب

---

(١) السليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .
(٢) الفاسي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧١ - ٣٧٥ .
(٣) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٧٨ .
(٤) ورد اسمه في العقد الثمين : طاهر بن بشير ، ج ٥ ، ص ٥، ولكن الاسم الصحيح هو كما ذكرنا وفقًا لما ورد في تاريخ إربل، القسم الأول، ص ٣٦٧، حيث أن ابن المستوفي كان يعرفه معرفة شخصية .
* هذه المعلومات أوردها السليمان، ولم أجد لها ذكرًا في المصادر المعاصرة للدراسة .

بمكة[1] في سنة ٨٠٦هـ. أما الحنابلة فلم يبرز منهم إلا قاض واحد هو قاضي القضاة عبداللطيف بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي المولود بمكة سنة ٧٧٩هـ، ولقد عين قاضيًا للحنابلة سنة ٨٠٩هـ[2]. ومعنى ذلك أن مكة كانت خالية من قضاة الحنابلة خلال الفترة الواقعة ضمن دراستنا .

وكان قاضي المذهب يتولى عادة إمامة المذهب في الحرم، إلا أن السلطان ربما عهد إلى شخصين من مذهب واحد، يتولى أحدهما الإمامة في مقام ذلك المذهب، ويتولى الآخر القضاء فيه[3]، أما مشيخة الحرم فكانت للشافعية، كما كان منهم قاضي القضاة، إلا في أوقات قليلة عندما يحتاط السلاطين -مثل قايتباي- في أمر الوظائف الدينية، فلا يولون شيئًا من ذلك إلا إلى الأصلح بعد التروي والتفحص[4].

٢ - ائمة الحرم :

سبق أن أشرنا عند حديثنا عن القضاة، إلى الإمامة في الحرم المكي لعلاقاتها بالقضاء، والمعروف أن للحرم المكي عدة أئمة، كل واحد منهم يؤم أتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة . وهذا ماينفرد به الحرم المكي، ويشكل وجوده ظاهرة لها انعكاساتها على الحياة الدينية والاجتماعية في مكة المكرمة، مما يستوجب تناول هذا الموضوع وذكر بعض أئمة هذه المذاهب . ولعل من المفيد أن نقول كلمة عن كيفية أداء أئمة المذاهب للصلاة في الحرم، باعتبارها ظاهرة خاصة ذات

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .
(٢) السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .
ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ .
(٣) الفاسي : العقد ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .
(٤) ابن العماد : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٧ .
السليمان : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

صلة بالحياة الاجتماعية، إذ كان الناس منقسمين إلى طوائف دينية لها شخصيتها المميزة ومصلاها الخاص بالحرم المكي، مما قد يؤدي إلى عزلة هذه الطوائف عن بعضها البعض، أو اتسام العلاقات بينها بشيء من البرود، لقد كان أول من يصلي الفريضة بالمسجد الحرام هو إمام الشافعية، ويصلي بعده إمام المالكية، ثم يصلي إمام الحنابلة . وربما صلى الحنبلي مع المالكي في وقت واحد، ثم يصلي الإمام الحنفي، وهو آخر الأئمة الأربعة كلهم صلاة في جميع الصلوات إلا المغرب، فإن الأئمة الأربعة يصلونها جميعًا في وقت واحد(١).

والأئمة الأربعة يقرب موقف بعضهم من بعض في الصلوات الليلية، لتقدمهم فيها إلى مواقفهم المعلومة لهم قرب الكعبة، وتتباعد مواقفهم في الصلاة النهارية لتأخرهم عن مواقفهم المذكورة إلى ماتحت السقائف فراراً من شدة الحر .

وإتمامًا للفائدة أرى من المفيد أن نذكر بعض أئمة الحرم، لأن ذكرهم يلقي بعض الضوء على التكوين السكاني لمكة المكرمة، خاصة وأن أغلبهم -على ما سنرى- يرجعون إلى أصول غير مكية، إلا أن معظمهم كانوا من العلماء الذين درسوا على كبار المشايخ، وقد سبق لنا أن ذكرنا طه بن بشير الإربلي الذي جاور بمكة ١٦ عامًا وأمّ في الحرم سبع سنين ودرّس به، وكان القاضي فيه أيضًا(٢). ولعل من الأفضل تصنيفهم حسب مذاهبهم :

1 - أئمة الحنفية ، ومنهم :

١- مجيب الدين أبو بكر بن أبي الفتح بن عمر السجزي الحنفي، وكان إمام الحنفية بالمسجد الحرام، وقد كان حيًا في سنة ٦١٦هـ(٣).

---

(١) التجيبي : المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(٢) ابن المستوفي : المصدر السابق ، القسم الأول ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ١٨ - ١٩ .

٢- يوسف بن أبي بكر السجزي، لقد كان حيًا في سنة ٦٤٥هـ[١].

٣- الحسن بن علي بن يوسف السجزي الحنفي الملقب بالبدر والمتوفى بعد سنة ٧١٠هـ[٢].

٤- أحمد بن علي بن يوسف السجزي الحنفي الملقب بالشهاب وقد توفي في سنة ٧٦٣هـ بمكة[٣].

٥- أبو الفتح بن يوسف بن الحسن السجزي الحنفي المكي توفي سنة ٧٧٣هـ بمكة[٤].

٦- علي بن محمد بن علاء الدمشقي الحنفي المعروف بابن الحريري المتوفى سنة ٨١٣هـ، لقد كان له اهتمام بحفظ السير والمغازي[٥].

والجدير بالذكر أن السجزي نسبة إلى إقليم سجستان، ويبدو أن أكثر أئمة الحنفية من الحرم كانوا من أصل سجزي، وإن كان بينهم واحد من الدمشقيين، ويبدو أنهم ينتمون إلى أسرة واحدة .

ب - أئمة المالكية ، ومن أبرزهم :

١- محمد بن عبدالرحمن بن محمد الهاشمي الصقلي، ولقد كان حيًا في سنة ٦٠٧هـ[٦].

٢- عمر بن محمد بن عمر التوزري المتوفى سنة ٦٤٤هـ[٧].

---

(١) الفاسي المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٦ .

(٣) لقد تولى التدريس بالمدرسة الزنجبيلية بمكة والمدرسة الأرغونية بمكة في سنة ٧٦٣هـ .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١١١ - ١١٢ - ١١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٨ ، ص ٨١ - ٨٢ .

(٥) السخاوي : الضوء ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(٦) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٥٨ .

٣- محمد بن عمر التوزري المتوفى سنة ٦٦٣هـ[١].

٤- أحمد بن محمد بن عمر التوزري المتوفى سنة ٦٧١هـ[٢].

٥- عبدالرحمن بن محمد بن عمر التوزري القسطلاني المكي المتوفى سنة ٧١٢هـ[٣].

٦- خليل بن عبدالرحمن بن محمد القسطلاني المكي المالكي المتوفى في سنة ٧٦٠هـ[٤].

٧- عمر بن عبدالله بن الضياء القسطلاني المكي المتوفى سنة ٦٦٥هـ[٥]بمكة.

٨- القاضي علي بن أحمد بن عبدالعزيز العقيلي الهاشمي المتوفى في سنة ٧٩٨هـ[٦].

٩- عبدالرحمن بن محمد بن محمد الحسني الفاسي المكي والملقب بالتقي ولد في مكة سنة ٧٤١هـ وتوفي فيها سنة ٨٠٥هـ[٧].

١٠- أحمد بن علي بن أحمد العقيلي النويري المتوفى سنة ٨٢٧هـ[٨]. وهنا يمكننا أن نلاحظ أن عدداً غير قليل من الأئمة المالكية في الحرم كانوا من المغاربة، كما هو واضح من نسبتهم "التوزريين" ولعلهم من أسرة واحدة .

---

(١) لقد درس بالمنصورية بمكة وكان شاعراً .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٨ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٢٤ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣١٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٣٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٠٨ - ٤١٠ .

(٨) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

ج - أئمة الحنابلة ، ومنهم :

١- سليمان بن شاذي بن عبدالله الأزجي (نسبة إلى باب الأزج من محلات بغداد) المقرئ، المتوفى سنة ٦٠٨هـ[١].

٢- نصر بن محمد بن علي الهمذاني النهاوندي البغدادي المعروف بالحصري، المتوفى سنة ٦١٨هـ[٢].

٣- عثمان بن موسى بن عبدالله الطائي الإربلي أصلاً الآمدي مولداً الحنبلي، المتوفى سنة ٦٧٤هـ[٣].

٤- علي بن عبداللطيف بن أحمد الحسني الفاسي المكي الحنبلي، المتوفى سنة ٨٠٦هـ[٤].

٥- عبدالقادر بن أبي الفتح محمد الحسني الفاسي المكي الحنبلي، المتوفى سنة ٨٢٧هـ[٥].

٦- محمد بن عثمان المحدث، وهو بغدادي الأصل مكي المولد، وكان نائبًا لأحد قضاة مكة[٦].

ونلاحظ هنا أن عدداً غير قليل من أئمة الحنابلة كانوا من العراقيين، ذلك أن المذهب الحنبلي كان واسع الانتشار في العراق في بعض حقب التاريخ الإسلامي.

---

(١) الفاسي المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٠٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٦ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٥٠ - ٥١ - ٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٧٠ .

(٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ .

د- أئمة الشافعية ، وأبرزهم :

١- عبدالله بن محمد الطبري المكي الشافعي المتوفى سنة ٦٩١هـ، إمام المساجد الكبرى الثلاثة، فقد أم بمكة، ثم بالحرم النبوي، ثم بقبة الصخرة من بيت المقدس[١].

٢- محمد بن أحمد بن الرضي الطبري المكي الشافعي، إمام مقام الخليل، ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفي عن سبع وثلاثين سنة[٢].

٣- شهاب الدين بن البرهان[٣].

وعلى الرغم من رواج المذهب الشافعي في مكة المكرمة وتقدم الشوافع على غيرهم، فإنني لم أهتد إلى أسماء أئمتهم غير التي ذكرت في هذه النبذة .

٣ - اغوات الحرم[٤]:

هم فئة من الناس يقومون بخدمة الحرمين الشريفين، ويكونون عادة من الخصيان وأول من استخدمهم في المسجد النبوي والمسجد المكي السلطان صلاح الدين الأيوبي في أيام ولايته . ومن قبل ذلك كان أمراء مكة والمدينة وولاتهما ومن جاور من الحجاج، يقومون بالخدمة في المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وهم المسئولون عن النظافة فيها حتى تولى السلطان صلاح الدين أمر بلاد الحجاز سنة ٥٦٨هـ، فأرسل فتيانًا من الأحابيش والصقالبة وكساهم بملابس

---

(١) لقد اهتم بالحديث والفقه، ودرس وأفتى .
الفاسي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٤) أغوات : جمع آغا ، المقصود بها خدام سيد السادات (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وأول من استخدم الخدم من الخصيان في الإسلام معاوية وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خادم خصي الأنصاري، عبدالرحمن : تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ماللمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي المطوي، المكتبة العتيقة نهج جامع الزيتونة، (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م)، ص ٥٣ .

بيضاء، وعلق عليهم شارات خاصة بهم . وهو أول من أرسى هذا التقليد لخدام الحرمين الشريفين، وقد أوقف صلاح الدين عليهم الأوقاف، وكان عددهم نحو عشرين معينين، ثم أوقف عليهم الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون وقفًا آخر يحصلون منها على جامكياتهم[١]. ومن وظائف هؤلاء الخدام حفظ المسجد نهاراً وحراسته، وقفل أبوابه ليلاً والاهتمام بالقناديل وسراج مايوقد منها في السحر، والدوران بعد صلاة العشاء بالفوانيس، وتنظيف المسجد (والروضة بالنسبة للمسجد النبوي كل جمعة)، وإيقاد البخور بالمسجد في أيام الجمع[٢]. والملاحظ أنه ليس في المصادر مايدل على تاريخ استعمال تسميته (آغا) بالنسبة للمسجد الحرام . والظاهر أنها لم تكن معروفة في فترة الدراسة، وإنما استعملناها للتسهيل على القارئ إذ أصبحت مألوفة لديه، وعلى أي حال فإن هؤلاء يؤلفون طبقة خاصة بهم لهم - كما رأينا - ألبستهم الخاصة وشاراتهم، كما أن لهم وظائف محدودة يؤدونها في خدمة الحرمين الشريفين .

ولقد ذكر الأزرقي[٣]، أن معاوية بن أبي سفيان هو أول من أخدم الكعبة العبيد ثم تبعه الولاة . أما حسين عبدالله باسلامة فقد ذكر في كتابه "تاريخ الكعبة المعظمة " أن القائمين بخدمة الكعبة الآن[٤]هم الأغوات وليسوا مماليك

---

(١) الجامكية : كلمة تركية تعني الراتب وتجمع على جوامك وجامكيات .
الأنصاري : المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٢) السخاوي : التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٦٣ .
(٣) الأزرقي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ .
الأنصاري : المرجع السابق ، ص ٥٣ - ٥٥ .
(٤) هذا مايقوله الأستاذ باسلامة، ولكنه لم يحدد الفترة التي تنصرف إليها كلمة "الآن" علمًا بأنه صنف كتابه في سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ولعل المعلومات التي أوردها عن حرية الأغوات تنطبق على ماكان معمولاً به في تلك السنة، ولكن بقية المعلومات تخص فترة لم تكن فيها أنوار الكهرباء معروفة، إذ كان من واجب الأغوات إيقاد الشموع والقناديل، كما تخص الفترة السابقة على إزالة المقامات الأربعة .
باسلامة : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

لأحد، بل هم أحرار قد اعتقوا من قبل أوليائهم، ولهم مرتبات شهرية تصرف من خزينة الدولة ولهم إدارة خاصة ورئيسهم منهم، وقد جرت العادة أن يكون الرئيس عليهم أقدمهم خدمة، ولهم بيت مال خاص بهم ويتوارثون بعضهم بعضًا، وخدمتهم منحصرة في تنظيف المطاف وحجر إسماعيل ومقام إبراهيم والفرش الحجري المحيط بدار المطاف ولهم وظائف أخرى مثل وضع الشماعدين على باب الكعبة من الغروب إلى بعد صلاة العشاء، ومن طلوع الفجر إلى الإسفار، ويضيئون القناديل التي على الأساطين المحاطة بصحن المطاف والمقامات الأربعة، ولهم في كل ذلك نظام خاص لهم حسب عاداتهم القديمة[1].

٤ - السدنة " سدنة الكعبة " :

هم الشيبيون الذين ينتسبون إلى شيبة بن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة المتوفى سنة ٥٩هـ[2]. وظل بنو شيبة يتوارثون سدانة الكعبة منذ اليوم الذي سلمهم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة بعد فتح مكة، وهم لايزالون في خدمتها حتى يومنا هذا . وقد جرت العادة أن تسلم إليهم كسوة الكعبة المشرفة ليقوموا بنزع الكسوة القديمة عنها وإكسائها بكسوتها الجديدة . ولقد ذكر لنا الفاسي في كتابه "العقد الثمين" أسماء أناس من بني شيبة قد تولوا السدانة في فترة دراستنا وسوف نذكر بعضًا منهم :

١- محمد بن غانم بن مفرج بن محمد بن يحيى بن شيبة المتوفى سنة٦٢٩هـ[3].

---

(١) باسلامة : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٢) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ١٩ .

(٣) الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

٢- يوسف بن أبي راجح محمد بن إدريس بن مفرج العبدري الشيبي المكي المتوفى سنة ٧٨٣هـ، وقد سماه الفاسي بشيخ الحجبة وفاتح الكعبة[١].

٣- محمد بن غانم بن يوسف بن إدريس بن مفرج الشيبي الحجبي المكي، لقد تولى فتح الكعبة نيابة عن يوسف بن أبي راجح الشيبي، إما في آخر عشر الثمانين وسبعمائة، وإما في أوائل عشر التسعين وسبعمائة[٢].

ولاشك أن هناك عدداً من السدنة أكثر من هؤلاء، توالوا على خدمة الكعبة خلال القرنين اللذين تقع فيهما دراستنا، إلا أنني اكتفيت بهذه الأسماء الثلاثة دليلاً على وجود السدنة خلال تلك الفترة . ولاحاجة بنا إلى القول أن هؤلاء كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية محترمة وبتقدير كبير، سواء ذلك من جانب الحكام أو من عامة الناس، لما للشرف الكبير الذي أسبغته عليهم خدمتهم لبيت الله الحرام .

ويبدو وجود عدد من الأعوان لسادن الكعبة (هم من آل الشيبي)، إذ يذكر ابن جبير[٣]عند وصفه لصلاة العيد بتكبير السدنة في ذلك اليوم، وفتحهم لباب الكعبة وجلوس زعيمهم عند بابها وسائرهم يقفون بين يديه، الأمر الذي يدل بوضوح على كونهم مجموعة من الأشخاص لا شخصًا واحداً .

٥ - التجار :

ويشكل التجار في مكة فئة مهمة من فئات السكان إذ هم عصب الحياة

---

(١) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٤٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٣) الرحلة : ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الاقتصادية في المدينة المقدسة، ولاسيما وأنها تعتمد كل الاعتماد على الاستيراد . ومن هنا جاءت أهمية هذه الطبقة من السكان التي تملك زمام الأسواق، خصوصًا وأن الحج أتاح لمكة وضعًا اقتصاديًا فريداً، إذ هو فرصة رائعة للتبادل التجاري بين الحجاج وتجار مكة . وقد كان بعض التجار بالأصل من أقطار أخرى ولكنهم آثروا الإقامة في مكة . وكان بعضهم يمارس المتاجرة مع البلدان الأخرى كاليمن . وعلى أي حال فقد بلغ بعض هؤلاء التجار منزلة لفتت إليهم أنظار المؤرخين، فنوهوا بذكرهم . ومجرد ذكر الفاسي لهؤلاء على قدم المساواة مع الأمراء والقواد والعلماء، يدل على علو شأنهم وأهميتهم في مجتمع مكة في عصرهم، وكان بعضهم* ينفق على الدولة، وبعضهم ينفق في وجوه الخير ومن هؤلاء التجار :

١- عبدالعزيز بن علي بن عثمان الأصفهاني الأصل (المتوفى سنة ٧٦٤هـ، بمكة) المكي المعروف بالعجمي، لقد كان أحد التجار بمكة[١].

٢- عمر بن علي الحلوي الأصل المكي (المتوفى سنة ٧٦٥هـ) من أعيان تجار مكة[٢].

٣- عبدالله بن علي بن عرفة المكي المتوفى سنة ٧٦٧هـ، وهو من تجار مكة[٣]

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج٥، ص ٢١١ .

* ذكر الفاسي بالنسبة لعلي بن محمد القرشي التاجر أنه "صرف كثيراً على الدولة فرعوه، وعلى عوام مكة فخدموه" ، إلا أنه لم يوضح المقصود بصرفه على الدولة (العقد، ج ٦، ص ٢٣٠) .

٤- عبدالعزيز بن سالم الجهني المكي، من تجار مكة، توفي في آخر عشر الستين وسبعمائة[1].

٥- موسى بن علي القرشي الهاشمي المكي، لقد كان يتردد إلى اليمن بسبب التجارة، ولقد حصل على شهرة عظيمة عند الناس بمكة واليمن، توفي بمكة سنة ٧٨٥هـ[2].

٦- جار الله بن زايد بن يحيى بن محيى السنبسي المكي، من تجار مكة، توفي سنة ٧٩٠هـ[3].

٧- عمر بن إبراهيم الزبيدي، من تجار اليمن تردد إلى مكة وأقام بها، توفي سنة ٧٩١هـ[4].

٨- عبدالله بن محمد بن علي ويعرف بالّهبي، نزيل مكة من أعيان التجار بعدن، وكان يتردد منها للتجارة إلى مكة ثم استوطن بها في أوائل عشر ٧٩٠هـ، توفي سنة ٧٩٧هـ[5].

٩- علي بن نجم الكيلاني، من أعيان تجار العجم سكن مصر مدة ثم انتقل إلى الحجاز، فأقام بالمدينة عدة سنين، ثم انتقل إلى مكة فتوفي بها سنة ٧٩٩هـ[6].

١٠- عبدالله الجوهري، من أعيان التجار القادمين إلى مكة، وقد جاور بها سنين، توفي سنة ٨٠٠هـ[7].

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .
(٢) المصدرنفسه ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٠٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٦ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .
(٦) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧١ .
(٧) لقد تولى عمارة عين بازان في سنة موته من مال تصدق به الملك الظاهر برقوق صاحب مصر ، فلم يتيسر جريانها على يده .
الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٣٠٤ .

١١- أحمد بن علي بن حسين المصري الأصل، المكي المولد، المعروف بابن جوشن، أحد التجار بمكة، ولقد وقف على الفقراء وقفًا بهدة بني جابر، توفي سنة ٨٠١هـ بمكة(١).

١٢- عبدالله بن إبراهيم بن حسين الحميري اليمني يلقب بالعفيف، نزيل مكة وأحد التجار بها، توفي سنة ٨٠٧هـ(٢).

١٣- حسين بن أحمد السراوي العجمي جاور بمكة، وكان من تجارها، وتوفي بها سنة ٨١١هـ(٣).

١٤- محمد بن محمد المعروف بابن هلال الأزدي الدمشقي، من تجار الشاميين المترددين إلى مكة، توفي سنة ٨١٢هـ(٤).

١٥- عمر بن أحمد المعروف بابن الحداد التعزي، لقد كان يتردد إلى مكة للتجارة، توفي سنة ٨١٣هـ بمكة(٥).

١٦- أحمد بن عبدالله المكي المعروف بأبي مغامس المتوفى سنة ٨١٥هـ(٦).

١٧- علي بن محمد بن حسب الله القرشي المعروف بالزعيم، لقد كان أكثر تجار مكة مالاً، لحصوله على الأموال التي خلفها أبوه . وقد صرف كثيراً منها على الدولة فرعوه، وعلى عوام مكة فخدموه ثم تغير حاله لنقص ماله، ولم يزل به النقص حتى احتاج وسأل وتوجه إلى اليمن حيث توفي فيها سنة ٨١٦هـ(٧).

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٠٣ .
(٢) لقد سبق ذكره في الأوقاف .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
(٣) لقد سبق ذكره في الأوقاف .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .
(٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٥ .
(٦) لقد كان مبدأ أمره صيرفيًا ، ثم حصّل دنيا ، وصار يداين الناس .
الفاسي : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٥ .
السخاوي : الضوء ، ج ١ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .
(٧) الفاسي : العقد ، ج ٦ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

١٨- عيسى بن موسى القرشي الهاشمي المكي، اهتم بالتجارة، توفي سنة ٨٢٥هـ بمكة[١].

١٩- علي بن هاشم بن علي بن مسعود بن غزوان القرشي الهاشمي المكي الشافعي، لقد سافر إلى اليمن للتجارة أكثر من مرة، توفي سنة ٨٢٦هـ بمكة[٢].

ومما تقدم يتضح لنا أن التجار كانوا يحتلون مكانة مرموقة بمكة وأن كثيرين منهم كانوا من الوافدين عليها من الخارج، ولكن كان هناك العديد من أبنائها .

٦- المهندسون :

وهناك فئة صغيرة من أصحاب الأعمال، لكنها مهمة جداً لعلاقتها بعمارة المسجد الحرام وعمارة مكة بصورة عامة، وهم المهندسون الذين برزمنهم :

١- أحمد بن الطولوني، المعلم شهاب الدين المصري، لقد تردد إلى مكة للهندسة على العمارة بالحرم الشريف وغيره من المآثر بمكة، آخرها سنة ٨٠١هـ مع الأمير بيسق الظاهري، وعاد إلى بلاده بعد الفراغ من العمارة في أوائل صفر سنة ٨٠٢هـ[٣].

٢- عبدالرحمن بن محمد بن علي بن عقبة المكي، مهندس الحرم . لقد كان خيراً، يخدم الناس كثيراً في العمارات، وكان خبيراً بالهندسة والعمارة، وقد مارس ذلك عدة سنين، توفي سنة ٨٢٦هـ[٤].

---

(١) العقد : المصدر السابق ، ص ٤٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .

(٣) هو الأمير بيسق الشيخي أمير آخور الظاهر برقوق توفي سنة ٨٢١هـ .
الفاسي : العقد ، ج ٣ ، ص ١٩٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ .

٧ - الصنّاع :

لاشك أن مكة عرفت بعض الصناعات والحرف المحلية، الأمر الذي يستتبع وجود طبقة من الصناع الذين يعملون في تلك الصناعات مثل صناعة السمن وصناعة بعض أنواع الحلوى، وهذه الحلوى تصنع من جميع الفواكه الرطبة واليابسة مضافًا إليها العسل والسكر المعقود[١].

ومن الصناعات الأخرى صناعة دبغ الجلود، فقد كانت تدبغ في مكة جلود الجمال والبقر والغزلان، وقد استمر انتعاش صناعة دبغ الجلود في مكة حتى سنة ٦١٠هـ، حيث توقفت تلك الصناعة لأسباب غير واضحة وذلك قبل نهاية عهد الشريف قتادة بحوالي سبع سنين[٢].

هذه هي الصناعات التي وجدنا لها ذكراً في المصادر، ولابد أن مكة عرفت عدة صناعات غيرها، كصناعة بعض الأدوات المنزلية، ومعدات الزراعة والنجارة والحدادة مما لاتخلو منه أي مدينة من المدن. ولاندري عما إذا كان أصحاب هذه الحرف كانوا ينتظمون في أسواق خاصة بهم، كما هو الشأن في أكثر المدن الإسلامية، أم كانوا يمارسون حرفهم في حوانيت متفرقة، كما أننا لانعرف عما إذا كانوا ينتظمون في نقابات حرفية لها تنظيماتها أم لا ؟

وبالإضافة إلى التجار والمهندسين والصناع، يوجد في مكة بعض الحناطين والجزارين والخياطين الذين نوهت بهم بعض المصادر[٣].

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

الفاسي : شفاء ، ج ١ ، ص ١١٥ .

الفصل الثالث

الاحتفالات والأعياد والمواكب في مكة

تؤلف المواكب والاحتفالات والأعياد مظهراً مهمًا من مظاهر الحياة الاجتماعية لأية مدينة من مدن العالم ، ولا بد لمن يدرس الحياة الاجتماعية من أن يمنح هذا الجانب منها الاهتمام الذي يستحقه . ومكة شأنها شأن كل المدن ، كانت لها حياتها الاجتماعية التي تميزت بمظاهر خاصة بها ، وقد تجلت بعض تلك المظاهر في بعض المواكب والاحتفالات والأعياد ، وسنحاول في هذا الفصل إلقاء بعض الضوء على هذه النواحي الاجتماعية ، ولا حاجة بنا إلى القول بأن معظمها ذو طابع ديني بالدرجة الأولى :

١ صلاة الجمعة :

كان لصلاة الجمعة في الحرم مراسم خاصة استمرت قرونًا عديدة ، ومن ضمنها الفترة التي تغطيها دراستنا . فقد كان من عادة أهل مكة في يوم الجمعة - وفقًا لوصف ابن جبير - "إذا قرب وقت الصلاة أن ينصبوا منبر الخطيب إلى جهة الكعبة التي تقابل المقام ، وهو بين الركن الأسود والركن العراقي ، فيسند المنبر إلى تلك الجهة، ويكون الخطيب عندما يعتلي المنبر مستقبلاً المقام ويرتدي ثوبًا أسود ، وعمامة سوداء وطيلسانًا أسود ، وهذه الكسوة هدية من الخليفة العباسي . وتظهر على الخطيب السكينة والوقار ، وقبل ذلك يأتي الخطيب وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يمسكهما رجلان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القوم في يده الفرقعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم

وخارجه، وهذا إيذان للناس بخروج الخطيب . ولا يزال ذلك الرجل مستمراً في إطلاق الفرقعة حتى يقرب الخطيب من المنبر ، والمؤذن الزمزمي - وهو رئيس المؤذنين بالحرم الشريف - ساع أمامه يلبس ثيابًا سوداء ، وعلى عاتقه السيف ممسكًا بيد الخطيب . وتركز الرايتان على جانبي المنبر ، فإذا صعد الخطيب أول درجة منه قلده المؤذن السيف ، فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يُسمع بها الحاضرين ، ثم يضرب في الدرجة الثانية والثالثة ، فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب رابعة ، وهتف داعيًا بدعاء خفي وهو يستقبل الكعبة . ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ، ويرد عليه الناس السلام . ثم يقعد ويؤذن المؤذن في أعلى قبة زمزم، فإذا انتهى الأذان خطب الخطيب خطبة يكثر فيها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول في أثنائها : "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف"، ويشير بإصبعه إلى البيت الكريم، ثم يقول " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف، وترضى عن الخلفاء الأربعة ، وعن سائر الصحابة وعن النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما ، على جميعهم السلام . ثم يدعو للخليفة العباسي[1]، ثم لأمير مكة[2]، ثم للسلطان ، ولولي عهده .وعند ذكر السلطان صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه في كل مكان[3] . لقد كان هذا الدعاء يحدث في عهد الأيوبيين، وهو نموذج صالح للعصر الذي

---

(١) لقد كان الخليفة أثناء كتابة هذا الوصف هو أحمد الناصر .

(٢) كان أمير مكة أثناء إلقاء هذه الخطبة مكثر بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن جعفر بن أبي هاشم الحسني .

(٣) لقد كان السلطان أثناء كتابة هذا الوصف هو صلاح الدين الأيوبي .
ابن جبير : المصدر السابق ، ص ٧٣ .

تلاه، عصر المماليك، إذ كانت الخطبة في عهد المماليك مماثلة لما سبق وفقًا للوصف الذي أورده ابن بطوطة، ولكن الخطيب كان يدعو فيها للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي بن الملك المؤيد داود الرسولي ملك اليمن، ثم للشريفين الحسنيين أميري مكة،سيف الدين عطيفة، وأسد الدين رميثة، ابني أبي نمي . وقد دعي في بعض السنين علاوة على ذلك لسلطان العراق، ثم قطع الدعاء له . هذا وإذا انتهى الخطيب من خطبته ، انصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة أمامه إشعارًا بانقضاء الصلاة[١].

٢- الاحتفالات بالموالد :

اعتاد المسلمون في كثير من الأقطار الإسلامية على الاحتفال بالموالد، ومنهم أهل مكة الذين كان لهم في فترة دراستنا احتفالات عديدة في مختلف المناسبات ، ومنها الاحتفال بالمولد النبوي[٢]، إذ كانوا يحتفلون احتفالاً عظيمًا بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا المولد يفتح باب الكعبة[٣].

ولقد ذكر البتنوني أن أهل مكة يحتفلون في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم[٤].

٣- الأعياد :

للمسلمين عيدان هما عيد الفطر وعيد الأضحى، وكان أهل مكة يحتفلون بهما احتفالاً دينيًا رسميًا يبلغ منتهى الروعة والأبهة، إذ كان حاكم مكة يخرج

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) لقد كان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم كثيرة وأهمها مولد النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان هذا المولد موسمًا جليلاً يعمل الناس فيه ميزات من ذهب وفضة وحلوى .
المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لبنان ، المجلد الثاني ، ص ٣٩٠ .

(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٤) البتنوني : المرجع السابق ، ص ٥١ .

لصلاة العيدين التي تؤدى في المسجد الحرام، وبعد انتهاء الصلاة كان الناس يتبادلون التهنئة بالعيد، ويلبسون أحسن الملابس ويتطيبون .

وقد وصف لنا كل من ابن جبير وابن بطوطة مظاهر عيد الفطر في مكة وصلاة العيد بالمسجد الحرام، فذكرا "أن من عادة أهل مكة أن يشعلوا المصابيح والشمع ليلة استهلال شهر شوال، يوقد على سطح الحرم كله وسطح المسجد المقام بأعلى جبل أبي قبيس . ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتسبيح والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاء . فإذا صلى الناس صلاة الصبح لبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد الحرام . وأول من يبكر بالوصول إلى الحرم الشيبيون، يفتحون باب الكعبة ويقيم زعيمهم جالسًا في عتبتها ، وسائرهم بين يديه إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه، فيطوف حول البيت سبعًا ، والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة، رافعًا صوته بالدعاء والثناء عليه" . وعندما يكمل الأمير السبع، يذهب إلى مصطبة قبة زمزم ، ويجلس فيها مع أبنائه ووزيره وحاشيته وقوف على رأسه . وعندما يحين وقت الصلاة "يقبل الخطيب بين رايتيه السوداوين، والفرقعة أمامه" على الصورة التي بيناها في صلاة الجمعة، ويكون عادة لابسًا ثيابًا سوداء . وعند وصوله إلى المقام يقوم الناس للصلاة، وبعد الانتهاء يخطب الخطيب خطبة بليغة، وإذا انتهى منها "أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ثم يقصدون الكعبة فيدخلونها"(١) .

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الأنصاري ، عبدالقدوس : مع ابن جبير في رحلته ، الطبعة الأولى المطبعة العربيةالحديثة (١٣٩٦هـ-١٩٧٧م) ص ١٨٨ .

ويختلف الوصف الذي يقدمه لنا ابن بطوطة[1] عن ذلك الذي كتبه ابن جبير، مما يجعل هذا الوصف ينطبق على احتفال العيد في القرنين السابع والثامن .

٤- الاحتفال بالحج :

من الملاحظ أن سكان مكة يستعدون في وقت مبكر لأعمال الحج وما ينبغي تقديمه من خدمات لحجاج بيت الله الحرام في أشهر الحج، سواء في مكة نفسها أو في المشاعر المقدسة، ولا سيما توفير السكن في مكة المكرمة للحجاج القادمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي، وما إلى ذلك مما يتطلبه استقبال أعظم أعياد المسلمين ، وهو عيد الأضحى المبارك الذي يسبقه يوم عرفة . ويصف لنا ابن بطوطة[2] الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة، ويقول : إذا أقبل أول يوم من أيام شهر ذي الحجة "تضرب الطبول في أوقات الصلوات بكرة وعشية، إشعاراً بحلول الموسم المبارك ، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات ، فإذا حل اليوم السابع من ذي الحجة ، خطب الخطيب بعد صلاة الظهر في المسجد الحرام خطبة بليغة، يعلم الناس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة، فإذا كان اليوم الثامن بكّر الناس بالصعود إلى منى ، وأمراء الحج القادمون من مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى . وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع ، ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائمًا" ، حسبما يقوله ابن بطوطة . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من منى بعد صلاة الصبح إلى عرفة، فيمرون في طريقهم بوادي محسر، ويهرولون اتباعًا

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٥-١٨٦ .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

للسنة[1]. ومن الطبيعي أن الناس بعد يوم الوقفة في عرفات يحتفلون بعيد الأضحى، ولكن أداء المناسك كالنحر ورمي الجمار ومالإلى ذلك، يطغى على ماسواه من مراسم العيد، حتى أن الرحالة من أمثال ابن جبير وابن بطوطة لم يولوا هذه الناحية شيئًا من اهتمامهم ، ومن الملاحظ أنهما لم يصفا ملابس الناس في العيد ، فقد اكتفى ابن جبير بقوله : "ولبس الناس أثواب عيدهم"[2] ، ولم يذكر شيئًا عن تبادل الزيارات أو إقامة الزينات وعزف الموسيقى، وما إلى ذلك .

٥- الاحتفال برؤية الأهلة وحلول بعض الأشهر :

لم يقتصر احتفال أهل مكة على الاحتفالات بالعيدين فقط، فقد كان هناك مناسبات حرصوا على الاحتفال بها ، ولا سيما من قبل أمراء مكة كالاحتفال بأول يوم من أيام الأشهر القمرية . فلقد جرت العادة أن يأتي أمير مكة في أول يوم من أيام الشهر يحف به كبار قواده، والقراء يقرأون أمامه، وهو يرتدي الملابس البيضاء ويتقلد سيفه، فيصلي عند مقام إبراهيم ركعتين ثم يقبل الحجر الأسود ، ويطوف حول الكعبة سبعة أشواط، وكلما أكمل الأمير شوطًا واحدًا كان يتجه لتقبيل الحجر الأسود ، وعندها يرتفع صوت رئيس المؤذنين الذي يقف على أعلى قبة زمزم، مرددًا عبارات الدعاء للأمير، ومهنئًا إياه بدخول الشهر الجديد[3] ، ثم يرتفع صوته مبتدئًا بقوله : "صبّح الله مولانا بسعادة دائمة ونعمة

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
وقد ذكر العياشي في رحلته أن أهالي مصر والشام في زمانه كانوا يحتفلون بليالي منى، فيقومون بإيقاد المصابيح ، ويكثرون من الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو .
العياشي : أبو سالم : الرحلة العياشية ، المغرب مكتبة الطالب ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
(٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
(٣) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٠- ١٨١ .

شاملة"[1]. ثم يتابع الدعاء بتهنئته بقدوم الشهر بعبارات مكللة بالدعاء والثناء، ثم يمدحه ويمدح سلفه في الأشواط السبعة. حتى إذا انتهى الأمير من الطواف، ركع عند الملتزم ركعتين، ثم ركع خلف المقام أيضًا ركعتين ثم انصرف، ويفعل مثل هذا إذا ذهب أو قدم من سفر[2].

والظاهر أن هذه المواكب الشهرية لم تتغير خلال فترة دراستنا، إذ جاء وصفها لدى ابن جبير مطابقًا لما وصفها به ابن بطوطة، رغم مرور ما يقارب ١٥٠ سنة بين رحلتيهما إلى البلاد الحجازية.

هذا وقد كان لأهل مكة احتفال خاص برؤية هلال رجب متميز عن غيره من الأشهر، إذ يرى أهل مكة قدوم رجب موسمًا من المواسم العظيمة، فهو أحد الأشهر الحرم، فإذا أهلّ هلال هذا الشهر، أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات إشعارًا بدخول الشهر. وقد ذكر ابن جبير أن أهل مكة يرون العمرة في شهر رجب تعادل الوقوف بعرفة[3]، وتابعه في ذلك ابن بطوطة.

وقد ذكر ابن جبير وابن بطوطة من بعده، أنه إذا دخل شهر رجب خرج أهل مكة في تلك الليلة إلى التنعيم ميقات المعتمرين، وكل يتأنق ويحتفل قدر استطاعته، والهوادج تنشر في بطاح مكة وشعابها، وتحتها الإبل قد زينت بأبهى أنواع الزينة. وعند ثبوت رؤية الهلال لدى الأمير، يأمر بضرب الطبول والأبواق إشعارًا بدخول الشهر، ويخرج الأمير راكبًا، ومعه أهل مكة يخرجون جميعهم حسب مراتبهم قبيلة قبيلة، وحارة حارة، حاملين أسلحتهم ممتطين

(١) ابن جبير : المصدر السابق، ص ٧٥.
(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٠.
(٣) ابن جبير : المصدر السابق، ص ١٦٠.
ابن بطوطة : المصدر السابق، ج ١، ص ١٨١ - ١٨٢.

خيولهم ومنهم من يلعب بالأسلحة، فيمضون ذلك اليوم فرحًا ولعبًا، ويظهرون فنونًا من ألوان الحرب والدفاع عن النفس ، ويستمرون في اللعب والسير مع الأمير بالركبان، حتى يصلوا إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالكعبة ثم يصلي عند الملتزم ركعتين ، ويصلي عند المقام ويخرج من باب الصفا إلى المسعى . وفي هذا اليوم يلبس أهل مكة أحسن لباسهم . وأهل مكة - بصورة عامة - يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله، وهي متصلة ليلاً ونهاراً ، كما أن أوقات الشهر كلها معمورة بالعبادة، وخصوصًا أول يوم منه، واليوم الخامس عشر واليوم السابع والعشرين[1] ، فإنهم يستعدون لها قبل ذلك ويحتفلون بها احتفالاً عظيمًا . وقد وصف ابن بطوطة[2] ليلة السابع والعشرين من رجب، فذكر أن مكة كانت مليئة بالهوادج، وعليها كساء الحرير والكتان، والجمال مقلدة بقلائد الحرير، والشمع والمشاعل أمام الهوادج، فإذا قضى الناس العمرة وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة، والمسجد الحرام يتلألأ نوراً ، وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية، لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة - رضي الله عنها - (أي مسجد التنعيم) . والأصل في هذه العمرة أن عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة، خرج حافيًا ماشيًا معتمراً ومعه أهل مكة، وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب، وانتهى إلى الأكمة فأحرم منها ، وبقيت هذه العمرة سُنّة عند أهل مكة[3] . واليوم التاسع

---

(١) لعل الاحتفال في هذا اليوم السابع والعشرين من رجب، هو كونه ليلة الإسراء حسبما يعتقد أغلب المسلمين .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٣) ابن جبير: المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١١٥ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .
السباعي ، أحمد : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

والعشرون من رجب مخصص لطواف النساء، حيث تحتفل نساء مكة في ذلك اليوم احتفالاً عظيمًا، ولا تبقى امرأة بمكة إلا وحضرت إلى المسجد الحرام[1].

أما ليلة النصف من شهر شعبان فهي من الليالي العظيمة أيضًا عند أهل مكة، فيكثرون من أعمال البر ويعتمرون ويجتمعون في المسجد الحرام فيطوفون ويصلون جماعات وأفراداً، وعلاوة على ذلك تبسط الحصر وتوقد الشموع والمصابيح[2].

٦- احتفالات رمضان :

أما بالنسبة لشهر رمضان، فقد ترك لنا ابن جبير وابن بطوطة وصفًا ضافيًا للاحتفالات في هذا الشهر المبارك، فقالا : إذا أهلّ هلاله كانت الطبول تضرب عند أمير مكة، ويبدأ الاستعداد للاحتفال في المسجد الحرام فيجددون الحصر، ويكثرون من إيقاد الشموع والمشاعل، حتى يتلألأ المسجد الحرام نوراً، وتقام فيه صلاة التراويح . ومن عاداتهم تناول طعام الإفطار في الحرم المكي في هذا الشهر . هذا وقد كان لمقامات المذاهب في المسجد الحرام تقاليد خاصة في هذا الشهرالمبارك، فالمالكية مثلاً يجتمعون في مقامهم على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، ويوقدون الشمع، "ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعته فيرتج المسجد لأصوات القراء" والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً، وعادتهم أنهم إذا أكملوا صلاة التراويح، وهي عشرون ركعة أن يطوف إمامهم وجماعته بعد كل ركعتين منها"، فإذا انتهت الأشواط السبعة، ضربت الفرقعة التي تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، وكان ذلك إيذانًا بالعودة إلى الصلاة . ثم يصلون ركعتين ثم يطوفون سبعة أشواط . وهكذا إلى أن تتم عشرين ركعة . ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون ، وسائر الأئمة لا يزيدون على العادة شيئًا .

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١١٥ .

(٢) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

"وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في المئذنة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعيًا ومذكراً ومحرضاً على السحور". وكذلك يفعل المؤذنون في سائر المآذن، فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه . وقد نصبت في أعلى كل مئذنة "خشبة على رأسها عود معترض قد علق عليها قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان، فإذا قرب الفجر وقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان ، وابتدأ المؤذنون بالآذان وأجاب بعضهم بعضًا"(١).

وقد ذكر السبيتي في كتابه "مستفاد الرحلة والاغتراب" أن جماعة من القراء المشهورين بحسن الصوت، وطيب النغمة، كانوا يجتمعون في كل ليلة من ليالي رمضان بإزاء باب بني شيبة من الحرم الشريف، فيقرؤن جزءاً من القرآن متراسلين بالتلاحين "على عادة القراء في المشرق" وكان لأولئك القراء واحد هو مقدمهم ، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن " . " وكان القراء يختمون القرآن في صلاة التراويح في كل ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان في داخل المسجد الحرام، ويحضرون خطيبًا فيخطب لهم إثر الختم ويدعو ويؤمّن الحاضرون"(٢).

ومن المعروف أن إحياء الليالي الوتر في العشر الأواخر من رمضان من الأعمال المندوبة، وكان لأهل مكة عناية خاصة بها سنذكرها - إن شاء الله - في الفقرة المتعلقة بختم القرآن .

٧- ختم القرآن :

لا شك أن إحياء الليالي الوتر في العشر الأواخر من رمضان هي من الأعمال المندوبة - كما أسلفنا - وكان لأهل مكة عناية خاصة بها ، ففي الليلة الحادية

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٢) التجيبي : مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

والعشرين من رمضان يختم أبناء مكة القرآن ، ويحضر هذه الليلة القاضي والفقهاء وجماعة من العلماء . وبعد أن يفرغ الصبية من القراءة يقوم بعضهم بإلقاء خطبة في الجالسين[1]، وعلى والد الصبي أن يقوم بعمل وليمة لهؤلاء الحضور في منزله . وفي الليلة الثالثة والعشرين من شهر رمضان يختم هؤلاء الغلمان القرآن أيضًا ويختار من بينهم غلام آخر ، ويقوم والده بالاحتفال به ، ويحضر للمشاركين جميع الفواكه الموجودة في البلد رطبة أو يابسة ، مع عمل الحلوى المصنوعة بأيديهم، ويوقد الشمع ويؤم الطفل المصلين في صلاة التراويح، مرتديًا أفخر ثيابه مكحل العينين مخضوب الكعبين إلى الزندين، ويعمل له منبر من الخشب يصعده لتلاوة القرآن . ويقوم المدرس بإلقاء خطبة يلهب بها أفئدة السامعين لتذكيرهم وحثهم . ثم يسكت الخطيب ، حتى يفرغ الغلام من قراءة القرآن . ثم يختتم الخطيب خطبته ذاكراً فيها البيت العتيق ومذكراً الناس بمآثر هذا البيت ، مشيراً إلى توديع الشهر المبارك . ثم يدعو للخليفة وللأمير . وفي الليلة الخامسة والعشرين يحضرون غلامًا آخر يقارب الغلام الأول سنًا ، ويحضرون الشموع والفواكه[2] ، ويزينون الحطيم[3]بقناديل الشمع المختلفة ، ويعمل محراب ومنبر من الخشب يحيطونه بالشمع ويحتفل الناس بشهادة هذا المنبر، ويعد هذا الاحتفال الثالث في العشر الأواخر، ويصلي بهم الصبي صلاة التراويح، ثم يخرج من محرابه، إلى المنبر مرتديًا أفخر الثياب ويسلم على

---

(1) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(2) ابن جبير : المصدر السابق ، ١٢٨ - ١٢٩ .

(3) الحطيم هو مابين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم .
الفاسي : العقد ، ج١ ، ص ٧٥ .

الحضور ويخطب في الناس بسكينة ووقار[1]، وبعد الانتهاء منها توزع الأطعمة على الحضور أو يذهبون إلى منزل والد الغلام لتناول الطعام .

ومن أعظم ليالي الوتر عند المكيين ليلة السابع والعشرين من رمضان، إذ يحتفلون بهذه الليلة أكثر من احتفالهم بالليالي السابقة، إذ يختتم فيها القرآن الكريم ويقام الاحتفال قرب مقام الشافعية ، وينصب فيه الخشب[2]حتى الحطيم، وتبسط الأطباق الصفراء حيث تعلق في الهواء بواسطة سلاسل مربوطة بنصب الخشب، وتوقد الشموع وتشعل بالأنوار . ويوقدون الشموع أيضًا على قبة زمزم، ويضعون صبيان مكة على شرفات الحرم، ويضعون في هذه الشرفات المشاعل ، ويتبارى الأطفال في سرعة إيقاد هذه المشاعل، ويرفع الأطفال أصواتهم قائلين : يارب يارب بصوت واحد، فيتقدم القاضي فيصلي بالناس صلاة العشاء، قارئًا سورة القدر ، ويكون باقي الأئمة قد ختموا القرآن في الليلة السابقة ، وتقام الصلاة خلف إمام واحد ، ثم يدعو بهم دعاء ختم القرآن، ويخطب فيهم خطبة يذكرهم فيها بأهمية القدر، ثم يختم خطبته بالدعاء للخليفة والأمير ويسلم عليهم . ويحتفلون بليلة التاسع والعشرين من رمضان بإيقاد الشموع والمشاعل، ويكثر إشعال الشمع في هذه الليلة ، ويجتمع أئمة المذاهب ويتدارسون علوم القرآن ، ومعهم الصبية يستمعون إلى هذه المناظرة[3].

---

(١) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) لعل المقصود أعمدة الخشب لتعليق القناديل والزينات، كما يتضح من بقية الوصف .
ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ١٨٥ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٣١ - ١٣٣ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

ويكون الختم في هذه الليلة في "المقام المالكي في منظر مختصر"[1]. هذا ويعد شهر شوال عند أهل مكة فاتحة أشهر الحج المعلومات ، فيحتفلون فيه بعيد الفطر المبارك - كما سبق أن ذكرنا - كذلك كان من عادة أهالي مكة أنهم يحتفلون باليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة احتفالاً عظيمًا ، ويسمون هذا اليوم "يوم إحرام الكعبة"[2].

٨- كسوة الكعبة :

لقد عرفت الكسوة قبل الإسلام وبعده ، وقد حرص الخلفاء على تقديم الكسوة التي رأوا تقديمها حقًا من حقوقهم . وكان خلفاء بني العباس يجهزونها من بغداد في كل سنة ، ولكن بعد أن قضى المغول على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ، انتقل هذا الشرف إلى ملوك الديار المصرية على عهد المماليك ، حيث قاموا بتجهيزها في كل سنة[3]، إلا أن ملك اليمن المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول، كان أول من بادر بكسوة الكعبة بعد مقتل الخليفة المستعصم ووضع بذلك تقليداً مهمًا ، فخطب له بسبب ذلك بمكة ، واستمر يخطب بعده لملوك اليمن على منابر مكة بعد الخطبة لسلطان مصر .

وكان أول من اهتم بعمل الكسوة الشريفة وخروجها إلى الحجاز في احتفال مهيب ، هو الظاهر بيبرس البندقداري ، وقد حج بيبرس في سنة ٦٦٧ هـ وعلق كسوة الكعبة بيده[4]. وفي سنة ٧٦١ هـ كسى الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الكعبة[5]، ولقد وصف لنا ابن جبير كسوة أمير الحج العراقي للكعبة ،

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) التجيبي : المصدر السابق ، ص ٤٦٥ .

(٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . - القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ج ٤ ، ص ٥٧ .

(٤) المقريزي ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ١١ ، ٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ١١ ، ٨٤ ، ٨٥ .

فذكر أنها سيقت من محلة الأمير العراقي إلى مكة على أربعة جمال يتقدمها القاضي الجديد وعليه كسوة الخليفة السوداوية ، والرايات تعلو على رأسه والطبول تصخب وراءه، ووضعت الكسوة في السطح المكرم أعلى الكعبة . وفي اليوم الثالث عشر من الشهر المبارك* ، اشتغل الشيبيون بإسبالها خضراء يانعة تقيد الأبصار حسنًا ، وفي أعلاها رسم أحمر واسع مكتوب في الصفح المواجه إلى المقام الكريم حيث الباب المكرم ، وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة ﴿إن أول بيت وضع للناس ...﴾[1].

ثم يواصل ابن جبير وصف الاحتفال والكسوة فيقول :

وفي سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له . "وتحف بالرسم طرّتان حمراوان بدوائر صغار بيض فيها رسم بخطّ دقيق يتضمن آيات من القرآن وذكر الخليفة أيضًا . فكملت كسوتها ، وشمرت أذيالها الكريمة صونًا لها من أيدي الأعاجم وشدة اجتذابها ، فظهرت للناظرين في أجمل منظر كأنها عروس"[2].

ويبدو لنا أن وصف ابن جبير للكسوة والاحتفال بها في زمانه ، يشبه إلى حد بعيد ، ما كان يجري في فترة دراستنا ، والمؤسف أننا لم نعثر في المصادر المتيسرة على شيء من هذا القبيل ذي علاقة بالقرنين السابع والثامن .

٩- الاحتفال بالمحمل :

يقصد به الجمل أو الجمال التي تحمل كسوة الكعبة ، ويضم المحمل إلى قافلة الحجاج[3]، وقيل إنه الهيكل الخشبي المخروط الشكل الذي كان يحلىّ بأجمل زينة، ويحمل على جمل ويصاحب قافلة الحج التي تقصد مكة والمدينة ومشاعر الحج ، قادمة من القاهرة ومن دمشق ، وفي أوقات كثيرة من بغداد ومن تعز،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٩٦) .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

* أي في سنة ٥٧٩ هـ ، وهي السنة التي حج فيها ابن جبير .

(٣) السليمان : المرجع السابق، ص ٧٧ .

ثم يعود إليهما في عودتهما إلى تلك الديار ، وقيل غير ذلك وقد قام الدكتور العنقاوي باستعراض جميع الأقوال والروايات المتعلقة بالمحمل في مقاله القيم (المحمل ، نشأته وآراء المؤرخين فيه)وقد استخلص الدكتور العنقاوي بأن المحمل في عصر المماليك كان يوصف بالمحمل السلطاني ورجح أن يكون المقصود به هو المهد الذي يرسل مع قافلة الحجاج ، ويرجع بأصله إلى العصر العباسي واستمر يرسل خلال العهد الأيوبي وقد ورث المماليك ذلك وليس هناك دليل على أنه من اختراعات الملكة شجرة الدّر أو السلطان بيبرس[1]. ولقد وصف القلقشندي لنا المحمل ، فذكر أنه يحمل على جمل وهو في "هيئة لطيفة وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر ، بأعلاه قبة من فضة مطلية"[2].

أما دوران المحمل (والمقصود دورانه في القاهرة) ، فقد جرت العادة أنه يدور في السنة مرتين ، الأولى في النصف الثاني من شهر رجب، والثانية في النصف الثاني من شهر شوال، ويكون دورانه يوم الإثنين أو الخميس ، ويكلف أصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين حوانيتهم قبل مرور المحمل بثلاثة أيام، ويحمل على جمل، ويبيت في ليلة دورانه داخل باب النصر[3]. وفي صباح يوم الدوران، يحمل المحمل على الجمل المذكور ، ويسير إلى أسفل القلعة (أي قلعة القاهرة) ، فتنهض إليه الشخصيات البارزة وأصحاب المناصب الكبيرة، ويسير أمامه الوزير والقضاة الأربعة والشهود والمحتسب وناظر الكسوة وغيرهم ، والمماليك يلعبون برماحهم . ويتحول ركب دوران المحمل إلى مايشبه المهرجان، فيسير الركب إلى الفسطاط ، ثم يعود إلى تحت القلعة ، كما يدور المحمل في

(١) عنقاوي : المحمل - نشأته وآراء المؤرخين فيه ، مجلة كلية الآداب ، المملكة العربية السعودية ، المجلد الثاني، السنة الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ، ص ٣٢٤ .
(٢) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٧ ، وباب النصر المذكور في المتن هو من أبواب القاهرة .

المرة الثانية عندما ينتصف شهر شوال[1]، وذلك استعداداً لخروج ركب الحجاج من مصر في طريقه إلى الأراضي الحجازية . والظاهر أن الغرض من دوران المحمل هو إثارة الرغبة في نفوس الناس لأداء فريضة الحج .

أما بالنسبة لاستقبال المحمل في مكة ، فلم أجد إلا معلومات قليلة جداً وهي :

إنه في سنة ٧٨٤هـ وصل من مصر آقبغا المارديني أمير الحجاج إلى مكة ، فخرج إليه الشريف محمد بن أحمد بن عجلان لملاقاته ، فعندما لقاه نزل عن الفرس وقبّل الأرض ، ثم انحنى ليقبل خف الجمل، ولكن هجم عليه أثناء ذلك اثنان من الفداوية فضربه أحدهما بخنجر في عنقه ضربة أدت إلى وفاته[2].

وهذا الاستقبال لم يكن الوحيد من نوعه ، ولعل أمراء مكة كانوا يخرجون في كل سنة لملاقاة المحمل ، خصوصًا وأن حمايته تسند عادة لواحد من أكابر أمراء المماليك الذين يهم أمراء مكة إرضاؤهم ، ثم إن العادة قد جرت بأن ترسل الهبات والصدقات صحبة المحمل، مما يجعل قدومه مناسبة تحمل تباشير الخير والرفاه لأهل مكة وحكامها ، ولذا استحق منهم حسن الاستقبال[3]. وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن وصول قوافل الحج المصرية والسورية إلى تخوم مكة الغربية، كانت مناسبة كبيرة تحمل الشريف وحاشيته على الخروج إلى هناك للترحيب بأمراء الحج ترحيبًا مناسبًا يليق بمقامهم ، وقد كانت العادة أن يقلد أمير الحج المصري - بصفته ممثلاً للسلطان المملوكي - الشريف حلة الشرف تأكيداً لتوليه منصبه كنائب للسلطان[4].

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٢) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
الصيرفي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣) انظر مقال الدكتور عنقاوي آنف الذكر .

(٤) الفاسي : العقد ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، انظر مقال :

ANKAWI, ABDULLAH :
The Pilgrimage to Mecca in Mamluk times .
Arabian Studies~ Cambridge 1974~ p. 155.

الفصل الرابع

العادات الاجتماعية والأزياء والأطعمة في مكة

وإكمالاً للصورة التي كان عليها المجتمع المكي خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ، لا بد لنا من إلقاء نظرة عاجلة على العادات الاجتماعية التي كانت سائدة بين أهل مكة في تلك الفترة، ووصف أخلاقهم وأزيائهم وأطعمتهم ، إذ بدونها لا تكتمل صورة الحياة الاجتماعية . ولكن لا بد لنا من الاعتراف بأن المصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا بمعلومات كافية لدراسة هذا الموضوع، وكل ما حصلنا عليه هو نزر يسير نقدمه في عرض موجز لبعض جوانب هذا الموضوع، فيما يأتي :-

١- أخلاق المكيين وعاداتهم :

لقد وصف ابن بطوطة أخلاق المكيين وعاداتهم، فذكر أن أفعالهم جميلة وأنهم يساعدون الضعفاء والمنقطعين والغرباء . "فمن مكارمهم أنه متى صنع أحدهم وليمة يبدأ أولاً بإطعام الفقراء والمنقطعين المجاورين، حتى أن أكثر المنقطعين المساكين يرابطون بجوار الأفران حيث يطبخ الناس خبزهم، فإذا حمل الواحد خبزه تبعه المساكين فيعطي كل واحد ما قسم له، حتى لو كان لديه رغيف واحد، فإنه يعطي ثلثه أو نصفه لطالبه، ولا يرده خائبًا حتى تطيب نفسه من غير ضجر . ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق وفي أيديهم القفف، وإذا اشترى الرجل منهم حاجته وضعها في إحدى قفف هؤلاء

وأرسله إلى بيته ، ليهيأ له طعامه منها ، ودون أن يخونه فيما أمنه ، وله أجرة معلومة من الفلوس"[1].

هذه المعلومات على ضآلتها تعكس الأخلاق العالية التي عرف بها أهل مكة في العصر الذي ندرسه ، كما تبين جانبًا من عاداتهم الكريمة، إلا أن الذي يهمنا علاوة على ماتقدم ، معرفة شيء من عاداتهم الاجتماعية وهو ما سنتناوله في الفقرات الآتية :-

أ- الزواج :

لا شك أن الزواج يمثل جانبًا مهمًا من العادات الاجتماعية في أي مجتمع ، وكان لأهل مكة عاداتهم الخاصة في الزواج ، فكان على الرجل أن يدفع المهر ، وفي ليلة الدخول على عروسه يقام حفل يحضره أصدقاء الطرفين وأقاربهم . ومن عادة الضيوف أن يحضر كل منهم معه ظرفًا مختومًا بداخله بعض النقود ويكتب عليه اسم صاحبه ومقدار النقود التي بداخله، كل على قدر حاله ، ويقدم ذلك للشخص المحتفى بزواجه، وكذلك تفعل النساء مع العروس . ولقد كانت العادة أن يخضب الرجل ليلة عرسه يديه ورجليه بالحناء ويخرج إلى الحرم ويؤدي الطواف، ثم يصلي ركعتين في مقام إبراهيم ويقبل الحجر الأسود . ثم يتقدم بالشموع إلى بيت عروسه ويدخل عليها ويبقى عندها سبعة أيام، وفي اليوم السابع يخرج فيجمع الظروف التي قدمت له من ضيوفه ويسمونها الطرح، ويستعين بما فيها من نقود لتكون له بمثابة رأس مال يفتح به دكانًا يعيش منه ، ويكون ماقدم له دينًا عليه يرده بدوره لمن يتزوج بعده من ضيوفه الذين حضروا العرس[2].

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٦، ٧ .

ب - الولادة :

ومثل الزواج، الولادة فإن ما يصحبها من تقاليد يؤلف جانبًا من العادات الاجتماعية، وهنا أيضًا معلوماتنا عن الاحتفالات بالولادة في مكة المكرمة قليلة جداً ، والذي نعرفه هو أن المولود يغسل بعد ولادته بأربعين يومًا ، فقد كانوا ينظفونه ، ويلبسونه ملابس جديدة بيضاء مزركشة بالقصب ، ويضعونه عند الكعبة المشرفة ثم يذهبون به إلى المدينة المنورة، ويدخلونه الحجرة الشريفة ويغطونه بستارتها ويدعون له بالخير[1].

أما بالنسبة لعادة إرضاع الأطفال في البادية وإقامتهم بين القبائل ، فهي معروفة في مكة في مختلف العصور في الجاهلية والإسلام ، إلا أنني لم أجد في مصادر هذه الفترة ما يؤيد استمرار هذه العادة ، وإن كنت أميل إلى أنها استمرت إذ بقي أعيان أهل مكة يرسلون أولادهم إلى البادية حتى مطلع القرن الماضي، كما أكد لنا بعض المطلعين .

ج - الوفاة :

لقد كان أهل المتوفى يقيمون عزاءهم ثلاثة أيام بعد صلاة المغرب فيستقبلون المعزين خلال تلك الأيام[2]. ولقد كان بعض أهل مكة يتبعون عادة الدفن إلى جوار بعض الصالحين، مثل عبدالله بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الطبري المكي خطيب الحرم المتوفى سنة ٧٠٤هـ[3]، فقد دفن إلى جانب أحد المشايخ

---

(١) البتنوني : المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .
مالكي : المرجع السابق ، ص ١١٣ .
لعل هذه المعلومات عن الولادة تصح على فترة دراستنا أيضًا .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١١٣ .

(٣) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

الزاهدين هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، وكذلك عبدالله بن الزين أحمد ابن محمد الطبري المكي المتوفى سنة ٧٨٧هـ، فإنه دفن بالمدينة المنورة في البقيع بقرب قبر إبراهيم ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلم[١].

ولقد ذكر البتنوني أنه عند موت الميت ، تصرخ امرأة من أقرب الناس إليه صرخة واحدة أو صرختين ، فتتوافد عليها النساء فيجدن الحناء بجوار قاعة الجلوس فتحني كل واحدة منهن يداً من يديها ثم يدخلن القاعة، وبعد أن يعزين صاحبة الفقيد بكلمات قليلة ، يجلسن ويتحدثن في شؤون مختلفة ثم ينصرفن، أما بالنسبة للميت فيأخذه بعض أقاربه ويدفنونه بغير احتفال ، وبعد دفنه يذهب الرجال لأهله للتعزية[٢]. هذا ماورد في الرحلة الحجازية، ولعله يصدق على فترة دراستنا أيضًا .

د- الاصطياف :

أملى جو مكة الحار وقسوته الشديدة على أهلها عادة عرفوها منذ القدم، فكانوا يهرعون إذا اشتد الحر إلى الأماكن الرطبة حيث الظل الظليل والهواء العليل، وهذا يتوفر في الواحات القريبة مثل مر الظهران ووادي نخلة، ولكن المكان المفضل عندهم هو الطائف، حيث كانوا يبعثون بصبيانهم ليقضوا فترة طفولتهم في هوائها النقي . ولقد حرص المكيون عبر القرون ولاسيما الأغنياء منهم على الذهاب إليها ، لطيب هوائها وكثرة مائها ومزارعها[٣]، بل إن البعض منهم حرص على تملك البساتين والمزارع فيها .

(١) الفاسي : المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٢) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص ٥٠ - ٥١ .
رفعت ، إبراهيم : مرآة الحرمين ، القاهرة ، (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م) ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .
(٣) البتنوني : المرجع السابق ، ص ٥١ .
رفعت ، إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وإنني وإن لم أجد أخباراً مؤكدة عن الاصطياف في فترة هذه الدراسة إلا أنني أرجح استمرار تلك العادة ، إذ لم تنقطع حتى العصر الحاضر .

٢- الأزياء والملابس :

لا شك أن أهل مكة كانوا يتزيّوْن بأزياء العرب في جاهليتهم وفي شطر من صدر الإسلام ، ولكنهم كتجار عرفوا منذ القدم مختلف الأزياء السائدة في الأقطار المجاورة، ربما اقتنوا بعضها ولبسوه ، كالبرود اليمانية التي اشتهرت عندهم ، ولكن اتصالهم بالأقطار المفتوحة وتكاثر المجاورين في مدينتهم أدى إلى تغيّر الصورة تغيراً جوهريًا ، خصوصًا بعد أن انتشر النفوذ الفارسي في الدولة العباسية، ولا سيما في الملبس والمأكل ، مما كان له أثره الكبير في ظهور الأزياء الفارسية في البلاط العباسي خاصة، ثم سرت العدوى إلى بقية أقاليم الدولة ومنها مكة المكرمة .

أما بالنسبة للباس في فترة دراستنا فلم تزودنا المصادر بمعلومات وافية، إلا بعض الإشارات العابرة التي لم نستطع من خلالها أن نعطي صورة واضحة عن اللباس، ولقد وجدت بعض المعلومات عن اللباس في مصادر ليست في فترتنا بل سابقة لذلك، ولعل هذه الملابس استمرت موجودة حتى فترة دراستنا ، وأهمها العمامة(١)وهي لباس للرأس، وكذلك القلنسوة التي توضع فوقها العمائم(٢) ، والقميص(٣)والإزار ، والسروال(٤)وهي الألبسة الداخلية، ثم هناك الجبّة(٥)

---

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر .
البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، طبعة بريل ، ليدن ، ١٣٢٢هـ، ج ٥ ، ص ١٠٢ .
(٣) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ،
تاريخ الرسل و الملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . - القاهرة : دار المعارف (١٩٦٠/١٩٦٩م) ج ٦ ، ص ١٨٩ .
ابن سعد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .
(٤) ابن سعد : المصدر السابق ، بريل ، ليدن ، ج ٥ ، ص ١٠٣ .
(٥) الطبري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٥٢ .

والبردة[1] والعباءة[2] والقباء[3]، والرداء[4] والملحفة[5] والبرنس[6] والخفاف[7]، والنعال[8] .

هذه الألبسة خاصة بالرجال، ويستخدم الرجال العنبر والورد[9] للتطيب وكذلك الحناء للزينة[10]. وكان بعض الرجال يستعملون الخواتم[11] .

أما بالنسبة لألبسة المرأة، فأهمها الخمار[12] وهو غطاء للرأس والغلالة وهي خاصة بالجواري[13]، والدراعة[14] وهي من الألبسة الداخلية للمرأة .

ولقد وصف ابن المجاور لباس المكيين في القرن السابع فقال إنهم كانوا يلبسون الثياب الفضفاضة، أما المرأة فتلبس القنوع والبرقع[15] .

ولقد اهتمت المرأة بزينتها ودليلنا على ذلك اهتمامها بطيبها وعطرها

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين : الأغاني، القاهرة (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٣ - ٤١١ .

(٣) ابن سعد : المصدر السابق ، بريل ، ليدن ، ج ٥ ، ص ١٣٤ .

(٤) الأصفهاني : المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٦٥ .

(٥) ابن سعد : المصدر السابق ، بريل ، ليدن ، ج ٥ ، ص ١٩٤ .

(٦) المصدر نفسه : ، بريل ، ليدن ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٢٨ .

(٧) المصدر نفسه : ، بريل ، ليدن ، ج ٥ ، ص ١٦١ .

(٨) المصدر نفسه : بريل ، ليدن ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٩) الجاحظ : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١١ .

(١٠) ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي ، صفة الصفوة ، حلب ، (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(١١) ابن سعد : المصدر السابق، بريل ، ليدن ، ج ٥ ، ص ١٤١ .

(١٢) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٢٠٤ .

(١٣) الأصفهاني : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

(١٤) ابن سعد : المصدر السابق ، بريل ، ليدن ، ص ٣٥٨ ٣٥٩ .

(١٥) ابن المجاور : المصدر السابق ، ص ٦ .

فاستعملت البخور[١] والعطر والريحان[٢]. أما السدر فقد كانت تستعمله لغسل الشعر، والحناء لإعطائه لونًا جميلاً[٣].

وتتزين المرأة بالحلي مثل القرط والخلخال[٤] والقلادة[٥].

٣- الأطعمة والأشربة :

لقد كان من عادة الحجازيين في الطعام والشراب، أنهم يقيمون الحفلات ويتفاخرون بتقديم أصناف الطعام المختلفة . وقد تنوعت الأطعمة في مكة، فمنها الهندي والشامي والمصري والخراساني وما إلى ذلك ، وتقدم هذه الأطعمة في الحفلات على سمط تمد على الأرض[٦].

وقد لاحظ ابن بطوطة أن أهل مكة يأكلون وجبة أساسية واحدة في اليوم بعد صلاة العصر، بينما تقتصر الوجبات الأخرى على التمر[٧]. أما ابن المجاور فيقول : إن أكلهم المفضل هو اللحم والسمن ، والخبز[٨]، هذه هي كل المعلومات التي عثرت عليها في فترة دراستنا ، ولقد وجدت معلومات أخرى عن الأطعمة والأشربة في الحجاز ولكنها سابقة لفترتنا ولعلها استمرت موجودة مثل الشريد[٩] وهو متكون من خبز مفتت ومبلل بمرق اللحم، والهريسة[١٠]، والعصيد[١١]، والفريك[١٢] والشواء[١٣].

---

(١) الفاسي : العقد ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ .
(٢) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ١٨٩ .
(٣) الأبشهي، شهاب الدين أحمد بن أبي الفتح :
المستطرف في كل فن مستظرف، بيروت ، (بدون تاريخ) ، ص ٩٥ .
(٤) الفاسي : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(٥) ابن سعد : المصدر السابق ، ص ٤٣٢ - ٣٤٣ .
(٦) رفعت، إبراهيم : المرجع السابق، ج ١ ، ص ٢٠٤ .
مالكي : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .
(٧) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
خصباك ، شاكر : ابن بطوطة ورحلته ، مطبعة الآداب للنجف الأشرف (١٩٧١م) ، ص ١٧٣ .
(٨) ابن المجاور : المصدر السابق، ص ٦ .
(٩) ابن سعد : المصدر السابق ، بريل ، ليدن ، ج ٤ ، ص ٦١ .
(١٠) الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ، تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ ، ج ٦ ، ص ١٦٨ .
(١١) ابن بكار، الزبير : جمهرة نسب قريش وأخبارها ، تحقيق محمد شاكر ، بيروت ، ١٣٨١هـ، ص٣٠٦ .
(١٢) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٦ .
(١٣) ابن الجوزي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٦، يقصد بالشواء اللحم الذي يشوى على النار .

ولقد كان أهالي الحجاز يتناولون بعض الحلويات والفواكه والخضروات مع وجباتهم ، وأشهر الحلويات التي عرفوها الفالوذج[1]، والخبيص[2].

أما أهم الأشربة عندهم فهي السويق [3]، واللبن[4]مع العسل[5]، وشراب الزبيب[6].

وقد ذكر ابن بطوطة أن أهالي مكة اشتهروا بالتأنق في الملبس والمأكل والمشرب ، فكانوا معروفين بنظافة ملابسهم وأكثر لباسهم الأبيض ، ويستعملون الطيب والكحل والسواك . ونساء مكة بارعات الجمال وذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبًا . وهن يطفن بالبيت كل ليلة جمعة، فيذهبن في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن ، فيبقى في الحرم أثر طيبهن بعد ذهابهن[7].

وفضلاً عن ذلك فمن الملاحظ أن أهل مكة كانوا يجمعون في مساكنهم كثيراً من أدوات الزينة والزخارف والرياش الثمينة كالبسط النادرة[8]ولكن المعلومات عنها قليلة إذ لم يتعرض الرحالون وابن بطوطة منهم إلى وصف أدوات الزينة والأثاث .

---

(١) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ص ١٨ .
الفالوذج : هو لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن .
الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٢) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ص ١٧٦

(٣) ابن سعد : المصدر السابق ، ج ٤ ، قسم ١٠، ص ١٠٩ . والسويق يؤخذ من الشعير والحنطة .

(٤) الأصفهاني : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٥) الطبري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩٢ .

(٦) مالك ، أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك التميمي : المدونة ، الطبعة السادسة ، مصر ، ١٣٢٣هـ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ .

(٧) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٨) البتنوني : المرجع السابق ، ص ٤٩ .

الخاتمة

هذه الدراسة ماهي إلا محاولة متواضعة لدراسة الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة . ولقد بذلت كل جهد ممكن لاستقراء المصادر التي تعرضت لأخبار هذه الحقبة واستخلاص المعلومات ذات العلاقة بالموضوع . وغني عن القول أن الأحوال الثقافية والاجتماعية لا يمكن أن تكون بمعزل عن الأوضاع السياسية ولا بد للدارس لتلك الأحوال من الإلمام بالأوضاع السياسية ، ولهذا اشتملت الدراسة على فصل خصص لتلك الأحول، هذا وقد توصلت أثناء دراستي إلى بعض النتائج التي أجملها فيما يأتي :-

١- إن المسجد الحرام كان أكبر المؤسسات التعليمية في مكة، إلا أنه لم يكن المؤسسة التعليمية الوحيدة في مكة المكرمة، بل كان هناك مؤسسات تعليمية أخرى أدت دورها في الحركة العلمية في مكة، مثل الكتاتيب والأربطة والمدارس، ولكن المسجد الحرام يبقى هو المؤسسة الكبرى للتعليم في المدينة المقدسة .

٢- على خلاف ما اشتهر عن مؤدبي الأطفال من صور تصورهم بقلة العلم وضعة المكانة ، فإن المؤدبين "مؤدبي الأطفال" بمكة ماكانوا على تلك الشاكلة إذ تصدى لتعليم الأطفال أناس يمكن عدهم من الطبقة المثقفة ، فقد كانوا يقومون بمهمة نبيلة ويكافحون الجهل بممارسة التعليم في الكتاتيب .

٣- لقد أنشأ المسلمون سواء كانوا أفراداً عاديين أم حكامًا الكثير من الأربطة

والمدارس في مكة وأوقفوها لصالح المسلمين وكان لهذه المؤسسات دور كبير في ازدهار التعليم ، وعلى الرغم من اهتمام المكيين بالحديث، فلم نعثر على أي دار مخصصة للحديث مثلما نجده في المدن الإسلامية الأخرى .

٤- عرف التعليم في مكة الحلقات العامة في المسجد الحرام وفي المدارس والأربطة والكتاتيب، كما كان هناك بعض الدروس الخاصة التي عمد بعض الأمراء والتجار إلى إنشائها بتمويل منهم ، وهناك أيضًا الدروس التي كانت تلقى في المنازل . ولقد ساعدت هذه الدروس كلها على نشر العلم بين صفوف المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها . وهكذا تنوعت مؤسسات التعليم ولم تكن على منوال واحد .

٥- كان الاهتمام بالكتب في تلك الفترة غير قليل، فقد أوقف الكثير منها وأودع في بعض الأربطة والمدارس ، وقد ساعد وجود تلك الكتب على نشر التعليم بين الناس، كما ساعد على تنشيط حركة التأليف .

٦- لقد عرف التعليم في مكة المكرمة وظيفة "المعيد" كما عرف الرحلة في طلب العلم ، وعرف الإجازات التي طبعت عملية التعليم بطابعها ، ومن آثارها ظاهرة الاستجازة من الخارج التي تدل - ولا شك - على روح علمية عالية وطموح كبير حمل أصحابه على عدم الاكتفاء باستجازة من يلقون بمكة من العلماء، بل تطلعوا إلى الخارج وحاولوا الحصول على الإجازات من علماء الأقطار الأخرى .

٧- لقد تصدى للتدريس في مكة مدرسون ، سواء أولئك الذين مارسوا التعليم في المسجد الحرام ، أو في المدارس المستقلة، جاءوا من مختلف

البلدان ، ولم يكونوا من بلد واحد ، وإنما كانوا يمثلون أقطار العالم الإسلامي ، مما يدل على أن مكة المكرمة قد تمكنت من استقطاب العلماء من مختلف الأقطار .

٨- احتل العلماء مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع المكي، ونالوا تقديراً واحتراماً من الخلفاء والسلاطين . وفضلاً عن التدريس فقد مارسوا بعض الأعمال والوظائف الأخرى سواء ماكان منها يتعلق بخدمات المسجد الحرام أو الأعمال الحرة كالتجارة والعطارة .

٩- لقد ازدهرت في مكة كثير من العلوم ومنها العلوم الدينية واللغوية والتاريخ، ونبغ في هذه العلوم عدد من العلماء المرموقين .

١٠- لقد ساهم المكيون والوافدون على مكة في حركة التأليف ، وقد وجد عدد غير قليل منهم صنفوا في مختلف العلوم المعروفة في زمانهم وساهموا في إغناء التراث الإسلامي .

١١- لقد كان للمجاورين دور كبير في الحركة العلمية ، وتولوا عدداً من الوظائف الدينية مثل إمامة الحرم المكي والقضاء والتدريس والفتوى والأذان ، وبعضهم كانوا طلاب علم، فأضفوا على المدينة المقدسة جواً علميًا رائعًا .

١٢- لقد شهدت مكة في فترة دراستنا عدداً غير قليل من الرحالين وكان بعضهم من أهل العلم ، وقد حرص هؤلاء على لقاء علماء الحرمين ومذاكرتهم وتبادل المنافع العلمية معهم .

١٣- لقد كان للمرأة المكية مساهمة ملحوظة في الحركة العلمية .

١٤- أما بالنسبة للحياة الاجتماعية ، فلا بد لنا أن ننبه إلى ماشهدته مكة من

فترات الرخاء والرخص وسنوات الجدب والقحط والأزمات الاقتصادية ، إذ كان لهذه الأوضاع أثر غير قليل في الحياة الاجتماعية .

١٥- لقد كان للصدقات وأوقاف الحرمين أثرها في إنعاش الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة، الأمر الذي انعكس أثره على الأحوال الاجتماعية، فقد كانت مكة تتلقى الصدقات الواردة من الحكام المسلمين في بعض الأحيان فتتقوى بها على سد حاجات أهلها ، كذلك هناك الأوقاف التي كان لها دور كبير في تأمين الدعم المادي لسكان مكة، يضاف إلى ذلك موسم الحج الذي لايخفى أثره في دعم اقتصاديات البلد الحرام وإنعاش الحياة الاجتماعية فيه، كما أسلفنا .

١٦- أدت المؤسسات الخيرية والمبرات دوراً لايستهان به في خدمة المجتمع المكي مثل الأربطة التي تنوعت ، فمنها أربطة الفقراء والمنقطعين ، والزهاد وتلك التي تخصص لأتباع المذاهب ولأهل بلد معين أو لطلبة العلم ، إذ كانت تقدم المأوى والمأكل لفئات كثيرة من الناس، وفضلاً عن ذلك فهناك عدد من المبرات الأخرى مثل الآبار والعيون والمطاهر والسبل والبرك، وكلهاكانت تؤدي خدمات جليلة لأهل مكة وللوافدين عليها من حجاج بيت الله الحرام .

١٧- كان للمرأة مشاركة فعلية في الأعمال الخيرية، مثل حبس الأوقاف على بعض الأربطة .

١٨- انفردت مكة المكرمة بظاهرة اجتماعية فريدة، هي وجود أعداد كبيرة من الغرباء الذين آثروا الإقامة فيها وسموا بالمجاورين . وقد كان لهؤلاء أثر ملموس في الحياة الاجتماعية، كما كان لهم أثرهم في الحياة العلمية، فهم يعيشون في صميم المجتمع فيؤثرون فيه ويتأثرون به .

١٩- فئات السكان في المجتمع المكي متباينة، فمنهم الأمراء والقواد الذين يأتون في قمة المجتمع . وهناك سكان مكة الأصليون ، ثم المجاورون الذين أسلفنا ذكرهم، وهناك الرقيق، فضلاً عن التجار الذين كانوا طبقة بارزة وهناك بطبيعة الحال المرأة المكية .

٢٠- كان لمنصب القضاء أهمية كبيرة في حياة المسلمين عمومًا ، ولا سيما في مكة المكرمة، حيث وجد قضاة للمذاهب الأربعة ، ومثلهم أئمة الحرم الذين تعددوا بتعدد المذاهب . ثم هناك أغوات الحرم وخدامه وسدنته . وكان لكل واحد من هؤلاء دوره ومكانته في المجتمع المكي .

٢١- لقد كانت مكة تشهد احتفالات وأعيادا ومواكب . مثل الاحتفال بالموالد وبصلاة الجمعة والأعياد، والاحتفال بالحج ومواكب رؤية الأهلة، فضلاً عن احتفالات رمضان وختم القرآن الكريم . ولكل من هذه الاحتفالات مراسمها وطقوسها .

٢٢- ولأهل مكة شأنهم شأن غيرهم عادات اجتماعية عديدة، ولاسيما بالنسبة للزواج والولادة والوفاة، كما أن لهم أزياءهم الخاصة وأطعمتهم المتميزة.

وهذه كلها تمثل جانبًا من المظاهر الاجتماعية لمجتمع المدينة المقدسة .

هذه هي أهم النتائج التي استخلصتها من دراستي، آمل أن أكون قد وفقت بها لإعطاء فكرة واضحة عن أحوال مكة المكرمة من الناحيتين العلمية والاجتماعية خلال القرنين السابع والثامن للهجرة ..

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانيًا : المخطوطات :

١ - الأسدي ، أحمد بن محمد (ت ١٠٦٦هـ) :

أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام ، مخطوط بجامعة الملك سعود ، قسم المخطوطات ، رقم ف ٢/٦٦ .

٢ - الحنفي، علي بن تاج الدين تقي الدين السنجاري (ت ١١٢٥هـ) :

منايح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، مخطوط بجامعة الملك سعود، رقم ٣٠ ، تاريخ دهلوي .

٣ - ابن رشيد ، محمد بن عمر الفهري السبيتي (ت ٧٢١هـ) :

ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات ، رقم ١٠٧ م . خ .

٤ - الصباغ ، محمد بن أحمد بن سالم (ت ١٣٢١هـ) :

تحصيل المرام في أخبار البيت والمشاعر العظام، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات ، رقم ٢٥١، ١١ تاريخ .

٥ - ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد القرشي (ت ٨٥٤هـ) :

تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، برقم ٢٨١ .

٦ - الطبري، علي بن عبدالقادر بن محمد بن يحيى بن مجد الدين الطبري (ت ١٠٧٠هـ) :

الأرج المسكي في التاريخ المكي، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم ٥٠/١، ٢ .

٧ - الطوسي، مصطفى بن سنان (ت ١٠٣٢هـ) :

رسالة المرام في أحوال بيت الله الحرام، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم ٢٤١١ .

٨ - العبدري، محمد بن محمد (من أعلام القرن السابع) :

رحلة العبدري، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات .

٩ - الفاسي، محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ) :

تحصيل المرام من تاريخ البلد الحرام، مختصر تحفة الكرام، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم ١٠ تاريخ دهلوي .

١٠- ابن فرج، عبدالقادر بن أحمد (١٠١٠هـ) :

السلاح والعدة في تاريخ جدة، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم ٤٥/٤ .

١١- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ) :

مسالك الأبصار، مخطوط دار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف .

١٢- ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد الهاشمي المكي (ت ٨٨٥هـ) :

إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مخطوط بجامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، رقم ١١٣/٢ .

١٣- ـــــــــــــــــــ .

الدر الكمين بذيل العقد الثمين ، في تاريخ البلد الأمين،

مخطوط بجامعة الملك سعود ، قسم المخطوطات ، رقم ف ١٩ .

ثالثاً : المصادر والمراجع المطبوعة

١٤- إبراهيم ، عبداللطيف : وثائق الوقف على الأماكن المقدسة، **كتاب ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية**، جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٥- الأبراشي، محمد عطية :

مكانة المرأة في الإسلام . - القاهرة : دار مصر للطباعة ، ١٩٨٠م .

١٦- الأبشيهي ، شهاب الدين أحمد بن أبي الفتح (ت ٨٥٠هـ) :

المستطرف في كل فن مستظرف ، جزءان . - بيروت : دار الفكر ، (بدون تاريخ) .

١٧- ابن الأثير ، عز الدين علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ):

الكامل في التاريخ (٣ أجزاء) . - بيروت دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م .

١٨- ـــــــــــــــــــ :

أسد الغابة في معرفة الصحابة ،(٥ أجزاء)، طبعة مكتبة الشعيبي ، ١٩٧٠م، الطبعة الثانية، بولاق ١٣٨٥هـ .

١٩- الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري (ت ٧٤٩هـ-١٣٤٨هـ) :

إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد؛ تحقيق وتقديم الدكتور عبداللطيف محمد العبد، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٨/١٩٧٨م .

٢٠- أحمد ، منير الدين :
تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس، ترجمة سامي الصقار، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٢١- الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت ٢٥٠هـ) :
أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار (جزءان) ؛ تحقيق رشدي الصالح ملحس ، دار الأندلس ، مطابع مايتوكرومو ، بدون تاريخ .

٢٢- الأسنوي، جمال الدين عبدالرحيم (ت ٧٧٢هـ) :
طبقات الشافعية (جزءان) ، الرياض : دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٢٣- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ) :
الأغاني ، ج ١ ، حتى ج ١٦، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٠م ج ١٧ حتى ج ٢٤، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

٢٤- الأفغاني، سعيد :
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. - ط ٢ - دمشق ، دار الفكر ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

٢٥- أمين ، أحمد :
فجر الإسلام . - ط١٢ . - القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨م .
٢٦- ________________ :
ضحى الإسلام (٣ أجزاء) الطبعة التاسعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩م .
٢٧- أمين ، بكري شيخ :
الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى ، بيروت، مطابع صادر ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م/١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
٢٨- أمين ، محمد محمد :
الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، الطبعة الأولى، القاهرة ، دار النهضة، ١٩٨٠م .
٢٩- الأنصاري، عبدالرحمن (ت ١١٩٥هـ) :
تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ؛ تحقيق محمد العروسي المطوي ، الطبعة الأولى، تونس، المكتبة العتيقة، نهج جامع الزيتونة ، (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) .
٣٠- الأنصاري، عبدالقدوس :
مع ابن جبير في رحلته ، الطبعة الأولى، القاهرة ، الطبعة العربية الحديثة ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .
٣١- الباخرزي ، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٤٦٧هـ) :
دمية القصر وعصرة أهل العصر، (جزءان) ؛ تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

٣٢- باسلامة، حسين عبدالله :

تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، الطبعة الثانية، جدة المملكة العربية السعودية ، تهامة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٣٣- باقاسي، عائشة :

بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، دار مكة للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٣٤- البتنوني، محمد لبيب ، (ت ١٣٥٧هـ) :

الرحلة الحجازية ، الطبعة الثانية : مصر، المطبعة الجمالية ١٣٢٩هـ .

٣٥- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) :

صحيح البخاري، القاهرة، دار الحديث ، طبعة الحلبي، بأربعة أجزاء (بدون تاريخ) .

٣٦- بروكلمان، كارل :

تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبدالحليم النجار، الطبعة الرابعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م .

٣٧- البسوي (أو الفسوي) ، يعقوب بن سفيان ، (٢٧٧هـ) :

المعرفة والتاريخ ؛ تحقيق أكرم ضياء العمري ، بيروت ١٩٨١م .

٣٨- ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله (ت ٧٧٩هـ) :

رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزءان) ؛ حققه وعلق عليه الدكتور علي الكتاني، الطبعة الأولى . - بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٣٩- البغدادي، إسماعيل الباشا (ت ١٣٣٩هـ) :
هدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين،وكالةالمعارف الجديدة في إستانبول، ١٩٥١م، الطبعة الثالثة، مكتبة جعفري تبريزي، بطهران، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

٤٠- ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ) :
جمهرة نسب قريش وأخبارها؛ تحقيق محمود محمد شاكر بيروت ، ١٣٨١هـ .

٤١- البلادي، عاتق بن غيث :
معجم معالم الحجاز، ٢ - ٩ أجزاء، الطبعة الأولى، دار مكة للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م / ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٤٢- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) :
فتوح البلدان ؛ تحقيق محمد رضوان ، القاهرة (١٩٣٢م) طبعة أخرى، بيروت ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٤٣- البلوي، خالد بن عيسى (توفي بعد سنة ٧٦٥هـ) :
تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ؛ تحقيق الحسن السائح، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة ودولة الإمارات العربية ، المغرب ، بدون تاريخ .

٤٤- التجاني، أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد (ت ٧٢١هـ) :
رحلة التجاني ،تونس، المطبعة الرسمية، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

٤٥- التجيبي ، القاسم بن يوسف (ت ٧٣٠هـ) :
مستفاد الرحلة والاغتراب ؛ تحقيق وإعداد عبدالحفيظ منصور، ليبيا ، تونس : الدار العربية للكتاب ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٤٦- التركي، عبدالله بن عبدالمحسن :

أصول مذهب الإمام أحمد بن حنبل ،الطبعة الأولى، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

٤٧- الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٥٧هـ) :

الجامع الصحيح (وهو سنن الترمذي في خمسة أجزاء ؛ تحقيق إبراهيم عطوة عوض،القاهرة، طبعة الحلبي - ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

٤٨- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ) :

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ؛ تحقيق أحمد ابن يوسف نجاتي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

٤٩- ———————— :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة(١٢جزءاً)القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣م.

٥٠- ———————— :

الدليل الشافي على المنهل الصافي ؛ تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، جامعة أم القرى .

٥١- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ) :

البيان والتبيين (٤ أجزاء)؛ تحقيق عبدالسلام هارون . - القاهرة : ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

٥٢- الجاسر ، حمد :

أشهر رحلات الحج ، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، الطبعة الأولى، الرياض ، دار الرفاعي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

٥٣- ابن جبير ، أبو الحسن بن أحمد بن جبير الكناني (ت ٦١٤هـ) :
رحلة ابن جبير المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"،
بيروت، دار صادر ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
٥٤- الجراعي الحنبلي، تقي الدين أبو زيد (٨٨٣هـ) :
تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد ؛ تحقيق طه الولي،
بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
٥٥- الجزري ، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أحمد ابن الأثير (ت٦٠٦هـ) :
جامع الأصول في أحاديث الرسول ؛ تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط (١١ جزءًا) مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح مكتبة دار البيان ، ١٣٨٩هـ - ١٣٩٢هـ/١٩٦٩م - ١٩٧٢م .
٥٦- الجزيري الأنصاري، عبدالقادر بن محمد (توفي بعد سنة ٩٧٦هـ) :
الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (جزءان) .
أعده للنشر حمد الجاسر ، الطبعة الأولى الرياض، المملكة العربية السعودية ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
٥٧- ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ) :
صفة الصفوة (٤ أجزاء) حلب ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
٥٨- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ) :
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، طبعة حيدر آباد، ١٩٥٤م .
٥٩- ابن حاتم اليامي، بدر الدين محمد (ت بعد سنة ٧٠٢هـ) :
السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن ؛ تحقيق الدكتور ركس سمث ، لندن ، ١٩٧٤م .

٦٠- ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :
تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (جزءان) : حوادث وتراجم (٦٧٨/٧٠٨هـ)حققه ووضع حواشيه الدكتور محمد أمين ، راجعه وقدم له الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٦م .

٦١- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) :
الإصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى . - القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

٦٢- ________________
إنباء الغمر بأنباء العمر : تحقيق محمد أحمد دهمان دمشق : ١٣٩٩هـ .

٦٣- ابن حجر العسقلاني (نفسه) :
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) - بيروت ، دار الجيل، (بدون تاريخ) .

٦٤- الحجي ، حياة ناصر :
أحوال العامة في حكم المماليك (٦٧٨ - ٧٨٤هـ) ، دراسة في الجوانب السياسية والاجتماعية، الطبعة الأولى، الكويت ، ١٩٨٤م .

٦٥- حسن ، علي إبراهيم :
نساء لهن في التاريخ نصيب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٨١م .

٦٦- حسين ، قدرية :
شهيرات النساء في العالم الإسلامي ، الناشر حسين صاحب المكتبة المصرية بمصر ، طبع بمطبعة السعادة ، الطبعة الأولى، القاهرة ، ١٩٢٤م .

٦٧- حسين ، محمد كمال :

انتشار الإسلام وأشهر مساجد المسلمين في العالم، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٦م .

٦٨- الخزرجي ، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ) :

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية : تحقيق محمد بسيوني، مطبعة الهلال، مصر ج ١ ، سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م ، ج ٢ سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .

٦٩- خصباك ، شاكر :

ابن بطوطة ورحلته، مطبعة الآداب بالنجف الأشراف ١٩٧١م .

٧٠- الخطيب البغدادي ، أبوبكر بن علي (ت ٤٦٣هـ) :

تاريخ بغداد ، (١٤ مجلداً)، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) .

٧١- ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :

المقدمة ، طبعة دار الشعب (بدون تاريخ) .

٧٢- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان(٨ أجزاء) ؛ تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٨م - ١٩٧٢م .

ج١ لايوجد سنة طبع .

ج٢ لايوجد سنة طبع .

ج٣ ١٩٧٧م / ١٣٧٩هـ .

ج٤ لايوجد سنة طبع .

ج٥ يوجد سنة طبع .

ج٦ ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧هـ .

ج٧ لايوجد سنة طبع .

ج٨ ١٩٧٢م .

٧٣- خليفة، حاجي :

كشف الظنون ، إستانبول ، ١٩٦٧م/١٣٧٨هـ .

٧٤- الخن ، مصطفى سعيد :

عبدالله بن عباس، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٠م .

٧٥- خيرت، أحمد :

مركز المرأة في الإسلام ، دار المعارف .

٧٦- الدارمي ، عبدالله بن عبدالرحمن (٢٢٥هـ) :

سنن الدارمي ، القاهرة ، ١٩٦٦م .

٧٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :

العبر في خبر من غبر ؛ تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت ، ١٩٦٠-١٩٦٦م .

٧٨- ________________ :

تاريخ الإسلام وطبقات المشاهيروالأعلام (٦ أجزاء) . - القاهرة : مكتبة المقدسي، ١٣٦٧هـ/١٩٦٩م .

٧٩- ________________ :

سير أعلام النبلاء (١٥ جزءاً) ؛ تحقيق شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، الطبعة الأولى ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٨٠- الراشد ، سعد عبدالعزيز :

شخصيات إسلامية أسهمت في عمارة طريق الحجاج من الكوفة إلى مكة المكرمة ، مجلة كلية الآداب، المجلد الخامس، عمادة شئون المكتبات، جامعة الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٧ - ١٩٧٨م .

٨١- ابن رجب ، زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين (ت ٧٩٥هـ) :

الذيل على طبقات الحنابلة . - القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

٨٢- رشدي ، صبيحة رشيد :

الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية ، بغداد ، ١٩٨٠م .

٨٣- الرشيد ، ناصر بن سعد :

بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة والتعريف بمخطوط النجم ابن فهد ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، كتاب **ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية** ، جامعة الرياض ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

٨٤- الرشيدي ، أحمد (ت ١١٧٨هـ) :

حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ؛ تحقيق الدكتورة ليلى عبداللطيف أحمد ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٨٠م .

٨٥- رفعت ، إبراهيم (ت ١٣٥٣هـ) :

مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (جزءان) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م .

٨٦- زامباور ، إدوارد :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، الترجمة العربية من قبل زكي حسن ، وحسن محمود وسيده الكاشف ، القاهرة ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

٨٧- زيادة، محمد مصطفى وآخرون :
دراسات عن المقريزي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧١) .

٨٨- زيدان، جرجي (ت ١٩١٤م) :
تاريخ التمدن الإسلامي ، ٥ أجزاء ، بيروت منشورات مكتبة الحياة، ١٩٦٧م .

٨٩- الزيلعي ، أحمد عمر :
مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١هـ - ٤٨٧هـ) ، المملكة العربية السعودية ، عمادة شئون المكتبات ، جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

٩٠- السامر ، فيصل :
ملاحظات في الأوزان والمكاييل الإسلامية وأهميتها ، مقال في مجلة كلية الآداب ، بغداد ١٩٧٠-١٩٧١م ، العدد ١٤ مج ٢ ص ٧٠٧-٧٠٩ .

٩١- السباعي، أحمد :
تاريخ مكة (جزءان) الطبعة الرابعة ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٩٢- السبكي، عبدالوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ) :
طبقات الشافعية الكبرى، (٦ أجزاء) ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بدون تاريخ) .

٩٣- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) :

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (جزءان) ؛ عني بطبعه ونشره أسعد طرابزوني، القاهرة ، دار نشر الثقافة ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

٩٤- ــــــــــــــــ :

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١٢ جزءاً) بيروت ، مكتبة الحياة ، (لا يوجد تاريخ) .

٩٥- ــــــــــــــــ :

التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة (لا يوجد تاريخ) .

٩٦- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت ٢٣٠هـ) :

الطبقات الكبرى، (٨ أجزاء) ، دار بيروت ، دار صادر ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .

طبعة ثانية، بريل ، ليدن ، ١٣٢٢هـ .

طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٦٠م .

٩٧- السليمان ، علي بن حسين :

العلاقات الحجازية - المصرية زمن سلاطين المماليك، القاهرة ، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

٩٨- السنوسي، محمد (ت ١٣١٨هـ) :

الرحلة الحجازية : تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

٩٩- السيف ، عبدالله محمد :
الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الرياض ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
١٠٠- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ):
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جزءان) ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م - ١٩٦٨م .
١٠١- ــــــــــــــ :
الوسائل إلى معرفة الأوائل ؛ تحقيق د. إبراهيم العدوي، د. علي محمد عمر ، الناشر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة (بدون تاريخ) .
١٠٢- ــــــــــــــ :
بغية الوعاة ، في طبقات اللغويين والنحاة (جزءان) القاهرة ، طبعة الحلبي ، ١٩٦٤م .
١٠٣- ــــــــــــــ :
تاريخ الخلفاء ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، دار نهضة مصر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .
١٠٤- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن ابن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) :
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذليل على الروضتين، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٤م .
١٠٥- ــــــــــــــ :
الروضتين في أخبار الدولتين (جزءان) الطبعة الثانية . - بيروت ، دار الجيل ، (بدون تاريخ) .

١٠٦- الشريف، أحمد إبراهيم :
مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٦٥م .

١٠٧- شلبي ، أحمد :
موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،الطبعة السادسة ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨م .

١٠٨- شلبي ، أحمد (نفسه) :
تاريخ التربية الإسلامية، الطبعة السابعة ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨٠م .

١٠٩- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) :
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (جزءان) الطبعة الأولى ، دار المعرفة للطباعة والنشر، ج ١ ، ١٣٤٨هـ، ج٢ (بدون تاريخ) .

١١٠- ابن صديق ، أبو هشام عبدالله :
الأسر القرشية أعيان مكة المحمية ، الطبعة الأولى ، جدة ، تهامة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

١١١- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ) :
الوافي بالوفيات ، ١٠ أجزاء ؛ باعتناء هلموت ريتيز ، ألمانيا ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م - ١٩٦٢م .

١١٢- الصقار ، سامي :
أهمية التواريخ المحلية ، بحث في كتاب ألقي في الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ، جامعة الرياض ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١١٣- ــــــــــــــــــــ :

الحركة الثقافية في الجزيرة العربية، حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، بحث ألقي في الندوة العالمية الثالثة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية عقدته كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (لم ينشر) .

١١٤- الصيرفي، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ) :

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (٣ أجزاء) ؛ تحقيق الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠م .

١١٥- ضيف ، شوقي :

تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات ، الجزيرة العربية ، العراق ، إيران ، مصر) ، دار المعارف ، ١٩٨١م .

١١٦- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :

تاريخ الرسل والملوك (١٠ أجزاء) ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠م/١٩٦٩م .

١١٧- طلس ، أسعد :

التربية والتعلم في الإسلام ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٧م .

١١٨- أبو الطيب اللغوي، عبدالواحد بن علي (ت ٣٥١هـ) :

مراتب النحويين ؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر ، القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٧٤م .

١١٩- ابن ظهيرة القرشي، جمال الدين محمد جارالله بن محمد (ت ٩٨٦هـ) :

الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف، القاهرة، ١٩٣٨م .
طبعة أخرى ، الطبعة الأولى ، مصر : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٤٠هـ/١٩٢١م .
١٢٠- العاملي ، زينب بنت علي بن حسين بن فواز :
الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، القاهرة، المطبعة الأميرية ، ١٣١٢هـ .
١٢١- عبدالله ، عبدالرحمن صالح :
تاريخ التعليم في مكة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .
١٢٢- ابن عبدالبر ، يوسف بن عبدالله (ت ٤٦٣هـ) :
جامع بيان العلم (جزءان) ، راجعه وصححه عبدالرحمن محمد عثمان ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ١٩٦٨م .
١٢٣- ابن عبدربه ، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) :
العقد الفريد، (٨ أجزاء) ؛ تحقيق محمد سعيد العريان، بيروت ، دار الفكر، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .
١٢٤- عبدالجبار ، عمر :
دروس عن ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام ، الطبعة الأولى ، جدة ١٣٧٩هـ .
١٢٥- عبدالعزيز ، محمد الحسيني :
الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٣م .

١٢٦- عبداللطيف ، إبراهيم :
وثائق الوقف على الأماكن المقدسة ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، ج ٢ ، جامعة الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
١٢٧- العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك المكي (ت ١١١١هـ) :
سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٤ أجزاء) القاهرة ، المطبعة السلفية ، (بدون تاريخ) .
١٢٨- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبدالحي أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ) :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ أجزاء) ، بيروت ، لبنان ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، (بدون تاريخ) .
١٢٩- عنقاوي، عبدالله عقيل :
المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه ، المملكة العربية السعودية ، مجلة كلية الآداب، المجلد الثاني، السنة الثانية ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
١٣٠- ـــــــــــــــ :
المؤرخ تقي الدين الفاسي وكتابه شفاء الغرام ، بحث ألقي في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، **مصادر تاريخ الجزيرة العربية** ، جامعة الرياض ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
١٣١- العياشي، أبو سالم (١٠٩٠هـ) :
الرحلة العياشية، المغرب ، مكتبة الطالب، (بدون تاريخ) .
١٣٢- غريب، جورج :
الموسوع في الأدب العربي، أدب الرحلات تاريخه وأعلامه، بيروت ، دار الثقافة، ١٩٧٩م .
١٣٣- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) :
إحياء علوم الدين ، بيروت ، دار المعرفة، (بدون تاريخ) .

١٣٤- الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ) :

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان) ، مكتبة النهضة الحديثة، طبع بدار إحياء الكتب العربية ، مكة ١٩٥٦م .

١٣٥- ــــــــــــــــــ :

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٨ أجزاء) جميع الأجزاء ، تحقيق فؤاد سيد ماعدا ج ١ ؛ تحقيق محمد حامد الفقي، ج ٨ ؛ تحقيق محمود الطناحي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية .

ج ١ ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .

ج ٢ ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

ج ٣ ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

ج ٤ ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م .

ج ٥ ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م .

ج ٦ ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

ج ٧ ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

ج ٨ ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م .

١٣٦- الفاكهي ، أبو عبدالله بن إسحاق (ت ٢٧٢هـ) :

أخبار مكة المشرفة، المنتقى بأخبار أم القرى (٤ أجزاء) بيروت ، لبنان ، مكتبة خياط ، (بدون تاريخ) .

١٣٧- ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧هـ) :

تاريخ ابن الفرات ، المطبعة الأمريكانية ؛ عني بتحرير نصه ونشره د قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٦م .

١٣٨- ابن فرحون المالكي، بدر الدين عبدالله بن محمد (ت ٧٩٩هـ) :
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (جزءان) ؛
تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة : دار التراث ،
(بدون تاريخ) .
١٣٩- ابن فهد ، عمر بن محمد الهاشمي (ت ٨٨٥هـ) :
إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، مطبوع ؛ تحقيق وتقديم فهيم
محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي، مكة ، المملكة
العربية السعودية ، ج١ لم تذكر دار النشر ولا سنة الطبع ، ج٢
الطبعة الأولى، القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر
١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ج٣ لم تذكر دار النشر ولا سنة الطبع .
١٤٠- ______ :
معجم الشيوخ ؛ تحقيق وتقديم محمد الزاهي ، راجعه حمد الجاسر،
المملكة العربية السعودية ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة
والنشر ، القاهرة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
١٤١- فهمي ، أسماء :
مبادئ التربية الإسلامية، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ،
١٣٦٦هـ/١٩٤٧م .
١٤٢- ابن الفوطي ، أبو الفضل عبدالرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي (ت ٧٢٣هـ)
تلخيص معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، الطبعة الأولى ،
دمشق ، ١٩٦٢م/١٩٦٧م .
١٤٣- الفيروز أبادي ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧هـ) :
المغانم المطابة في معالم طابة ، الطبعة الأولى ، الرياض ، المملكة
العربية السعودية ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة ،
١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

١٤٤- ـــــــــــــــ :
القاموس المحيط (٤ أجزاء) ، بيروت ، لبنان : دار العلم للملايين ، (بدون تاريخ) .

١٤٥- ابن قاضي شهبة ، أبو بكر بن أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ) :
طبقات الشافعية ؛ صححه وعلق عليه ورتب فهارسه الدكتور عبدالعليم خان الهندي ، الطبعة الأولى ، مكتبة حاذق بحيدر أباد ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٤٦- القرشي ، محيى الدين أبو محمد عبدالقادر بن محمد بن محمد بن نصر الله ابن سالم بن أبي الوفاء (ت ٧٧٥هـ) :
الجواهر المضية في طبقات الحنفية (جزءان) ؛ تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، (بدون تاريخ) .

١٤٧- القطبي ، عبدالكريم (ت ١٠١٤هـ) :
إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ؛ علق عليه أحمد محمد جمال ، عبدالعزيز الرفاعي ، واشترك في التعليق على هذه الطبعة د. عبدالله الجبوري ، الطبعة الأولى ، الرياض ، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٤٨- القلصادي ، أبو الحسن علي (٨٩١هـ) :
رحلة القلصادي ؛ دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٨م .

١٤٩- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) :
صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٤ جزءاً) القاهرة : المؤسسة

المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر،
١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .
طبعة أخرى ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٩٣٧م .

١٥٠- الكتبي ، صلاح الدين محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ) :
فوات الوفيات والذيل عليها (٥ أجزاء) بيروت ، دار صادر،
١٩٧٤م .

١٥١- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٧٤هـ) :
البداية والنهاية في التاريخ (٤ أجزاء) الطبعة الثانية ، بيروت ،
مكتبة المعارف، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

١٥٢- كحالة ، عمر رضا :
معجم المؤلفين (٥ أجزاء) بيروت ، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث
العربي ، ١٩٥٧م .

١٥٣- ______________ :
المرأة في عالمي العرب والإسلام (جزءان) الطبعة الثانية، بيروت ،
مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

١٥٤- ______________ :
أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (٥ أجزاء) الطبعة الثالثة ،
بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١٥٥- كنون، عبدالله :
ذكريات مشاهير رجال المغرب، مكتبة المدرسة ، بيروت ، دار الكتاب
اللبناني ، (بدون تاريخ)

١٥٦- ابن ماجه ، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)
سنن ابن ماجه (أربعة أجزاء) ؛ تحقيق مصطفى الأعظمي ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
١٥٧- مالك ، أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي الأصبحي الحميري (ت ١٧٩هـ) :
المدونة، الطبعة السادسة، مصر : مطبعة السعادة، ١٣٣٣هـ .
١٥٨- مالكي، سليمان عبدالغني :
بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية ، الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
١٥٩- ابن المجاور ، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت بعد سنة ٦٢٦هـ) :
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، صححها وضبطها أوسكر لوفرين ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥١م .
١٦٠- محمدين، محمود :
التراث الجغرافي الإسلامي، الإسكندرية، ١٤٠١هـ .
١٦١- المراغي، عبدالله مصطفى (القرن الرابع عشر الهجري) :
الفتح المبين في طبقات الأصوليين (٣ أجزاء) محمد أمين وشركاه، الطبعة الثانية، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
١٦٢- ابن المستوفي، المبارك بن أحمد الإربلي (ت ٦٣٧هـ) :
تاريخ إربل ؛ تحقيق د. سامي الصقار، بغداد ١٩٨٠م. ، القسم الأول .

١٦٣- معروف، ناجي :
المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، الطبعة الثانية ، القاهر ، مطابع دار الشعب ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

١٦٤- ______________ :
تاريخ علماء المستنصرية، الطبعة الثالثة ، بغداد : مطبوعات الشعب ، (بدون تاريخ) .

١٦٥- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣ أجزاء) مكتبة إحياء العلوم (بدون تاريخ) .

١٦٦- المقريزي (نفسه) :
الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ؛ تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ، مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٥٥م .

١٦٧- ______________ :
اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ؛ تحقيق د. جمال الدين الشيال، يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

١٦٨- ______________ :
السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١ ، ج ٢ ؛ تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف ، ١٩٥٦/١٩٥٧م . ج ٣ ، ج ٤ ؛ تحقيق الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢م .

١٦٩- ______________ :

إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ١٩٨٠م .

١٧٠- المنذري، عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت ٦٥٦هـ) :

التكملة لوفيات النقلة (٤ أجزاء) ؛ تحقيق بشار عواد معروف ، النجف ١٩٦٨-١٩٧١م .

١٧١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت ٧١١هـ) :

لسان العرب المحيط (٣ مجلدات) قدم له الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت ، دار لسان العرب، (بدون تاريخ) .

١٧٢- ناصر خسرو، أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ) :

سفر نامة، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، ترجمة د. يحيى الخشاب، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م .

١٧٣- مورتيل، ريتشارد :

الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه قدمت إلى جامعة القاهرة، كلية الآداب ، قسم التاريخ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م (لم تنشر) .

١٧٤- النهروالي ، قطب الدين المكي الحنفي (ت ٩٩٠هـ) :

الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، بيروت ، مكتبة الخياط، (بدون تاريخ) .

١٧٥- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ) :
شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ؛ شرح مصطفى سعيد الخن، مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
١٧٦- ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك (ت ٢١٣هـ) :
السيرة النبوية (٤ أجزاء) ؛ تحقيق أحمد حجازي السقا، بيروت ، دار التراث العربي للطباعة والنشر ، ١٩٧٩م .
طبعة أخرى ؛ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، القاهرة ١٩٣٦م .
طبعة أخرى ؛ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، لبنان ، دار إحياء التراث ، ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
١٧٧- ابن هشام ، جمال الدين عبدالله بن يوسف (ت ٧٦١هـ) :
مغني اللبيب، طبعة الحلبي بالقاهرة (بدون تاريخ) .
١٧٨- الهيثمي ، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر :
بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ؛ تحقيق عبدالله الدرويش (١٠ أجزاء) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
١٧٩- اليافعي، عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ) :
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان (٤ أجزاء) الطبعة الأولى ، حيدر أباد : مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٨هـ .
١٨٠- ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ) :
معجم البلدان (٥ أجزاء) بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧م.
طبعة ثانية، بيروت ، ١٩٦٥م .

رابعًا : المراجع الأجنبية :

١٨١- ANKAWI, ABDULLLAH, The Pilgrimage to Mecca in Mamluk times, **in Arbian Studies**, Cambridge, 1974.

١٨٢- W. G. MILLWARD, Taqi al dinal Fasis sources for the history of Mecca from the Fourth to Ninth centuries A. H. **Sources for the history of Arabia**, Riyadh University Press, 1399,1979 .



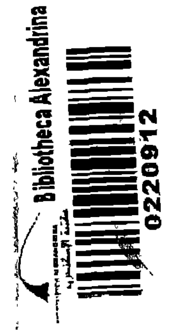
مطابع الناشر العربي
Al-Nasher Al-Arabi P.Press
تلفون ٤٥٦٣١٤٥ / ٤٥٣٠٠١١ فاكس ٤٥٦٣١٤٥
Tel.: P.P. 4563145 / 4530011 Fax: 4563145



تصميم وطباعة مطـابع الناشر العربي تلفون : ٤٥٣٠٠١١ فاكس: ٤٥٦٣١٤٥

الكتاب

- يتناول هذا الكتاب بالدراسة الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة .
- وتعزو المؤلفة سبب اختيارها لهذا الموضوع إلى عاملين رئيسين :
- أولهما : اعتقادها بأن الحجاز على - الرغم من أهميته العظيمة - لم يحظ بما يستحقه من اهتمام الدارسين وعناية الباحثين لهذه الفترة التي تغطيها الدراسة ؛ إذ كانت مصادر التاريخ الإسلامي المعروفة حريصة على تناول تاريخ الحجاز منذ عصر النبوّة وحتى منتصف القرن الثاني الهجري عندما كان الحجاز مركزاً للنشاط السياسي والعلمي . ثم بدأ الحرص يتضاء ل لاسيما منذ مطلع القرن الثالث الهجري . فلم تعد تلك المصادر تمدنا إلا بالنزر القليل الذي كان يتركز على تاريخ مكة الديني ، ونادراً ما تشير إلى أوجه الحياة السياسية والاقتصادية والحضارية لهذا البلد ، مع الأخذ في الحسبان أن الوضع السياسي هو الوعاء الذي تدور في نطاقه الحياة العلمية والاجتماعية .
- وثانيهما : أن هذين القرنين شهدا تغييرات تاريخية جسيمة في أنحاء العالم الإسلامي ومنها الحجاز ، وقد ظلت المعلومات عنها ، في شتى صنوف المعرفة فكانت حافزاً قويًا للمؤلفة لبذل كل جهـ في البحث عن المعلومات المدفونة في بطون الكتب على اخـ أصنافها. فكانت الحصيلة هذه الدراسة التي بين يدي القارئ الـ



ISBN 9960-00-067-2
ردمك ٢-٦٧-٠٠-٩٩٦٠